وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

حكايات حارة المؤيد
الجن والعاشقات

رواية



عماد ندّاف

حكايات حارة المؤيد

«الجن والعاشقات»

لوحات الغلاف: الفنان أبو بكر عبد العزيز

تصميم الغلاف: الفنان منير الرفاعي

عماد نداف

حكايات حارة المؤيد

«الجن والعاشقات»

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٢٢م

حكايات حارة المؤيد: الجن والعاشقات: رواية / عماد نداف .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٢م .- ٣٥٢ ص ؛ ٢٥سم.

١- ٨١٣,٠٣ ن د ا ح ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ن د ا ح

٣- العنوان ٤- نداف

مكتبة الأسد

غرفة العناية المشددة

الحمى!

يا إلهي!

أي وجع يجتاح رأسي! يا إلهي ما الذي أصابني؟

حرارتي ترتفع. وترتفع. أشعر أن لهيباً يشتعل في كياني. ما الذي يرفع الحرارة أو يخفضها في جسدي؟ أتكون جروح رأسي الملتهبة التي سببتها ضرباتهم العنيفة؟ أيكون سُمّاً وضعه أولئك الذين يحبون أنفسهم ومصالحهم ولا يحبون أحداً؟!

لا أعرف. لا أعرف ما الذي أصابني...

وصلت حرارتي إلى الأربعين. بدأتُ أغلي. هل شاهدتم إنساناً يغلي. أنا صُرتُ إنساناً يغلي. تراءى لي مشهدٌ غريبٌ. ربما رسمته الحمى، وربما كان نبوءة، وربما كان واقعاً!

رأيتُ أقفيةَ نساءٍ يركضنَ عاريات وهن يولولن أمام قطيع من الملثمين بأقمشة سوداء يشبهون القطط المتوحشة. رأيتُ أجساداً ممزقة الملابس لرجالٍ وأطفالٍ يتراكضون في شتى الاتجاهات، رأيتُ قذائفَ تسقط من فوق، وقذائفَ تخرج من تحت. رأيت بنادقَ. رأيتُ عصافيرَ مقطعة الأوصال وبعضها حيّ يئن ولا يزقزق. ورأيتُ أطفالاً مقتولين خنقاً. رأيت بقايا ورود ذابلة، وحريقاً.

كان كل شيء واضحاً. عارياً. والولاويل التي سمعتُها، والصياح... كل شيء كان عارياً تماماً، لا يمكن إخفاء عُرْيَه أبداً. خلتُ نفسي في يوم القيامة، وأنا أسألُ: ماذا يجري؟ ماذا يجري؟

كان المشهدُ مختلطَ التفاصيل. بكاءٌ وصراخٌ. أيادٍ تمسك نسوة من أذرعهن وسواعد لُفّتْ عليها جدائلُ الشعر، وسُحبَتْ صاحباتُها بعنف. اتسعت بُقع الدم المنتشرة. بَدَتْ مثل دوامة ألوان لخداع البصر. وكنتُ أغلي. أحسستُ أن الأجساد تظهر وتتلاشى. تبتعد وتقترب، ثم تغيب. ابتلعها ماءٌ غزيرٌ، يتراقصُ كسراب.

توسّع السرابُ، تحوّل إلى حوتٍ يبتلع كل شيء. ذهبتُ إلى مكان قديم. أحسسته رطباً آمناً. ذهبتُ إلى حارة قديمة أحبها. سمعتُ دندنة تأتي من حارة المؤيد في الجسر الأبيض: «حبيبتي زنبقة صغيرةٌ...أما أنا فعوسجٌ حزينْ».

حبيبتي ليست زنبقة. حبيبتي اسمها ديمة، وأنتم لاتعرفون ديمة... ديمة صورة أحلامي كلها. أمان روحي وجسدي ياحبيبتي... ديمة. ديمة. مة... مهْ... مهْ.

الحرارة شديدة، فقالتْ أصوات: كمادات ماء بارد... كمادات ماء بارد... وصدى: باردْ... ردْ... ردْ وطنين: دْ دْ!

أنا لم أحسب الزمن... الهذيان امتد لساعات، وليس بمقدور من يهذي أن يعدّ الساعات... كنتُ أسألُ نفسي: من أخذني إلى حارتي في الجسر الأبيض. من أخذني إلى الماضي، وأنا أغلي في حاضر مجهول. إنها حارة المؤيد الجميلة القائمة على الحب. حارة المؤيد هُدّمتْ... راحتْ منذ زمن طويل... يعني ماتت. هل يمكن أن تموت الحاراتْ؟!

أنت لست في حارة المؤيد. همستْ أختي فدوى من فوقي تريد أن تعيدني من هذياني. سألتُها: أين أنا؟ يا ألله... لا أحد يجيبني أين أنا... ميّزتُ ملامح الحاضرين: أخي حامد كان قريباً مني: حواجبه مقفولة.. عيناه زرقاوان... شارباه أسودان مع شعيرات بيضاء فوق شفتين مكتنزتين... وشعرُهُ الفاحم غزاه شيبٌ كثيفٌ أبيضُ. أصبح عجوزاً. يذهب ويعود ويبدو قلقاً... كيف كبر حامد على هذا النحو.

فدوى شقيقتي تضرب كفا بكف وعلى وجهها علائمُ دهشة، وتُكلّم نفسها: «الله لا يسامحهم. يا ربي عافه. ياربي خفف وجعه» وفوق رأسها إيشارب نهدي، وعيناها الواسعتان تحدّقان بي بعطف وحنان كعيني أمي. تغضن وجهها وكبرت...

مزنة العوني، لا أعرف متى جاءتْ... امرأةٌ ممتلئةٌ، ملهوفة تريد أن تعرف مصيري. تتحدث عن أشياء لا أعرفها تحكي عن وجعي. تريد أن تكون معي...

كانوا يتحلّقون حولي بدائرة مغلقة، ويتحركون أحيانا، فيذهبون إلى النوافذ، ثم يعودون، ويتحدثون عن شيء ما يجري في المستشفى، ثم يعودون باتجاه سريري.

كانوا مشغولين بي وبحرارتي التي تعلو وتنخفض بين لحظة وأخرى... همهمت مزنة تريد الاطمئنان:

شو ما كان... المهم تنخفض حرارة فادي!

قلت لهم القطط السوداء تعود.

أخي حامد مسحَ العرقَ عن وجهي، بدّلَ المحارمَ الورقية عدة مرات، يمسحُ جبيني ثم يرميها في علبة قريبة من سريري. أختي فدوى اقتربت

لتلمس شعري، وتهدّئ روعي، وقال صوت: قمْ. هيا. يا الله فادي. قم حبيبي فادي. قمْ. أنت أقوى من الحمى!

لم أقمْ... ارتفع صوتي: أريد ديما!!!!!

وسمعتُ بكاءَ فدوى وهمسَ مزنة «الحمى في رأسه جننته»، ولاحظتُ التفاتَ أخي حامد نحو النافذة المغلقة في غرفة المستشفى، وكأنه يريدُ إخفاءَ خوفٍ اشتعل فجأة في صدره حول حالتي الصحية المتدهورة، وسمعتُه يهمس «اللعنة عليهم... اللعنة عليهم جننوه».

من هم الذين جننوني. جاءتني عبارتُه كأنها في مسرحية قديمة لشكسبير، لكن أحداً من المتفرجين لم يشاركه أو يخالفه الرأي، فتمتمتُ منهكاً:

غرّقني الماء!

فتحتُ عيني. اقتربَ مني طبيبٌ شاب كان متوارياً خلفهم ينظر من النافذة إلى ساحة المستشفى. عرفتُه من الساعة التي يعلقها على صدره مثل ربطة عنق من مطاط. اسمه رضوان المؤيد. فقلت له: ماذا رأيت في ساحة الجسر الأبيض؟

ردد يهدئ روعي. ما الذي أخذك إلى الجسر الأبيض. ذكرتني بجدي عادل. في الجسر الأبيض عاش جدي. نحن لسنا في الجسر الأبيض. اهدأ قليلاً. اهدأ يا سيد فادي. ستنخفض الحمى حتماً. سيحاسب أولئك الذين ضربوك. يجب أن تهدأ لكي نتمكن من تخفيض الحرارة.

كان دمثاً زيادة عن اللزوم، فطردته: ابتعدْ... ابتعدْ. ابتعدَ الطبيب وهو يتهمني بأني أهذي، وسمعتُ صوتي يطلبُ بإلحاح: أريد الأمير الجزائري... أريد الأمير الجزائري. ولم أعد أسمع صوتي...

جاء الأميرُ الجزائري. كنتُ أغليْ. والأمير الجزائري يساوي ثمانين عاماً من الرطوبة والنزيز. جاء الأمير. جاءت ثمانون عاماً. على رأسه طربوشٌ أحمر. نظرتُ في وجهه، كان متغضناً حفرت فيه السنون قنوات وأخاديدَ. سألت نفسي «ألم يمت بعد؟ هل هو حي حتى الآن؟!» قلتُ له خذني إلى حارة المؤيد. فهي هناك. خذني إلى ديمة الراضي. أريد ديمة. ديمة. وصدى: ديمة. مة. مة.مه. مااا وطنين: آ!

حكاية الجن
في قصر المؤيد!

أثار ظهور القطط السوداء في حارة المؤيد لغطاً كبيراً بين السكان، فقد تعالى مواؤها، وكان المواء يُسمع أحياناً من دون أن يَراها الناسُ، فالأصوات تظهر وتختفي ولا ترشد على مكان صاحبها.

تشاءم سكان الحارة كثيراً. وصل تشاؤمهم إلى شهر شباط نفسه من ذلك العام، الشهر الذي كاد ينتهي وتنتهي قصصه معه، لولا أن الأيام الأخيرة منه شهدت انقلاباً عسكرياً جديداً وقع في البلاد، فقد جرت تحركات طلابية في حلب، أعقبها سقوط العقيد أديب الشيشكلي قائد الانقلاب الأخير، وفراره إلى بيروت، وانتشار الجيش في الشوارع!

في اليوم الأخير من ذلك الشهر ذاع في منطقة الجسر الأبيض كلِّها خبرٌ آخر يتعلق بقصر المؤيد المهجور، فقد سمع الناس عن قرار الدكتور خالد المؤيد العودة إلى قصر أبيه المتاخم للحارة، التي أخذت اسمها منه، وكان القصر مغلقاً لأنه مسكون بالجن كما يقال في الحارة!!

لم تكن حركة الدبابات قد هدأت في الشوارع، ولم يكن الخوف قد تراجع من ردة فعل مؤيدي العقيد الشيشكلي في الجيش، واحتمالات وقوع حرب أهلية أو على الأقل معارك طاحنة ومدمرة بين فصائل الجيش المتنازعة على السلطة.

انتشرَ الخبرُ كالنار في الهشيم، وانشغلَ الناس بتفاصيله، وتداخلت الحكايات بين الواقع والخيال، فمرة يحكي الناس عن عودة قريبة للشيشكلي بأظافر أقوى من قبل، ومرة تتجه الحكايات إلى القطط السوداء وحكايات عن ظهورها هنا وهناك.

في نهاية المطاف استقرت الحياة المدنية نسبياً في البلاد مع عودة فصائل الجيش إلى الثكنات. وعاد حديث الناس ليتركز على القصر نفسه وما سيكون عليه رد فعل الجن عندما يسكنه الدكتور خالد...

منذ عشرة أعوام، سافر الدكتور خالد المؤيد إلى باريس للدراسة، وعاد بحكاية سكنه في القصر، فلماذا يسكن في قصر مغلق مخيف، وهو قادر على شراء قصرين آخرين بدلاً من قصر أبيه؟ هل عاد مجنوناً بدل أن يعود حكيماً؟ ومن أين أتته هذه الجرأة على التحدي في مسألة من هذا النوع محفوفة بمخاطر ولعنات قد لا تخطر على بال؟!

لم تعد قصته محصورة بحارة المؤيد، بل صارت قصة منطقة الجسر الأبيض كلها. سرتْ توقعات كثيرةٌ عما سيجري له، واستُعيدت أحاديثُ مختلفة عما جرى لأبيه قبل سنوات، وكل حديثٍ كان يَحذفُ ويضيفُ من تفاصيل القصة الحقيقية القديمة...

أعلن الدكتور خالد ساخراً:

- سأفتحُ القصرَ، وأسكنُ فيه، حتى لو نمتُ مع الجن في تخت واحد!

وقال جاداً، وكأنه يريد أن يحسم كل الأقاويل:

- يجب أن ننتهي من هذه الخرافة!

سمع الشيخ عبده الخرسا هذا التحدي، وهو يصلي في جامع الجسر الأبيض، فقال في ردّ فعلٍ سريع:

- اتركوه... جاء من بلاد برّا مع (امرأة إفرنسية) ليَكْفُرَ في معتقداتنا والعياذ بالله، ومن الطبيعي في هذه الحالة، أن يسكن مع الجِنّ...

وعلّق ساخرا:

- ربما يكون منهم!

ضحك بعض المصلين. وعاد الشيخ ليحكي أشياء كثيرة عن الجنّ، فهم من نار، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، ويوجد بعضُهم في الخرائب، ودورات المياه، وتُحكى القصص عن شركاء لهم بين الإنس يقومون باستخدامهم في أذى الناس وسحرهم وكشف كنوز مرصودة ومطمورة في أراضٍ محددة.

وعندما التقى الشيخ عبده جاره مؤمن عبد ربه، وكان معه ابنه مالك، سمع رأيا من مالك جعله يغضب ويثور. قال مالك:

- لماذا تخيفكم هذه الخرافة؟!

فصاح الشيخ ناصحاً:

- لا يجوز القول بأن الجن خرافة... وقال:

- إن الشاعر الملحد أبو العلاء المعري، قال عن يوم القيامة والبعث إنه خرافة، فعماه الله في الآخرة إضافة إلى عماه في الدنيا!

سأله مالك:

- وماذا قال المعري يا شيخ حتى عماه الله في الدنيا والآخرة؟!

أجابه وهو يحسم الحوار:

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمروٍ

هذا كفر!

راقب مؤمن عبد ربه الحوار بين ابنه والشيخ مبتسماً، لكنه سمع في خطبة الجمعة في جامع الجسر الأبيض، الخطيب يتحدث عن الموضوع وكأنه سمع الحوار، فروى حديثاً تناقله السكان بسرعة يقول:

«حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ذات ليلة حديثاً، فقالت امرأة منهن... يارسول الله كان الحديث حديث خرافة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم... أتدرين ما خرافة... إن خرافة كان رجلاً من عُذرة أَسَرَتْهُ الجن في الجاهلية فمكث فيهم دهراً طويلاً، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدّث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس (حديث خرافة)».

وبين أن يكون (الجنُّ) خرافة أم حقيقةً. تراجعت الأقاويل عن الشيشكلي والأحزاب وعودة الرئيس شكري القوتلي، وانقسمت آراء سكان حارة المؤيد إلى وجهتي نظر، بعضهم تخوف من أحداث تقع، وراح يردد «الله يجيرنا» وبعضهم دافع عن الحكيم، وهو اللقب الذي صار يعرف فيه الدكتور خالد، لأن الحق معه، وهو متعلم في باريس، والقصر «سيّاح نيّاح»، أثاثه موجود فيه، مغلق بسبب قصة لم يتأكد منها أحد!

احتج ناظم الإيتوني (أبو محمود) الذي يجاور بيته القصرَ من جهة الشمال على الاستهتار بموضوع الجن قائلاً:

- لو لم يكن هناك شيء مما قيل لما جرى لعادل المؤيد رحمه الله ما جرى وما كان هجرَ القصر منذ أيام حسني الزعيم!

ووافقه الشيخ الخرسا على ذلك...

* * *

حدث ذلك فجرَ أول أيام عيد الأضحى بعد انقلاب الزعيم، وكان فجراً بارداً مشى فيه الضباب في شوارع الشام كأنه وحش أسطوري يبحث عن فريسة ليبتلعها. كان بارداً يلسع الوجوه بإبر حادة، فهجع الناس إلى بيوتهم، وقليلون منهم صلّوا الصبح في المساجد. صارت الشوارع موحشة. ضع إصبعك أمام عينيك فلا تراها من شدة كثافته، ليلة عجيبة غريبة، كما قال أحد المصلّين.

في ذلك الفجر، خرج عادل المؤيد من قصره إلى الشارع كالمجنون، وقد تغيّرت ملامحُ وجهه، فمالت ذقنه وفمه نحو اليمين والتصقا بشحمة أذنه، وضاق محجر عينه اليمنى، وصار يهذي بكلمات غير مفهومة عن إصابته، ويصرخ مثل كلب جريح، وكان الناس يسمعون صوته ولا يرونه من كثافة الضباب، وظن كثيرون أن الصوت ليس صوتاً بشرياً. وقال آخرون: كان الصوت مخيفاً يشبه صوت ضبعة جريحة فقدت ابنها!

وكتب السمّان أبو صلاح البوشي على طرف دفتر يوميات محله الصغير الموجود في رأس حارة المؤيد:

«في عهد الزعيم حسني الزعيم وفي أول أيام عيد الأضحى المبارك سنة ١٣٦٨ لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم خرج الجن لجارنا عادل المؤيد في قصره، فهرب إلى الشارع وشُترَت حنكه»

كانت تلك المرة الأولى التي يكتب فيها أبو صلاح أخبار الحارة. راودته فكرة الكتابة مع الأيام الأخيرة لوجود الفرنسيين في سورية، لكنه لم ينفذها إلاّ مع وقوع هذه الحادثة، ثم استمر بعدها يكتب بين فترة وأخرى عن أشياء تحصل في الحارة والشام، وقد خصص لذلك دفتراً من دفاتر حسابات التجار البيضاء غير المسطرة، وتركه في دكانه ليعود إليه عند الحاجة، وتراكمت الصفحات المكتوبة فيه من دون أن يقرأها أحد...

بعد شهور قليلة، دوّن أبو صلاح على دفتره شيئاً جديداً مضمونه: إن «الأطباء عجزوا عن معالجة عادل المؤيد، ويرجّح سفره إلى بلاد برّا، فابنُه خالد يدرسُ عند الإفرنسيين» و«سامي الحناوي انقلب على الزعيم حسني الزعيم صباح يوم السبت في ١٩ شوال ١٣٦٨ لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يحل عليه الحول في الحكم. التاريخ في يوم الإثنين ٢١ شوال».

كان أبو صلاح البوشي، يخلط بين الأحداث العامة وأحداث حارته، ولم يكن يتردد في كتابة أي شيء عن الحارة، فكان يكتب عن أفراحها وأتراحها...

ومما كتبه أبو صلاح في دفتره عن الحارة في تلك الأيام:

«أمس في المولد الذي أقامه الشيخ عبده الخرسا في منزله بمناسبة عيد المولد النبوي عليه الصلاة وأفضل التسليم، جرى حديث عن (بسم الله الرحمن الرحيم) يعني: الجن في قصر المؤيد، وخاف السكان كثيراً، فبعد سنوات من هرب عادل المؤيد منه تحوّل إلى مكان مهجور يخافُ الناس في الحارة وفي الجسر الأبيض منه ومن ذكره. وتمنى الجميع لو أن قصر المؤيد يُهدم ويتحول إلى جنينة مثل جنينة «حكر النعنع». وخاصة أن الجسر الأبيض ما فيه جناين».

* * *

كان الدكتور خالد جاداً في تحدّيه، ولأنه لم يجد عُمالاً في الحي لتهيئة القصر للسكن بسبب خوفهم، ركب سيارته البويك الزرقاء التي اشتراها فور عودته من غربته واتجه إلى بلدة دوما، ومن هناك جاء بخمسة عمال، كل واحد بطول مارد، وقد جلسوا في السيارة، بعضهم فوق بعض، وجاؤوا لتنفيذ المهمة...

نام هؤلاء في أحد غرف القصر. وأكلوا وشربوا فيه، وعلى عجل أنهوا تنظيفه وترتيب غرفه، وجمعوا (كراكيب) كثيرة في غرف منعزلة من غرفه، وأغلقوها على ما فيها، وأبقوا الجناح الشمالي الغربي من القصر لسكن الحكيم، وغادروه بعد أن أغدق عليهم الحكيم أجوراً مناسبة.

وما هي إلاّ أيام، حتى أتى الحكيم بزوجته، وكانت تحمل طفلاً رضيعاً، وسكنا القصر وسط ترقب غريب لما قد يحدث، فكان كل شيء هادئاً. توهجت أنوارُ قصر المؤيد، ودبّتْ الحركة فيه، ثم جاء عاملان يشتغلان في الحدائق وعكفا على سقايتها وتشذيبها، وخلال أسابيع تفتحت الأزهار وانتعشت أوراق الأشجار وأغصانه في حديقتيه...

كانت الدكتورة ماريا، وهو اسم زوجة الحكيم الفرنسية طبيبة نسائية جميلة القوام، شقراء، مضمومة الشفتين، وفي عينيها الزرقاوين بريق يدل على ذكاء وقّاد، فسعت منذ اللحظة الأولى إلى الاندماج مع نساء الحارة. توددت إليهن بعبارات عربية ركيكة:

- أنا ماريا. يعني مريم. مريم أمه لأبونا عيسى...

ترددت بعض النسوة في الاستجابة إلى توددها، بينما دعتها أم مالك عبد ربه إلى أحد استقبالاتها فتعرفت إلى نساء متعلمات شاميات من سكان الجسر الأبيض وسعدت بمعرفتهن.

فتيان الحارة ذهبوا باتجاه آخر. قال واحد منهم:

- إن (الفرنساوية) كانت تتجول في القصر وهي ترتدي بنطالاً ضيقاً من (النايلون) يكشف مؤخرتها المرفوعة، وتخرج في هذا البنطال إلى الحديقة الداخلية للقصر!

وكان يمكن رؤية ما في تلك الحديقة من جهة بيت الإيتوني بعد الصعود على المصطبة الموجودة عند الباب!

طغت أخبار الدكتورة ماريا والتعليقات على خروجها سافرة على كل التوقعات التي أثارتها الحارة حول الجن والقصر (المسكون)، ولم تصل كل تلك التفاصيل إلى الحكيم، شغلته حياته اليومية، فكان يخرج كل يوم بسيارته إلى مستشفى الغرباء يداوم فيها حتى المساء ويعود هادئ البال، وقد أخبر أصدقاءه أنه بصدد فتح عيادة له في جهة القصر المطلة على الشارع، وإلى جانبها عيادة نسائية لزوجته!

حكاية

فرار المرأة الفرنسية!

ما إن انقضى اليوم الأخير من الشهر الرابع، حتى وقعَ شيءٌ غيرُ متوقع في حارة المؤيد، فقد شُوهدت المرأة الفرنسية عند الظهر تخرجُ مستعجلةً خائفةً، وتضع حقائبَها عند بوابة القصر، وتقف وكأنها بانتظار سيارة ما، وقيل إنها كانت تحضنُ طفلَها برعب. وسردَ أبو غياث بائع الحلاوة الذي يجاور البوابة الرئيسية من جهة الجسر الأبيض، سرد ما حصل على النحو التالي:

- خرجت (الإفرنسية) كمجنونة. شعرُها منكوشٌ. ثيابُها غيرُ مرتبةٍ. كانت تنظر باتجاه طلعة العفيف بلهفة. وما هي إلاّ لحظات حتى جاءت سيارة (ستروين) من السفارة الفرنسية، ونزل سائقها، فوضع الحقائب بالسيارة، وركبت الفرنسية مع ابنها، وانطلق بها بعد أن دار فوق سكة الترومواي في عرض الشارع، وعاد من حيث أتى...

لم يضف بائع الحلاوة على ذلك سوى عبارة واحدة:

- تركت (الإفرنسية) أبواب القصر مفتوحة!

شاع خبرٌ في حارة المؤيد يقول إن المرأة الفرنسية هربت من البيت لأن الجن عادوا. وقال آخرون إن أشباحاً تتحرك في أرجاء القصر طاردتها أكثر من مرة، وجعلتها تهجُّ منه غير آبهة بأقوال زوجها الحكيم الذي كان يحاول

إقناعها بأن ما يحصل مجرد أوهام تعود إلى سماعها حكاية قديمة عن أبيه الذي عولج في باريس من شيء اسمه (اللقوة)!

سُئل الشيخ عبده الخرسا عن معنى ماحصل، فشرد للحظات، يستعيد أشياء قديمة من ذاكرته، فماذا يقول بحق الجار «الله أوصى بالجار، هل سأعاتبه على الاستهتار بالدين. هل سأجعل الناس يشمتون به؟! لا لن أفعل ذلك»... ثم قال للآخرين:

- الجن سيردون للحكيم الصاع صاعين!

- والحارة؟! هل سينتقم الجن منها؟

فاجأ السؤال الثاني الشيخ عبده، ومع ذلك جاء رده محكماً:

- لا. القصة محصورة في قصر المؤيد!

وأضاف وهو يدفع أنفاسه من صدره ليرتاح:

- أرجو من الله ألا تكون اللعنة قد حلت على قصر المؤيد!

لم يكتب أبو صلاح تفاصيل كثيرة على دفتره الذي يخفيه في دكانه. كتب عدة عبارات تحمل شكوكاً كثيرة، سجلها في اليوم التالي بعد أن سكن الحكيم مع زوجته القصر من دون خوف، وكانت العبارات مختزلة، و تقول حرفيا: «الليلة الماضية كانت باردة. كان الضباب يعمي العيون. لم أنمْ... سكن الحكيم القصر المسكون، فمن سيبقى ومن سيذهب. وألله يلطف»!

وعندما حكى أبو غياث بائع الحلاوة قصة سيارة الستروين، كتب أبو صلاح عن شيء مهم كان يتوقعه من قبل: «هربت الإفرنسية كما توقعتُ، والله يجير الحكيم مما سيفعله الجن بعد أن عادوا »!

وكتب أيضا: «اليوم فتح أبو أنس الحمصي جانباً من مخزن الزيت المغلق وحوّله إلى مكتبة لبيع الجرايد...».

ثم كتب تحتها عن أشياء تحصل في البلاد اختصرها على النحو التالي:

«سمعتُ عن مظاهراتٍ ضد عودة شكري بك القوتلي إلى الحكم».

أخفى الدكتور خالد المؤيد تفاصيل كثيرة حصلت بينه وبين زوجته، وأمضى عدة أيام معزولاً عن الحارة. شارداً. لا يرمي التحية على أحد. ما اضطر جاره في الحارة سعيد العطري لمعاتبته متودداً:

- الحارة بيتنا جميعاً ياحكيم، ونحن عاتبون. على الأقل رد السلام علينا، وأنت تعلم أن رد السلام فرض من الله!

ارتبك الدكتور خالد. لم يشأ أن يكشف ارتباكه. وجد نفسه يقول:

- معاذ الله يا سعيد بيك... معاذ الله. نحن أهل.

ورد سعيد العطري:

- غدا مساء عندي بالبيت. كلُّ الجيران عندي. لازم نتوانس!

* * *

كان بيت سعيد العطري يتوسط حارة المؤيد في مواجهة بيت أغريبوز، وفي ذلك المساء لبى الدعوة عددٌ من أهل الحارة، وجاء معهم الأمير الجزائري الذي كانت تربطه صداقة قديمة مع والد الدكتور خالد قبل وفاته.

دخلَ الأميرُ الجزائري حارة المؤيد متمهلاً يحملُ سُبحةً طويلةً، وفي منتصف الحارة توقف ليسأل بعض الأطفال الذين يلعبون فيها عن بيت سعيد

العطري، فدلّه أحدهم على الباب. وهناك وجدهم يجلسون في محيط بحرة أرض الديار، شكلوا دائرة محكمة حول البحرة، وتحولت النافورة الصغيرة التي يلعب فوقها الماء على مدار الوقت، إلى مركز لهم. ومن فوقهم عرّشت دالية العنب الزيني على منصة خشبية مدهونة باللون الأخضر غطّت المكان، وقد وزع أيمن العطري الشاي على كل منهم، ونهض الشيخ عبده الخرسا يدور على الضيوف ليرش ماء الزهر على الكؤوس ويردد:

- صلّوا على النبي العدنان... فيردون:

- اللهم صلّ على سيدنا محمد.

قال الأمير الجزائري مبتسماً:

- ما شاء الله. تجلسون حول البحرة. الماء هو كل شيء. قال تعالى: وخلقنا من الماء كل شيء حي. صدق الله العظيم.

وتدخل أبو محمود الإيتوني، فقال:

- كل المطارح بركة في بيت جار الرضا!

كان الأمير الجزائري قصير القامة، قاسي الملامح، ذا صوت متهدج آسر. كان شيخاً تقيّاً ينادونه بهذا اللقب لأنه من سلالة الجزائريين الذين وفدوا مع الأمير عبد القادر إلى سورية، فأقاموا فيها، ولم يلغِ انتماؤه للأمراء الجزائريين عيشة التقشف التي هو فيها.

كان يمضي أغلب وقته في الصلاة وقراءة القرآن، وقد ترك القصور التي يسكن فيها الأمراء واعتكف في غرفة ملحقة بالجامع. تقع تلك الغرفة في الممر الذي يذهب إلى المئذنة المطلة على ساحة الجسر الأبيض...

طاف الأمير الجزائري بنظره على الحضور. كان يعرفهم جميعاً، فهُم سكان الحارة التي يحبها، ويلتقي سكانها في الجامع: الدكتور خالد المؤيد وناظم الإيتوني أحد كبار تجار الدامسكو في سوق الحميدية وإلى جانبه كان يجلس الحاج مؤمن عبد ربه أبو مالك من تجار العقارات الذين نشطت أعمالهم مع اتساع منطقة الجسر الأبيض باتجاه حي الروضة وساحة الميسات على حساب الأراضي الزراعية.

أما أبو صلاح السمان، فقد ترك تجارة أبيه بعد أن تهدمت دكانه في الدرويشية، القريبة من سوق الحميدية، إثر قصف دمشق بالقنابل من الفرنسيين، وفتح دكاناً صغيراً في الجسر الأبيض ليكون قريباً من بيته، وليناسب حركته القليلة الضعيفة، وهوايته التي أراد أن يقلد فيها البديري الحلاق، فيسجل ما يسمع وما يقع من أحداث...

قال أبو محمود الإيتوني:

- الأمير الجزائري لا يزور حارة المؤيد إلا في الأعياد. واليوم زيارته هي العيد!

شكره الأمير الجزائري، وهو يردد:

- الله يرضى عليك ياناظم بيك. سعيد بيك أصرَّ عليّ بعد صلاة العصر أن آتي وأجلس معكم ونشرب الشاي بالقرفة وماء الزهر، ونحكي في بعض المسائل.

والتفت إلى سعيد العطري، وسأله:

- طمّنا عن شغلك بمعمل الشمينتو. خالد بيك العظم يحبك ويحترمك، ويعتبرك من وجهاء هذه الحارة. سمعت أنه مازال يطل عليكم في المعمل ويتفقدكم.

فرد سعيد العطري بهز رأسه، وقوله:

- نحن بأفضال الله. الحمد لله على كل حال. خالد بيك شغله كثير. سياسة واقتصاد ورعاية أحوال الناس.

وشارك ناظم الإيتوني بالحديث، قائلاً:

- معمل الشمينتو كان خطوة جبارة. ودور خالد بيك بتأسيسه وتأسيس شركة النسيج دليل بعد نظر. البلاد بعد الاستقلال بدها هز أكتاف من الجميع. بلادنا مباركة. وبالشغل والعمل بتعطي...

تلقف الأمير الجزائري الفكرة، فتحدث عن أكابر الشام وأوليائها، كان يعرف تاريخ دمشق جيداً. ويعرف قصص الولاة والمساجد والصالحين والبيمارستانات والبساتين. ثم انتقل إلى حديث آخر، فطرح رأياً غريباً:

- على سيرة خالد بيك العظم.. أمثاله ينقصون ولا يزيدون...

والتفت للدكتور خالد وقال:

- ياحكيم أنت تعلمت في بلاد برّا، وعليكم أنتم المتعلمون من الأجيال الجديدة أن تصبحوا وجهاء البلد، ولا تتركوا الزعران يأخذون الشام بعد الاستقلال..

ضحك ناظم الإيتوني، وعلّق، وكأنه يوضح فكرة الأمير:

- زعران الانقلابات. الزعران لا يقبلون العقول بل يعملون على تطفيشها أو أنهم سيجعلونها تجن!

ارتفع صوت الشيخ عبده:

- أكيد ما بتقصد انقلاب العقيد الشيشكلي!

رد ناظم الإيتوني بسرعة، فهو يعرف حساسية الموضوع بالنسبة للشيخ عبده صديق الشيشكلي:

- لا. لا.أبداً. كان عند العقيد الشيشكلي مشروع كبير...

هز الأمير رأسه، وتابع حديثه يحاول إقحام الدكتور خالد بالحديث:

- أليس كذلك ياحكيم؟!

ارتبك الدكتور خالد، ورد بعبارة موجزة:

- ماتقوله أنت هو الصحيح!

وأخيراً أنهى الأمير الجزائري حديثه بلهجة الحرص قائلاً:

- أكابر الشام جاهدوا ضد الفرنساوي ودفعوا ثمناً للجلاء، والفرنساوي غادر بعد الحرب مرغماً، وهناك من يطحش لأخذ البلاد وكأنها له. علينا الانتباه إلى سورية. يجب أن تظل كما هي آمنة نشيطة رائحتها طيب!

وكثف وجهة نظره بعبارة:

- العسكري يدافع فيكون قدوة. وقت يريد الحكم والسياسة هذا حقه، ولكن عليه أن يترك الجيش!

تدخل سعيد العطري، وهو ينظر إلى الدكتور خالد:

- ما يقوله الأمير صحيح. أنتم تعرفون ماذا فعل العسكر بالبلاد. انقلابات وبيانات وتعطيل أعمال. أولادُنا المتعلمون يجب أن يأخذوا مكانتهم، وينخرطوا في حياة البلاد، والأيام القادمة تحتاج إلى مدنيين من الجيل الجديد يعرف العالم وما يجري فيه.

وقال ناظم الإيتوني:

- يا حكيم. عادل بيك، أبوك رحمه الله. كان زينة الجسر الأبيض كله، وكانت كلمته لاتصير كلمتين عند أهل الحارة. كان يحترمه كل سياسي البلد، لأنه كان وطنياً ويعرف أغلب قادة الثورة...

وهز أبو مالك رأسه موافقاً، وقال:

- المرحوم عادل المؤيد نِعمَ الجار!

وأضاف:

- (أمس) كنا في هذا الكلام. أصدقاء ابني مالك، وهم شباب في مُقتبل العمر، تحدثوا عن قضايا كثيرة تواجه سورية. ومن بينها وجود الشرفاء والوطنيين. الناس متحمسون للوحدة مع مصر ولا يرغبون في قضية الأحلاف التي ستقسم العرب وتخيف الناس...

تدخل الشيخ الخرسا في سؤال غيّر مجرى الحديث كله:

- طمّنا يا حكيم. كيف تعيشون في هذا القصر؟ هل الأمور تمر على خير؟ هل ما زلتم (تتخوشون) من هواجس قديمة تتعلق بالقصر؟

واجهت نظرات الآخرين هذا التدخل بنظرات احتجاج وفضول في الوقت نفسه، وقال الأمير الجزائري:

- نعم يا حكيم. إيمانك هو الذي يحميك من الإنس والجن!

لم يجب الدكتور خالد على سؤال الشيخ الخرسا ولم يعلق على بقية الأُقوال. واجه الآراء بالصمت، ثم ارتسمت على وجهه علامات شرود وقلق، وخلال دقائق فاجأ الحضور بالاستئذان والخروج، فعلق أبو صلاح بعد خروجه:

- الحكيم ليس على حشيشته. لم يشارك ولو بكلمة واحدة. كان يسمع فقط. ويبدو أنه انزعج من سؤالك يا شيخ عبده!

فرد الشيخ عبده:

- السؤال ليس محرماً!

وقال أبو مالك:

- صحيح البشر ألعن من الجن هذه الأيام، ولكن قضية القصر والجن شغلت الحارة!

خرج الدكتور خالد شارداً. قلقاً. أشعل السؤالُ في صدره هواجس كثيرة. مرّ بجوار بوابة قصره الخلفية، فلم يدخل إلى القصر. شق طريقه إلى الجسر الأبيض وضاع بين الناس.

شغلته زوجته بهواجس حكاياتها عن القطط السوداء التي تخرج من الغرف المغلقة في البيت. فتلك القطط غير طبيعية، ثم من أين تخرج وقد تم إغلاق الأبواب بإحكام؟!

وعندما لم تجد تجاوباً معه حول مخاوفها. رفعت صوتها بلهجة فرنسية قاسية، وهي تصرخ:

-Ce ne sont pas des chats. Ces êtres étranges me regardent avec le désir humain !!

(إنهم ليسوا قططا. هذه الكائنات الغريبة تنظر إلي بشهوة!!)

ولم يكن الحكيم قد شاهد هذه القطط أبداً!

كانت زوجته فقط هي التي تراها. وفي المرة الأخيرة أخبرته أن القطط السوداء ظهرت عند الظهر... فاجأتها بعد أن دخلت من الحديقة الخلفية للقصر،و كانت شربت قهوتها عند حافة البحرة الرخامية.

عبرتْ الصالون، فشاهدتهم، وكأنهم يبحثون عن شيء ما. كانوا خمس أو ست قطط. كان لونهم أسود فاحماً، وعيونهم فيها بريق ساطع. لم تكن تعرف التعامل مع هذه الحالات. فهي لا تحفظ تيمات الخوف الدينية التي يرددها المسلمون عادة، ولم تتعلم في فرنسا شيئاً مشابهاً. هتفت بالفرنسية، وكأنها تستنجد:

- Oh mon Dieu c'est quoi ça!?

(يا إلهي. ماهذا؟!)

ركب الحكيم سيارته الزرقاء، اتجه نحو حي الروضة، وقبل الوصول إلى ساحتها، عاد عبر الحديقة الدائرية، ثم وجه طريقه إلى حي المهاجرين عبر منطقة العفيف ثم توجه إلى طريق شورى. وفي آخر الخط ابتعد قليلاً عن سكك الترامواي، وأغلق السيارة، ثم صعد على طريق ترابي نحو قبة السيار، فجلس على صخرة صغيرة يتفرج على الشام من فوق في مشهد أخاذ!

لم تكن الشمس قد غابت تماماً، وقد رسم المساء على بيوتها وغوطتها غلالة صافية تميل نحو اللون الأزرق. أحسّ الدكتور خالد أنه ارتاح. خلت نفسه من الهواجس. استعاد مشواراً قديماً مع أبيه إلى المكان نفسه. قال له أبوه:

- اسمع يا خالد عندما تضيق بك الأمور تعال إلى هنا. هناك من يقول: إذا ضاقت بك الأمور، فعليك بزيارة القبور، وهذا صحيح. أما أنا

فوجدت أن قعدة صافية عند قبة السيّار أطلّ فيها على جمال هذه المدينة حماها الله يريحني كثيراً!

كان خالد المؤيد قد نال شهادة الكفاءة، وصار يرافق أباه في بعض المشاوير، فأسعدته تلك العبارات من أبيه. كانت بمثابة نصيحة يمكن أن يحتاجها كل إنسان في أوقات الشدة. وأيضاً أشعرته أنهما أصبحا صديقين، وإلاّ كيف يبوح الأب لابنه بفكرة من هذا النوع. وقال لزملائه في المدرسة بعد ذلك المشوار:

- جميل أن يكون الابن صديقاً لأبيه!

بعد خلافه الأخير مع زوجته. عاد الحكيم بعد الظهر من مستشفى الغرباء. وضع سيارته بجوار رصيف حارة المؤيد بعيداً عن بوابة القصر. شاهده أبو صلاح، فحيّاه:

- الله يعطيك العافية يا حكيم.

ورد عليه التحية بتودد:

- الله يعافيك يا جار.

نزل باتجاه القصر، وجد البوابة مفتوحة. البوابة لا تفتح عادة على هذا النحو. دخل إلى القصر على عجل. بحث في الداخل. لم يجد زوجته. لم تكن في الصالون، ولا في المطبخ ولا في الحمام. بحث عنها في الحديقة الداخلية، ثم راح يناديها بالفرنسية من دون فائدة.

تذكر خلافهما الأخير حول القطط السود. فاشتعل صدره بالقلق: «ترى أين ذهبت؟» سأل نفسه، وهو يدور من جديد في أرجاء القصر. هل خافت من القطط فذهبت إلى بيت أخته؟ هل دعتها إحدى الجارات في

حارة المؤيد؟ أو ربما تكون قد خرجت تتمشى فأخذت معها الطفل، لكن لماذا تركت بوابة القصر مفتوحة»؟!

خرج من القصر، فربما تكون على مقربة من البوابة... جالت عيناه في كل الاتجاهات. اتجه نحو السيارة. خرج أبو غياث بائع الحلاوة من دكانه. أحسّ أن وجه الحكيم يحمل تساؤلاً ما. ناداه:

- هل تبحث عن زوجتك يابيك؟!

وقف الحكيم مدهوشاً أمام السؤال، وقال للبائع:

- نعم. هل رأيتها!؟

وبوجه مكفهر، وكأنه يتلو عليه خبراً محزناً قال:

- نعم يا بيك. قبل آذان الظهر بقليل رأيتها تخرج من القصر مع عدة أشيائها، وهي تحمل طفلها، تركت البوابة مفتوحة، ثم جاءت سيارة ستروين عليها علم السفارة الإفرنسية وركبت بها!

تدافعت خُطا الدكتور خالد. اتجه نحو السيارة، وهو يحاكي نفسه:

- هذا يعني أنها رتبت أمر السفر، وأخذت الطفل...

ركب السيارة. باتجاه العفيف حيث تقع السفارة الفرنسية، وهناك تم إخباره بأن زوجته سافرت بناء على طلبها إلى باريس عبر مطار المزة في الساعة الثانية ظهراً!

انكسرت روحه. لم يصدق. مشى من دون هدف. أحسّ برغبة في الصعود إلى منطقة المهاجرين والجلوس عند قبة السيّار في طرف جبل قاسيون الغربي. لكنه وجد نفسه يُغيّر طريقه ويعود إلى الجسر الأبيض باستسلام!

غرفة العناية المشددة:
مزنة العاشقة في الجسر الأبيض!

استقرتْ حرارةُ فادي عبد الرحمن، وغفا بعمق. انشغلتْ مزنة بعباراته التي أخذه الهذيان إليها، فقد تعرّفت إليه هناك، في الجسر الأبيض هذا المكان الذي يتكرر في هذيانه. تذكّرته... فتىً صغيراً كان. شغوفاً بهذه الديمة التي يناديها في نوبات الحمى التي تأتيه. شعرت بالغيرة. وسألتْ نفسها باستغراب: «أين أصبحت ديمة؟ وكيف مضى الزمن على هذا النحو؟».

فرّت بأفكارها إلى النافذة، راقبتْ أضواء المدينة الخافتة القادمة من جهة الجنوب. بدأت تلك الأضواء تتوهج مع حلول المساء، تبدّتْ المدينةُ من بعيد، وكأنها تغيّرت، لم تعد الشام كما كانت. غابت عنها شفافية المساءات الجميلة وسهر الليالي، وماتت الحيوية في حركة الناس داخل حاراتها وعلى أرصفة شوارعها، وطوى الزمن ألقها الأسطوري، وكأنه أخفاه في صدره ليوم آخر ربما يأتي في زمن ما...

سألت نفسها: «كيف صار حال منطقة الجسر الأبيض؟» وتذكرت أنها لم ترها منذ سنوات طويلة. لم يعد الجسر الأبيض كما كان أيام زمان، تهدّمت أغلب حاراته وبيوته وحلّت محلها أبنية جديدة تشبه العلب. استرجعت بيتها القديم، البيت الجميل الذي يقابل بيت فادي، ويقع على مقربة من بيت ناظم الإيتوني جدّ ديمة الراضي، يتوسط الحارة، وفيه بحرة

صغيرة، وأشجار مختلفة، ودوالي وأزهار، من تلك الأزهار أحبّت المحكمة، لأن أزهارها تتفتح صباحاً وتغلق عند الظهر...

فادي أخبرها أن اسمها (المحكمة)، لأنها تفتح وتغلق مثل المحكمة. لم تصدقه في البداية، وعندما جلسا في البيت بانتظار أن تتفح أوراقها، تفتحت بهدوء شديد، أمسكت بيده وهي تراقب المشهد بصبر، وصاحت:

- يا ألله.. مزبوط يافادي... فتّحتْ المحكمة... فتّحتْ...!

سالتْ الدموعُ على وجه مزنة. همستْ تكلّمُ نفسها، من دون أن تصل الكلمات إلى فدوى القريبة منها: «سقى الله أيام زمان... لم تعد الشام كما كانت. الصراعات تأكلها. تأكلنا. تأكل ذكرياتنا... وهاهي تأكل فادي أيضا... يا حبيبي يا فادي... كيف تدهورت حالتك»!

شيء ما أيقظ فادي من نومه... ارتفع صوتُه من جديد. أيقظ همسُها نوبات الحمى في جسده الساخن، وسمعته يردد: الحارة... مزنة... ديمة. أريد ديمة. مة. مة ااا.

توسلت مُزنة: ياربي، حرام.. خليه يرتاح!

اقتربت فدوى منه، نقّلت نظراتها بينه وبين عيني مزنة الحزينة، وسمعتهُ يعيد الاسطوانة نفسها: هيا... رحْ أيها الأمير. رحْ... ديمة لا تأتي... رحْ واتركني... هرعتْ إلى الكمادات. أمسكتها. غمرتها بالماء. عصرتها. ووضعتها على رأس فادي الساخن...

* * *

أعاد الأميرُ الجزائري قصة الدكتور خالد والجن، بعد سنوات من تحوّل القصر إلى خربة. كان فادي طفلاً يجلس متربعاً في حضرة الأمير، وكان

الأمير يحدثهم عن آيات القرآن الكريم، وأن الله ما خلق الجن والإنس «إلاّ ليعبدون»، وكانت الخربة التي يحبها فادي تشغله كثيراً، وخاصة ما يتعلق بأسباب تخريبها، وقال فادي للأمير: أنت تتحدث عن الجن، هل يعبدون الله مثلنا، فيصومون ويصلون ويتوضؤون؟! وضحك الأمير الجزائري، وقال شيئاً مهماً لم يَعرف فادي أثره إلا فيما بعد:

الجن مثل البشر. هناك من هو صالح وهناك من هو شرير يُخَرّب الروح والجسد، الله في سنة خلقه ترك الجن لاختبار الإنسان!

طرح فادي سؤاله دون أن يدري معناه:

- كيف يخربون؟!

- عندما يهاجم الأشرار منهم أرواحنا بوساوسهم فنقوم نحن بتخريب حياتنا وعلاقاتنا ونرتكب الآثام والكبائر والفتن...

وزج فادي بسؤال جديد:

- هل صحيح أنهم هم الذين خرّبوا قصر المؤيد في حارتنا؟!

هز الأمير الجزائري رأسه يوافق على حكاية قديمة، وتابع قصته:

- الجن راقبو القصر. ثم خرجوا لزوجة الحكيم ثم للحكيم نفسه. زوجته الإفرنسية هربت إلى بلادها!

- وأنت.. هل رأيتهم؟

- لا... وتنفس الأمير الجزائري بعمق...

تعالى صوت فادي: رحْ... رحْ... راح الأمير الجزائري. تراءت ديمة الراضي وسط ضباب كثيف يشبه ضباب حمام البخار. اقتربت منه. لم تتحدث. رمقته بعينين ذابلتين. واختفت وسط البخار الكثيف الذي يشبه الضباب!

ارتفع صوت فادي: ديما!!!

تراكض الجميع نحو فادي. عاد حامد من ممر المستشفى. سأل فدوى بلهفة:

- خير فدوى. ما الذي استجد؟ فردت فدوى:

- كان يجب أن نتصل بالدكتور رضوان ونخبره أن وضع فادي سيئ!

وتذكرت مزنة الدكتور رضوان. قالت بسرعة:

- الدكتور رضوان يتعامل مع فادي وكأنه شقيقه. كان يجب أن نطمئن عليه. لقد مضت ساعة ونصف الساعة على ذهابه!

وتدخل حامد قائلاً:

- بالفعل.

بحث عن هاتفه الجوال، فوجده في أحد جيوب سترته. أخذه. اتصل بالدكتور رضوان، وجاءه صوت الرنين المعتاد لكن الدكتور لم يجب على الاتصال. عاود الاتصال، مرة ثانية وثالثة من دون فائدة. رفع رأسه عن شاشة الأرقام. التقت عينا حامد بعيني مزنة. ثم غير وجهته إلى عيني فدوى. التقت العيون ببعضها، وكان ثمة سؤال واحد: ما الذي حصل مع الدكتور رضوان؟!

تذكرت فدوى حديث الدكتور رضوان. سألت نفسها: «لماذا حكى لي عن أسرته؟» فعندما هدأت صيحات فادي. جلس الدكتور رضوان على الكرسي المجاور لفدوى. أحست أنه يريد أن يحكي. سألته:

- أتعبتك حالة فادي؟ لا تؤاخذنا. لو لم تكن في المستشفى كنا تلبكنا. أنت تعلم أن الضرب على الراس أخطر أنواع الضرب.

ابتسم الدكتور رضوان. كان متعباً. أراد يحكي كثيراً. أراد أن يبوح بأشياء لم يكن حكاها من قبل. قال لفدوى وهو يتنفس بعمق:

- لا أعرف يا سيدة فدوى ما الذي ترسمه هذه الأقدار التي نعيشها.

هزّت رأسها من دون أن تفهم قصده. فأخبرها، وهو يغير الموضوع:

- الأستاذ فادي يهذي باسم الجسر الأبيض وذلك أثار اهتمامي!

- لا تهتم. منذ زمن طويل سكنّا هناك، وفادي يحب تلك الأيام.

- هناك في الجسر الأبيض قصص كنت أخاف من تذكرها عن أسرتي.

سألته:

- أسرتك؟! هل هي معيبة لا سمح الله؟!

رد الدكتور رضوان:

- لا. كان جدي متزوجاً من فرنسية. الفرنسية تركته وأخذت ابنه معها وسافرت إلى باريس. ثم جُنّ جدي!

- أذكر حكاية من هذا النوع. ولكن ماذا جرى لابنه؟ هل ضاع؟

ضحك الدكتور رضوان. قال لها وهو يهم بمتابعة هذيان فادي:

- لا. إنه أبي..!

ووضع يده على رأس فادي الساخن، وقال:

- ترى هل ذهب فادي بهذيانه إلى الجسر الأبيض؟

وهمس بفضول:

- أتمنى لو أذهب معه إلى تلك الأيام.

نظرت فدوى بدهشة إلى الطبيب، وهي تقول في نفسها:

«يا إلهي... هل هذه صدفة»؟!

* * *

اتصلت فدوى من جديد. لم يرد الدكتور رضوان على اتصالها. ساد هدوء غريب يوحي بقلق سيطر على الجميع. هل يمكن أن تكون الخطوط مقطوعة؟ هل يمكن أن يكون هاتف الدكتور رضوان قد دخل في منطقة خارج التغطية؟!

وجاء صوت فادي مجروحاً يئن لينهي كل تلك الهواجس: أريد ديماااا.

التفَّ الجميع حول السرير... جمعهم الصراخُ، لكن المفاجأة الكبيرة كانت في رنين هاتف حامد. نظر حامد إلى رقم المتصل، فانقشعت أسارير وجهه:

- إنه الدكتور رضوان!

رفع الجهاز نحو أذنه، وهتف بعفوية:

- أيوه دكتور رضوان، طمّنا هل وصلت بالسلامة؟!

فرد الطرف الآخر:

- نحن آسفون. اتصلنا بآخر رقم كان تحدث معه صاحب هذا الهاتف، لقد أصيب في حادث سيارة ونحن ننتظر سيارة الإسعاف!

ربيع حارة المؤيّد!

تبدأ حارةُ المؤيّد من عتبة صغيرة يفصل بينها وبين ساحة الجسر الأبيض رصيفٌ واسعٌ، ومن هذا الرصيف تتفرع حارتان صغيرتان واحدة تتجه شرقا فتتصل بحارات قبة الميسات، والثانية هي حارة المؤيد نفسها.

وحارةُ المؤيد تشبهُ زُقاقاً طويلاً تدخل فيه، ولا يمكنك الخروج من نهايته، فهناك في نهايته سيواجهك بابان هما بيت أبو صلاح البوشي وبيت الشيخ عبده الخرسا، ولكي تخرج منه لابد لك من العودة إلى مدخل الحارة الأساسي، وفي رحلة الذهاب والإياب تواجهك أزهار الياسمين البيضاء وهي تطل من أسطحة البيوت وكأنها ترتمي على الحارة فتثير فيها رائحة ساحرة.

كان الربيعُ يزيّنُ بيوتَ الحارة من الداخل، ومن يدخل الحارة، يفاجأ بالجو العطر الذي فيها، فروائح الأزهار في الربيع تتسلل من كل بيت، وكأنها جزء من سوق العطارين الذي يجاور سوق الحميدية قرب الجامع الأموي...

ثمة رائحة نعناع تأتي من بيت أبو صلاح في عمق الحارة، فأم صلاح نشرت أوراق النعناع الأخضر على مساحة المشرقة لتطحنها عندما يجف ماؤها، وتخزنها إلى حين الحاجة...

تختلط هذه الرائحة مع رائحة زهر البابونج القادمة من بيت الشيخ عبده، فقد غصت مساحة من باحة البيت بأزهار البابونج التي يجري تجفيفها لتصبح من أدوية المغص في الشتاء البارد...

يتسع عبق هذه الروائح مع الاقتراب من كل بيت من بيوتها، فإذا أنت أمام خليط غرائبي سحري من روائح العطر الأخاذ الذي يفوح من أزهار الأحواض التي تتوزع في كل بيت وأزهار الأصص الفخارية التي تزين الأدراج والشرفات. إضافة إلى نسمات من روائح المانوليا التي تنتشر من قصر عادل المؤيد، هذا الخليط العطري سيتغير. ستقهره رائحة البخور التي ستنطلق من كل بيوت الحارة في الأيام القادمة، مع انتشار الحديث عن الجن والقطط السوداء!

تأسست الحارات في الشام على المحبة والعطف والتعاون والإخاء، كما قال ناظم الإيتوني، وحارة المؤيد مثل تلك الحارات:

- لا نريد لأحد أن يكون محتاجاً. وبين شهر وآخر نجتمع من أجل الكسوة أو المُونة. يعني إذا كان الموسم للمونة أو للكسوة جمعنا كل ما تحتاجه الأسر الفقيرة وقدمناه بصمت.

وسعيد العطري قال:

- الفرق بين هذه الخطوة، وما كان قبلها، هو تحويل العمل من فردي إلى جماعي، ومن علني إلى سري. فأحسن عمل هو عمل الخير، وأحسن منه سترُه كما هي أخلاق البِر والتقوى.

اقترح أبو مالك تنظيم المسألة بشكل نهائي:

- يجب أن تجمع كل الصلاحيات المتعلقة بهذا الأمر وتوضع بيد أبو صلاح...

ضحك الحضور على تطابق الصلاحيات مع أبو صلاح، وقال أبو مالك:

- هذه ليست مصادفة. هذه حكمة، ونِعمَ الرجل اسماً وأمانة وخُلقاً وجاراً!

وما إن انتهى الاتفاق حتى دخل الشيخ عبده الخرسا يحمل كيس ورق كبيراً، معتذراً عن التأخر، وعندما أعادوا له الاتفاق وافق عليه وأثنى، وسأله أبو صلاح عمّا يحمله في الكيس، فرد بتلقائية:

- بخور! الأولاد يخافون. سيرة الجن وبيت المؤيد جعلتهم يعجزون عن التحرك داخل البيت خلال الليل. قلت أشعل لهم البخور وأقرأ القرآن وأطمئن عليهم.

وعلّق أبو صلاح:

- الأطفال يخافون من أي حديث عن الجن!

فقال سعيد العطري:

- هذه مقبولة، فعندي الكبار والصغار أصبحوا يخافون من أي حركة في (دخاليش) البيت ليلاً!

فتدخل ناظم الإيتوني معلقاً:

- المهم ألا تخاف أنت!

وضحك الجميع، رغم الخوف الخفي في داخلهم!

* * *

البيت الوحيد، الذي كانت تطل الأزهار من شرفاته وحدائقه هو قصر المؤيد. بني بطريقة كسرَ فيه طريقة البناء القديمة في حارات الشام، فحدائق البيوت القديمة في داخلها، أما حديقتا القصر فمكشوفتان. واحدة صغيرة تطل على الحارة من الجهة الداخلية، والثانية كبيرة تحيط ببوابة القصر الرئيسية على الشارع العام.

كان عادل المؤيد قبل إغلاق القصر وانتقاله إلى حي القنوات يفتح البوابة الداخلية عندما يدعو جيرانه إلى القصر، ويتركها مفتوحة طالما هم فيه، وكأنه يوحي أن حارة المؤيد هي بيت واحد...

بعد أسبوع كامل تمكن الدكتور خالد من الحديث مع زوجته في باريس، وعندما اتصل بها أخبرته إصرارها على عدم العودة، ونفت بشدة أن تكون قد خانته. قالت له إنها طلبت منه إرجاعها إلى باريس لكنه رفض، وهي غير قادرة على الاندماج مع نمط الحياة التي جربتها في دمشق، ولا التعرف إلى مكنونات أسرارها الغريبة، وقالت له بالفرنسية:

- Tu vis avec des fantômes. c'est impossible!

(أنت تعيش مع الأشباح. هذا مستحيل)

وأخبرته أنها وصلت إلى هناك عن طريق بيروت، وليس عن طريق مطار المزة، وأن بإمكانها العودة إليه إذا ما قرر العيش في باريس...

وفي نهاية المحادثة قالت له تؤكد حبها:

- Adel le petit t'aime. Je te aime aussi. Bisous!

(عادل الصغير يحبك. وأنا أيضاً. قبلاتي)

بعثت بكل هذه الرسائل دفعة واحدة، ولم تفسح له المجال للرد، وعندما أطبقت سماعة الهاتف شعر الدكتور خالد أن صفحة جديدة من حياته بدأت في اتجاه آخر مضمونه الوحدة، فقراره الحاسم منذ عاد أن يبقى في الشام حتى نهاية حياته.

خرج من البوابة الكبيرة، ونزل نحو مستشفى الطلياني سيراً على الأقدام، وهناك وجد نفسه يركب حافلة من الترامواي ويعود صعوداً باتجاه آخر خط المهاجرين يتذكر نصيحة أبيه بأن يذهب إلى قبة السيّار كلما ضاقت به الأمور.

في قبة السيّار فكّر بكل الخيارات التي تواجهه ومن بينها السفر إلى باريس، لكن ما حصل فيما بعد كان شيئاً آخر لم يكن يتوقعه سكان الحارة!

في البداية كان الدكتور خالد يعود إلى القصر، وقد شرب بعض المهدئات، ثم شرع بتناول المشروبات، فصار ينام وقد نهنهه السكر، ثم غرق أكثر فأكثر بموجة إدمان جعلته يحمل زجاجات النبيذ إلى غرفة نومه، فيشرب إلى أن ينام.

لم يعد يخرج إلى الحديقة الخلفية للجلوس عند بحرتها الرخامية، ولا تحت شجرة المانوليا. لم يعد يقطف زهرات الياسمين ويضعها على مائدة الصباح لتثني عليه زوجته الفرنسية بجملتها الناعمة التي تقابل فيها الياسمين الشامي:

- L'odeur du jasmin est plus belle que tous les parfums de France!

(رائحة الياسمين أجمل من كل روائح العطور الفرنسية)

تراكمت أوساخٌ كثيرةٌ في أنحاء القصر. تحول القصر إلى بيت يغصُّ بالفوضى. هذه الأوضاع جعلت سكان الحارة ينأون عنه، فهذا ما كنا نتوقعه، كما قال الشيخ عبده:

- رائحة الخمر في حارتنا وكأن فيها خمارة!

كان ينام ويستيقظ بلا أحلام. تغيّرت مواعيدُ طعامه ومواعيدُ استحمامه. فقَدَ أصدقاءه الذين تعرّف إليهم في مستشفى الغربا، أصدقاء كانوا يزورونه مع زوجاتهم قبل أن تسافر ماريا. مرّت كل هذه التطورات سريعاً، فزادته عزلة في الوقت الذي خسر جسدُه وزناً كبيراً!

* * *

فجأة. ظهرت القطط السوداء في غرفته!

في ساعة متأخرة من الليل، استيقظ وهو مخمور، فرآها أمامه وكأنها تنتظر منه شيئاً محدداً. فتحَ عينيه، وكان مستلقياً، فوجدها تُحدّق فيه بعيون براقة. اقشعرّ بدنه. التقت عيناه مع عيونها. ثمة شيء ما اخترق جسده. يشبه تياراً كهربائياً شديداً صنعه الخوف. نهض عن السرير. صاح بها بصوت عال:

- بستْ. بستْ!

لم تخفْ القططُ السوداء. ولم تتراجع. زاده ذلك رعباً، فقد سخرت القطط من تهديده. انتظرتْ عدة لحظات، ثم مضت بهدوءٍ شديدٍ باتجاه أحد الأبواب المفتوحة، واختفت في عتمة الغرف الداخلية.

أمسك الدكتور خالد إبريقاً من الماء وأفرغه فوق رأسه ليصحو، ثم نهض يبحث عنها، فلم يجدها!

تكررت الحادثة أكثر من مرة، وخلالها أجبر الدكتور خالد نفسه على تخفيف شرب النبيذ، لكنه ظل شارداً، قلقاً، غائبَ النظرات. لا يعرف أحدٌ بما يفكر. تراجعت أناقته، وخفّت حدة ملاحظته، صار يفضل العزلة.

أخذ يحس بأشياءَ غريبةٍ في القصر، وظلت القطط تظهر في أوقات مختلفة، ولم يستطع تحديد مكان خروجها أو مكان عودتها. كانت تظهر وتختفي فلا تدع له المجال لمعرفة مكمنها الحقيقي. شعر بأنها تحاصره وتراقبه: «القطط تسكن في مكان ما من القصر» هذه هي القناعة التي تشكلت لديه، وخوفَه منها نوع من الضعف. حاول أن يتغلب عليه بفتح الغرف والبحث عنها بين الأشياء الموجودة فيها. لم يجدها بل وجد مواء. لاحق مصدر المواء فلم يجده!

حدث شيء آخر إضافة إلى قصة القطط السوداء...

كان الدكتور خالد مع كل حالة من هذه الحالات يعود مستسلماً متعباً ويجلس على أقرب كرسي أو سرير ويُحدّث نفسه بصوت عالٍ لدقائق. فيما بعد، صارت تتراءى له أشكال غريبة تتحرك وكأنها جزءٌ من تفاصيل القصر الذي تحول إلى جحيم!

عاش هذه الظروف وحيداً. لم يُخبر أحداً. اجتاحتُه موجةُ أفكارٍ وهواجس تتعلقُ بصحته النفسية، وكان أكثرُها يصّبُ في التهيؤات التي تظهر له، والتي دفعته للشك بأن ما يحصل هو هلوسات سببها شعوره بالوحدة بعد أن هجرته زوجته مع ابنه الرضيع.

بعد أسابيع أخذتْ المسألة بُعداً آخر، فقد سَيطر عليه شعورٌ غريبٌ من أن ما يحصل ليس مجرد هلوساتٍ، وإنما هي أشياء حقيقية خارجة عن الطبيعة، وعندها بدأ يحكي ولا أحد يسمعه أو يقف بجانبه:

- «شاهدتُهم»!

قال بثقة لأحد الأطباء في مستشفى الغرباء. «لم يكونوا بشراً». «لا يشبهون بني آدم أبداً»، لذلك لم يتمكن من رسم ملامحهم جيداً، فأحيانا يستعيدهم وكأنهم (هيولى)، أو كأنهم أجسامٌ من نوع خاص تختلط ألوانها بين الأبيض والرمادي... وكان يضرب رأسه بيده ولا يريد أن يصدق هذه «الخرافة»، وكان قراره أن زوجته الفرنسية كانت على حق!

تغيّرتْ ملامحُ الدكتور خالد، بدا نحيلاً أكثر من المعتاد، ولو أن أحداً شاهده وهو يدور بطوله الفارع، وشعره الأشقر المتسق مع لون بشرته التي تميل إلى اللون الحنطي، لظن أنه غريبٌ جُن، أو أنه رجلٌ انهارتْ أعصابُه، فنزل إلى الشوارع يمشي كمجنون بلا توازن ولا هدف!

كان الدكتور خالد أنيق المظهر، جذاباً، أطلق «سكسوكة» عند أسفل ذقنه، فأعطتُه هذه الملامح شكلاً أجنبياً يوحي بشخصية عالم كيمياء أو بروفيسور يُدّرس الفلسفة المعاصرة في الكوليج دو فرانس في باريس...

في ذلك الصباح. كانت حركة المارة قد بدأت في الشارع، وعند بوابة القصر توهجت أضواء الغرف التي يشغلها الدكتور خالد فأوحت لمن رآها أن أصحابها ما زالوا ساهرين حتى الآن...

ومن الباب الداخلي للقصر، أي من جهة حارة المؤيد، جلس الدكتور خالد على حافة درج الباب يضع رأسه بين يديه وكأنه فقد عقله...

شاهده عبد الغني الخرسا، فعاد إلى البيت ليخبر أباه:

- بابا... الحكيم يجلس على درج بيته ويبكي!

هرع الشيخ عبده لمعرفة ما حصل لجاره، وهو يردد:

- لعن الله الخمر... لعن الله الخمر...

للمرة الأولى خرج الشيخ عبده بالقنباز ومن دون لفة إلى الحارة. وصل إلى باب القصر الداخلي مع ابنه عبد الغني، وعندما شاهد الدكتور خالد احتضنه، وهو يردد:

- لهْ. ياحكيم. لهْ. لهْ. ياجار، لماذا وصلت إلى هذه الحال؟ وزجره:

- هيا قم. تعال. تعال اغسل وجهك بالرحمن. توضأ وصلّ... وسنأكل لقمة معاً فأنا لم أفطر بعد.

نهض الدكتور خالد وساعده الشيخ وابنه بذراعيهما. مشى معهما، وفي البيت وضعه الشيخ على كرسي قرب البحرة، وأمسك رأسه وشده بأصابعه وأخذ يقرأ من القرآن الكريم والأدعية، ثم صاح به آمراً:

- هيا يا حكيم. عليك أن تغمر رأسك بماء البحرة. اغمره بقدر ما تستطيع، وعندما تخرجه قل: لا إله إلا الله... محمد رسول الله.

كان الدكتور خالد منهكاً. مستسلماً. لم يفهم القصد من دعوة الشيخ. ومع ذلك استجاب، وساعده الشيخ وراح يضغط على رأسه كأنه يخنقه. ثم رفع يده، فأخرج الدكتور خالد رأسه من الماء من دون أن ينطق بشيء. فأنّبه الشيخ:

- عليك أن تفعل ما أقوله لك!

اجتاحت ذاكرته عبارة قالها بروفسور فرنسي لأحد الطلاب المغاربة في الجامعة:

-Vous devez faire ce que la science vous dit de ne pas superstition!

(يجب أن تفعل ما يخبرك به العلم لا أن تكون خرافيًا!)

ابتسم الدكتور خالد، وكأنه يسخر من جاره، وقال للشيخ عبده:

- أريد أن أشرب قهوة. أرجوك... اتركني من نصائحك!

حزن الشيخ عبده، ونكّس رأسه مستسلماً وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله... تكرمْ ياجار!

شيطان المؤمن مهزول!

لم يكن قد مضى يومان على ذلك الصباح الذي دخل فيه الدكتور خالد بيت الشيخ عبده حتى حدث أول اصطدام داخل حارة المؤيد بين مالك عبد ربه وعبد الرزاق الخرسا. كان ذلك نتيجة السخرية التي أثارها عبد الرزاق من الدكتور خالد المؤيد...

قال عبد الرزاق لمالك أمام مجموعة من شباب الحارة، كانوا يتحدثون عن خفايا قصر المؤيد:

- القصة صارت معروفة. الحكيم كافر، فصبّ الله عليه لعنة الجن والإنس!

لم يرق هذا الكلام لمالك، صاح في وجهه:

- لا يحق لك أن تتهم العالم بالكفر. هل أنت في قلوبهم؟!

وتعالى الصراخ بينهما، فأصرّ عبد الرزاق:

- نعم. جاء من فرنسا كافراً، وعاد معه الجن إلى الحارة!

فرد مالك:

- الخوف من البشر أكثر من الجن؟!

وسأله عبد الرزاق محتجاً:

- ماذا تقصد؟!

- كلامي واضح، افهمه كما تشاء...

وعلا صوتاهما، فتجمع الأطفال الموجودون، وضاعت معاني الكلمات، لكنها لم تصل إلى الشتائم. وتلقائيا فتحت أبواب البيوت القريبة، وصاح سعيد العطري من وسط الحارة:

- عيب. أنتما زينة الشباب، كيف تتخانقان بهذه الشكل، فماذا سيفعل الأطفال إذاً؟!

خجل الطرفان، ودخل كل منهما بيته، وما إن غابت الشمس وحل الليل، حتى سرى همس بين سكان الحارة حول تفسير عبد الرزاق الخرسا للعنة الجن في قصر المؤيد، وهمس بعض منهم: «معه حق. لعنة الجن واضحة!»...

وقال آخرون:

- القصر ملعون أصلاً. لابد من هدمه..

* * *

في تلك الليلة، تجمعت القطط السوداء عند باب غرفة نوم الدكتور خالد، فأيقظته. كان فزعاً. دبَّ الهلع في نفسه، وخرج مسرعاً من القصر إلى ساحة الجسر الأبيض هاربا من نظراتها.

صنعَ الليلُ في الشارع الفارغ لحظاتِ تجلّ ووضوح. كان ثمة رجال يتجهون إلى الجامع. يحمل بعضهم السُبحات ويرتدي بعض آخر ملابس بيضاء، فمضى الدكتور خالد معهم، أحسّ أنهم قادرون على حمايته من نفسه وأوهامه. دخل الجامع عندما دخلوه، وصلى معهم عندما صلّوا، وعند نهاية الصلاة، انزوى في صحن الجامع متكوّراً على نفسه بطريقة لافتة للنظر، كأنه يريد أن يبقى بين المصلين إلى الأبد.

لم يشاهده أحد من جيرانه. ربما شاهدوه متكوراً ولم ينتبهوا. شاهده الأمير الجزائري. أثارته طريقةُ جلوسه، معتقداً أن الله هداه، أو أن شيئاً ما قد حصل. اقترب منه وربت على ظهره، وقال:

- تقبل الله يا حكيم. ثم سأله:

- تبدو متعباً يا ابني. هل أنت مصاب بمغص في بطنك. قم. أنت ما زلت شاباً...

وقبل أن يسمع رده، تذكر حكاية سفر زوجته الفرنسية مع ولده، وما يحكيه سكان الحارة عنه، فقال:

- ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾!

وجلس إلى جواره وردد:

- قلْ. اشتكِ. فأنت يا حكيم رجلُ عِز. هل ضاقت بك الحال؟ أم أثارك الشوق إلى طفلك في بلاد الغرب؟!

حدّق الدكتور خالد جيداً في وجهه، فرآه مطَمْئِناً هادئاً مرتاحاً، ووجد الإيمان وقد لوّن وجهه بمسحة نور. قال باستسلام:

- تعبتْ ياشيخ... تعبتْ... منذ أيام لم أنمْ!

هز الأمير الجزائري رأسه يوحي له بالمتابعة، فأضاف الدكتور خالد:

- الجن في بيتي... لا أصدق... كل شيء يبدو واضحاً؟!

هز رأسه من جديد يريده أن يمضي بحكايته:

- نعم... القصر مليء بالقطط المسحورة والأشباح!

أظهر الأمير الجزائري وجهاً عبوساً، وبادره بجواب مقتضب:

ـ هذه لعنة يا حكيم... لعنة تصيب كل من يُغضب الله!

فسأله مستفسراً:

- كيف؟ أنا لا أُغضب أحداً...

رد الأمير تلقائياً:

- يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم شيطان المؤمن مهزول. أما أنت فشيطانك قوي. ترتكب الكبائر، ولا تستغفر الله ولا تتوب إلى الله توبة نصوحاً... لابد أن الشياطين تأتيك وتريدك لها. تخيفك لتستسلم. تريدك في عشيرتها!

بلعَ الدكتور خالد لعابه. إذ لا يعقل أن يأتيه هذا الجواب، ومن حوله آلاف مرتكبي الكبائر، ولا أحد يزورهم من الجن ولا من الإنس، ووجد نفسه يبتسم بمرارة!

رسم الأمير الجزائري بدوره ابتسامة مسامحة، ومسح بيده على رأس الدكتور خالد، ثم قال له:

- أنت حر بأن تسخر من قولي أو لا... المتعلمون في الغرب دائماً يسخرون من معتقدات آبائهم وأجدادهم... اسمعْ يا ابني... عليك بقراءة القرآن، وعندما يظهرون استغفر ربك، وقل بصوت عال: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)...

ثم وجّه الأمير نظرة صارمة إلى عيني الدكتور خالد، انحنى بعدها على رأسه وشرع يهمس في أذنه كلاما يعظه فيه، فأرشده إلى ترك المعاصي، وقراءة القرآن، وإشعال البخور في غرف البيت، ثم طلب منه أن يتبعه!

نهض الدكتور خالد، ومضى بصحبة الأمير الجزائري. صعد معه إلى الطابق الثاني، حيث يقع باب مئذنة جامع الجسر، وهناك أعطاه أوراقاً مطوية مليئة بالبخور، وحمل نسخة من القرآن الكريم وردد:

- هيا. سأذهب معك نحرق البخور!

شعر الدكتور خالد بسعادة غامرة لوقوف الأمير الجزائري إلى جانبه. خرج معه إلى الجسر الأبيض، ومن هناك نزلا نحو بوابة القصر، وكانت تلك زيارة الأمير الجزائري الأخيرة لقصر المؤيد!

لم يكن قصر المؤيد عادياً، فهو بيتٌ واسعٌ يزيد كثيراً على حاجة ساكنه الوحيد، يتألف من طابقين يتوسطهما صالون واسع وتعلوهما طيّارة مزينة بزجاج معشق وملون في كل الجهات، وكانت الغرف الكثيرة قادرة على استيعاب عدة أسر، وقد أغلق أغلبها وغطي أثاثها بأغطية بيضاء...

يشغل القسم الغربي من القصر نحو عشرين متراً من طول رصيف الشارع، وتتصدره القناطر المزخرفة والمقرنصات، وكأنها تعلو باباً لمسجد كبير، ولذلك كان القصر يزين منطقة الجسر الأبيض بحجارته البيضاء والكُرتين الكبيرتين المنحوتتين عند بوابته المطلة على الشارع العام، ويقفُ على كل واحدة منهما أسدٌ مجنحٌ صغير كأنه مأخوذٌ من المتحف الوطني في العاصمة...

زُرعتْ عند البوابة أحواضٌ كثيرةٌ تُزهِرُ تباعاً، وكذلك حال البوابة الخلفية، وكان يعتني بالبوابتين فلاحٌ عجوز اسمه (أبو صالح) ورجل أسمر نحيل غريب النظرات يدعى (أبو العبد)، يسقيها الأول ويشذّبها الثاني دون أن يدخلا إلى البيت.

كانت منطقة الجسر الأبيض نقطة علام في الطريق إلى المهاجرين والشيخ محي الدين، فهي تقع عند سفح جبل قاسيون حيث تربط مفارقها الجسر الأبيض بأحياء الشيخ محي الدين بالمهاجرين بالصالحية بحي الروضة الجديد، وكانت هذه المفارق، تصنع ساحة مكتظة بالناس وصاخبة بالحركة، وخاصة عندما تجتمع فيها حافلات الترامواي على خطين مع باصات الفولفو الألمانية والسكانيا العامة التي تصل حي الشيخ محي الدين بالمدينة و حي المهاجرين بساحة المرجة...

وبين هذه الباصات الضخمة التي تغص بالراكبين، تحشر عرباتُ الباعة نفسها وهي تسعى لقطع الطريق، وتمر الطنابر المحملة بالبضائع وهي تروح وتجيء بكثرة، ولذلك ألغت مؤسسة الكهرباء، فيما بعد، الترامواي الذي تستثمره لتخفف من الازدحام...

في الزمن الماضي، كانت أسرة المؤيد بكاملها تسكن القصر: أمه وأبوه وعمته وأخواه ياسر ومحمود، وكذلك سكنت فيه شقيقتاه ندى وهدباء قبل أن تتزوجا، وهناك غرفة لخادمة مصرية اسمها جملات، وهناك غرف تحتوي على تحف ولوحات وصور لرجال من العائلة يرتدون الطرابيش.

كان البيت يغص بالحركة، ويوماً بعد يوم تراجعت الحركة فيه إلى أن توقفت، وكأن لعنة أصابته. لم يبق فيه سوى الدكتور خالد الذي وافق أن يكون القصر جزءاً من حصته من الميراث!

يعرف سكان حارة المؤيد كل هذه التفاصيل، وكثيراً ما تهامسوا عن أشياء مثلها في أحاديثهم عن الشام وأحداثها وأخبارها ورجالاتها وأبطالها وصناعاتها الجميلة المشهورة في العالم.

* * *

أشعل الدكتور خالد أضواء البهو الذي يلي المدخل، فإذا بصوت الأمير الجزائري يرتفع بقراءة القرآن: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.

كررها عدة مرات، ثم أشعل البخور الذي معه وراح يردد:

- أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.

في هذه الأثناء أشعل الدكتور خالد بقية الأضواء القريبة منه، فتوهجت غرفه مع أول أضواء الفجر، وفي داخله كان الأمير الجزائري يقرأ القرآن، ويتأمل جمال جدرانه وثرياته واللوحات الموزعة فيه. ثم حدق بلوحة كبيرة في صدر الصالون، فإذا هي صورة عادل المؤيد الذي كان يؤدي الصلاة في جامع الجسر، فردد يحدث نفسه:

- رحمك الله يا عادل بيك!

دخل الدكتور خالد غرفة نومه وهو يستنشق هواءً عميقاً ملء رئتيه ويتمتم بحذر:

- أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم... بسم الله الرحمن الرحيم...

رفع صوته، كما علّمه الأمير الجزائري:

- «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا ».

ومضى إلى نافذة الغرفة المطلة على حارة المؤيد وفتحها، فإذا الصباح وقد شرع بكشف ملامح منطقة الجسر الأبيض كلها، فقد بدأ لون أزرق سماوي يبشر بالنهار، وأطلقت بعض العصافير تغريدات جميلة من الحديقة الداخلية للقصر...

جلس الدكتور خالد على كنبة مريحة، فوجد نفسه ينام بعمق، فيما الأمير الجزائري يتجول ويقرأ القرآن، وعندما شاهده نائماً ضحك، وخرج، وأغلق باب القصر،وهو يردد:

- اللهم ثبّت الإيمان في قلبه، وأعنهُ على ما هو فيه!

غرفة العناية المشددة:
هواجس فدوى ومزنة!

سال عرقٌ كثيرٌ على مخدة فادي. ثم برد عرقه ونام بهدوء. كأن ملائكته نامت كما قالت فدوى. ارتاح قالت مزنة. جلستا بجواره وقد أفرحهما هذا الهدوء. أما حامد فذهب بعد يوم كامل من القلق والتعب. طلبتا منه أن يذهب وأن يرتاح، فقد أنهكته حالة فادي...

اقتربت فدوى من مزنة. همست بأذنها:

- أخافني هذيان فادي أكثر مما أخافتني الحمى، ثم لماذا يعود صغيراً في ذاكرته وذاكرة هذه الأيام أقسى وأكثر تفصيلاً؟

وسألت بخوف:

- هل هناك علاقة ما بين تلك الحارة وأولئك الذين ضربوه على رأسه؟!

أثار السؤال مزنة. هزّت رأسها ولم تعلق. أرادت أن تعرف المزيد، فتابعت فدوى:

- أتذكرين الحارة. كنا صغاراً وكانت الحارة حلوة مثل بيت. لا أعرف لماذا تفرض تلك الحارات حالة مطمئنة عندما يأتي ذكرها. كان فيها نحو عشرة منازل. فيها أطفال وشباب وأغنياء وفقراء يعيشون بمحبة ووئام...

صحيح كانوا يختلفون، لكنهم يحلّون خلافاتهم بالود والسلام. انتقلنا إلى حارة المؤيد قبل أن تأتوا من القنيطرة. كان كل شيء هادئاً وجميلاً. سقى الله تلك الأيام...

- هل تذكرين تفاصيلها؟

- تعود تلك التفاصيل وتغيب، وكلما مررت في ساحة الجسر الأبيض أتذكرها.

- شعرتُ بهذه الحالة عدة مرّات، ثم لم أعد أبالي.

أعادت فدوى سؤالها:

- ما الذي يجعل الحارة موضوع هذيان فادي الدائم؟ عندما يغيب الانسان عن الحاضر يبدو وكأنه يركب بساط الريح. يأخذه البساط إلى حيث تريد خفايا نفسه، فلماذا عاد إلى هناك!

فسألت مزنة:

- ولماذا تعود ديمة؟

ردت فدوى مازحة:

- كانت ضرّتك. تعلق بها فادي. قبل أن تنزحوا من القنيطرة. كنا جميعاً نغار من هذه الرفقة بينهما.

سألت مزنة بجدية:

- هل يمكن أن يكون فادي قد التقى ديمة في الفترة الأخيرة، وأثار ذلك آخرين، ما تسبب في ضربه!

قالت فدوى:

- منذ سنوات طويلة انقطعت أخبار ديمة. فادي وحده كان يهتم بأخبارها. لم يكن يتحدث عنها. الجملة الوحيدة التي أشار إليها. كانت مصادفة.

- كيف؟ سألت مزنة، وجاء رد فدوى مقتضباً:

- قال إنها أهم شيء في حياته!

تحرك فادي في السرير. خافتا أن يسمع حديثهما. صمتتا، لكن نومه استمر. همست فدوى من جديد:

- لم يقل شيئاً عن أولئك الذين ضربوه، ربما لا يعرفهم. انشغل حامد كثيراً بمعرفة حقيقة الأمر وكان كل شيء مبهماً!

ردت مزنة:

- المهم أنه نجا!

- يارب!

رن جرس الهاتف الخليوي فردت فدوى:

- مساء الخير حامد. فادي نائم. تعرق كثيراً، ثم نام.

وأنصتت قليلاً إلى كلامه، ثم هزت رأسها وقالت:

- اطمئن أنا ومزنة سنكون إلى جانبه. ارتح أنت في البيت...

وأغلقت الهاتف.

أغلق حامد هاتفه أيضاً، ودخل إلى ساحة صغيرة خلف بناية كبيرة انتصبت في جهة الجنوب من جامع في الجسر الأبيض، هي آخر ما تبقى من حارة المؤيد، في صدر تلك الساحة التي تحولت إلى كراج للسيارات، ثمة جدار لا تزال آثار من الأبنية القديمة عالقة عليه. وقف حامد يمعن النظر بالبقايا. وكان الهاجس الذي يشغله يتعلق بفادي.

سأل نفسه:

- «ما الذي جعل فادي يعود إليها وهو في حالته هذه؟!»

وتذكر القطط السوداء، وحكاية قصر المؤيد. تذكر تفاصيل كثيرة كان قد نسيها عن أصدقائه هناك: «ترى أين ذهبوا؟ ما أخبارهم؟ من مات ومن بقي حياً؟!

وانتابه شعور غريب أن يدخل إلى الجامع، ويستعيد أشياء قديمة منه...

ترك الساحة الصغيرة، واتجه إلى جامع الجسر الأبيض. اتسع الجامع. ضمت إليه مساحة جديدة من أحد البيوت القديمة، بحرته فارغة. جف الماء الذي تدفق فيها على مدار الساعة منذ أن أنشأته خاتون زوجة الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي، ولم تعد سماؤه مفتوحة فوق صحن المسجد الصغير، تم إغلاقها بسقف من القرميد.

لم يكن حامد يتردد كثيراً على الجامع، ولكن أباه أخبره ذات مرة أن الجامع كان مدرسة ولها وقف كثير كان يستثمر عليها، وعندما خرجا من الجامع أشار أبوه إلى بناء يتاخم الجامع، وقال له هذا القصر ملعون لا أحد يسكنه...

سأله حامد:

- لماذا هو ملعون؟!

فرد أبوه:

- لا أحد يعرف الحقيقة، لكن هناك حكاية تقول إنه كان وقفاً للجامع تركته زوجة الملك، ولأن أتباع الملك باعوه فيما بعد، حلت اللعنة عليه!

استيقظ فادي. ترامى صوته في أرجاء غرفة العناية المشددة:

- أريد أبي. أريد أبي. وصدى: بي. بي. وطنين يْ!

انقطع حديث فدوى ومزنة. ركضتا نحوه. فادي. فادي. وبكت فدوى، وقالت:

- يا حبيبي... أبوك مات منذ زمن طويل!

جاء أبو حامد. قال فادي. أريد ديمة. قال أبوه اسمع يافادي أنت صرت رجلاً. أنت تعرف جيداً أن ديمة ضاعت. ضاعت منذ زمن طويل. ليس لك أن تفكر فيها على هذا النحو. ديمة ستتعبك. قال فادي أريد ديمة. ذهب أبوه. مثل طيف جاء وذهب. بقي فادي في حريقه. كان يهذي بكلمات مبهمة المعاني عن ديمة... مة. مة. مااا!

الكابوس!

فوجئتْ هدباءْ المؤيد بصوتِ قرع الجرس!

كانت تلك هي المرة الأولى التي يقرعه زائر. أنهى العمالُ تركيبَه قبل يوم واحد فقط في البيت الجديد. انتقلت إليه بإصرار من زوجها وأطفالها لأن حي الروضة أكثر هدوءاً من منطقة العفيف حيث كانوا يسكنون...

كان الجرس من نوع جديد دخل إلى البلاد من إيطاليا، وهو عبارة عن عزف على البيانو مدته عشر ثوان متتالية، يبدأ بنغمات إيقاعية منفردة، ثم يمتد كمقطوعة قصيرة تدخل السعادة إلى الروح، ويتمنى السامع لو أنها تعاد مرّات ومرّات.

أُعيد قرع الجرس مرتين، فصار صوته متواصلاً جميلاً. هذا العزف الجميل تحوّل إلى خوفٍ سيطرَ على هدباءْ، وهو خوفٌ تزدادُ حدّتُه إذا كان الشخص نائماً، لأن قرع الجرس لم يكن في وقته، فمن هذا الزائر الذي يقرع جرس بيتها بعد منتصف الليل؟

كان وجيه القباني زوج هدباء ينام بعمق. لم يوقظه صوت البيانو. أيقظته زوجته وهي تهزّه بقوة ليفتح الباب، ويتعرف إلى هذا الزائر الغريب في الوقت غير المناسب. نهض وجيه. ارتدى الروب دي شامبر، واتجه نحو الباب. نظر في فتحة العين الساحرة، فإذا به يفتح الباب بلهفة، ثم يردد بترحيب واضح:

- أهلا بالحكيم... أهلاً. أهلاً. تفضل. تفضل...

أوحت ملامح الدكتور خالد بكارثة حلت به. فهو مكفهر الوجه. مقطب الحاجبين. متعب. ارتمى على أول كرسي في الصالون بمساعدة صهره وجيه. كان يحمل بيده كيساً بحجم حقيبة، لم يتخل عنه رغم حالته، ومن الداخل ترامى صوت هدباء:

- وجيه. من يطرق الباب؟

وقبل أن يردّ زوجُها، وصلتْ هدباء إلى الصالون. شاهدتْ شقيقها مرمياً على الكرسي، فركضت نحوه تستفسر وهي تجمع روب النوم فوق منامتها:

- خير؟ خير؟

جلستْ قربه على عجل. كان خائفاً، وكأنه طفلٌ صغيرٌ أصابه الرعب بالخرس. أمسكتْ هدباءْ يده، وفركتها، ثم سألته وقد توقعت شيئاً مما حصل معه في قصر الجسر الأبيض:

- أخبرني. هل ظهروا من جديد؟!

ولم يفهم زوجها قصدها، فسأل بدهشة:

- من هم؟!

* * *

كان الدكتور خالد قد دخل قصره بعد الساعة التاسعة مساء. أحس أن شيئاً ما يدفعه للعودة إلى البيت. شيئاً ما يقول له: «لا تخف. انتهى كل شيء. كن رجلاً. كانت أوهام الأيام الماضية مجرد وساوس وأنت متعب».

كان يؤدي عمله في (مستشفى الغربا) شارداً. لا مبالياً بتفاصيل شكاوى المرضى الذين يتدفقون من كل جهات الشام للعلاج المجاني فيها. كان يصفُ الدواء على عجل، إلى الدرجة التي سمعِ فيها تحذيراتٍ كثيرة من

زملائه الأطباء تتعلق بكتابة وصفات اعتباطية سريعة، ونصحه مدير المستشفى بأخذ إجازة ريثما تهدأ الآثار التي تركها سفر زوجته المفاجئ. وكان يُكابر ويعدهم بالعودة إلى طبيعته.

عندما وضع المفتاح بالقفل بَسْمَلَ وقرأ سورةَ الناس. كانت مصابيح البهو الذي يلي البوابة متوهجة. كما تركها عندما غادر البيت إلى الفندق قبل يومين، تذكّر نصيحة الأمير الجزائري: «اسمعْ يا ابني... عليك بقراءة القرآن، وعندما يظهرون استغفر ربك، وقل بصوت عال: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ».

ارتفع صوت الدكتور خالد:

- بسْمِ اللهَّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾.

أعادها ثلاث مرات، ثم راح يردد بثقة كبيرة في النفس:

- أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهَّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهَّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهَّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ...

شعر باطمئنان، فتوجه إلى الداخل. تفقّد غرفته والمطبخ. عاد إلى الصالون وأشعل الراديو، فإذا صوت الشيخ سيد درويش يتعالى: (سالمة يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة).

قهقه بصوتٍ عالٍ ساخراً من نفسه، فكأن الإذاعة تعرف أنه عاد إلى قصره بعد يومين من مغادرته إثر مخاوفه المتزايدة من خرافة الجن في قصر أبيه الشهير في حارة المؤيد!

خطر له هذا التحدي في اليوم الثاني الذي نام فيه في «فندق أمية» في ساحة المرجة، بعد أن أرّقهُ سؤالٌ طرحه عليه عامل الاستقبال في الفندق:

- خير يا حكيم. تترك قصركم العامر إلى فندقنا المتواضع؟

لم يجد جواباً عن سؤال العامل الذي صادف أنه من سكان الجسر الأبيض سوى الخجل، فماذا يقول له، هل يخبره أنه خاف من عتمة القصر وهواجس تنتابه فيه ليلاً، أم ماذا يقول؟!

دخل غرفته في الفندق ونام. قرر أن يعود إلى القصر مهما حصل، وأعلن بقرارة نفسه أنه سيتحدّا(هم) من جديد، وعندما دقق في العبارة التي قالها في نفسه ابتسم ابتسامة صفراء وسأل:

- من (هم) لأتحداهم؟!

* * *

سمع أغنية سيد درويش وهو يستلقي على كنبة واسعة. أسعدته معاني الأغنية. قام وارتدى منامته، واتخذ مجموعة قرارات على أن ينفذها في اليوم التالي: سيعيد عمال الحديقة الذين منحهم إجازة مفتوحة إلى عملهم، وسيأتي بخادمة دائمة إلى البيت حتى لو كانت عجوزاً، وسيدعو أصدقاءه من جيرانه في حارة المؤيد إلى سهرة أسبوعية، سيدعو (مالك عبد ربه) صديق أخيه الراحل لصحبته كي يناقش معه ما يجري في البلاد، وسيتعرف إلى أصدقاء مالك، وبذلك تدب الحياة في القصر وتعود الأمور إلى مجاريها، ويتصل بزوجته التي فرّت إلى بلدها فرنسا، ويدعوها من جديد لأن كل شيء قد تغيّر!

أطفأ الدكتور خالد الراديو ونام في العاشرة والنصف. هدهدهُ الاطمئنان المفاجئ الذي حلّ عليه. اقتنع بقراراته تلك، وغابت الوساوس عنه. كان القصر هادئاً تماماً. توهجت مصابيحه حتى في غرفة النوم.

بعد أكثر من ساعة على نومه العميق، لمعت من مصباح غرفة النوم أنوارٌ بيضاء. تلقفتها عينا الدكتور خالد الذي كان نائماً على قفاه ووجهه نحو السقف، وأنشأت منها صورة الأحداث التالية...

كانت تلك الأنوار البيضاء ترسم دوائرَ متتالية، تكبرُ وتصغرُ، تمكّنت من الولوج، عبر أجفان عينيه، إلى روحه فارتسمت أمامه غمامة تشبه ضباباً كثيفاً راح يتقدم نحوه...

سمع صوت الراديو. كان متيقناً أنه أطفأه. جاءه الصوت من الصالون. صوت سيد درويش نفسه: سالمة ياسلامة. رحنا وجينا بالسلامة. فكّر. ربما كان قد نسي الراديو مفتوحاً قبل أن يتجه إلى غرفته لينام، فراحت الإذاعة تعيد الأغنية.

نظر إلى الساعة الجدارية كانت تقارب الواحدة بعد منتصف الليل، فمن أين جاء سيد درويش، وقد أغلقت كل إذاعات العالم، حتى إذاعة الشرق الأدنى أغلقت؟!

غابت غرف القصر عن عينيه. اللوحات التي عُلقت على جدرانه ضاعت في كثافة الضباب الذي اجتاح الغرف فجأة. أحس الدكتور خالد أن صورةَ جدّه عبد الغفار المؤيد بطربوشه التركي ونظراته المستعلية قد سقطت على الأرض. سقطت صورةُ أبيه. سقطت صورة أخيه محمود. سقطت كلُّ الصور وكلُّ الطرابيش. اختلطت ألوانُ الجدرانِ والصورِ المحطمة مع الضباب والأنوار الساطعة التي تعمي العينين بأصوات الأغنية...

شيءٌ ما له يدٌ. أو ربما شخصٌ ما طويلُ القامة. أو ربما ريحٌ قويةٌ جاءت من كل الاتجاهات اقتلعت الصور المعلقة على الجدار الجنوبي من غرفة النوم. كان ذلك الجدار بلا نوافذ. كان بابه يُفتح على الصالون ومن جهة الشرق ثمة نافذةٌ واسعةٌ مرخاةُ الستائر تطلُّ على حديقة صغيرة من جهة حارة المؤيد...

سقطتْ الصور، وترامى صوتُها وصوتُ تحطم زجاجها، واستيقظ الدكتور خالد. نهض بخوفٍ بالغٍ، فهل عاد(وا) ليواجهوا تحديه؟ هل عجزت تيمة الأمير الجزائري عن طرد(هم) من قصره المنيف؟!

جلس في الفراش. كان شعره منفوشاً اختلط سواده الفاحم مع بياض راح يغزوه بكثافة من جهة الصدغين. تغيّرت هندسة (السكسوكة) التي تزين وجهه، وتوحي بأنه من أساتذة جامعة (الكوليج دي فرانس). غدت بشعة. نظر نحو الجدار الجنوبي. رأى الصور وقد تهشمت ورأى صورته وقد قطعها خط عرضي شكله الزجاج المتبقي في البرواز. أصغى بانتباه يريد معرفة أي صوت آخر يمكن يأتي.

فكر بالنهوض للبحث عن شيء ما يتحرك في الغرفة، فلم يستطع. أمسكَه الفراش في مكانه، وعجزت أطرافه عن الحركة. مرت دقائق أطول بكثير من الساعتين اللتين أمضاهما في انتظار ولادة ابنه الذي أخذته الفرنسية معها وهربتْ.

أحسّ أنهم يلتفون حوله. سألهم ماذا تريدون. لم يلق جواباً. كانوا يقتربون ويقتربون. ضيقوا عليه الخناق لآخر نفس..

كان الصمتُ سيد اللحظات التي مرّت، وكان وجهُه يتلون بكل تدرجات الصفار التي يصنعها الرعب الشديد عادة... سأل نفسَه: «أهو حلم أم كابوس؟!»، فقرر أنه كابوس!

جاءه صوتٌ: اهدمْ هذا القصر. اهدمه!

أنصت الدكتور خالد إلى صوتِ كابوسه. كان مسموعاً واضحاً، كأنه مسجل على (شريط بَكَرْ) كتلك الأشرطة التي شاهدها في الإذاعة يوم زارها مع أخيه المرحوم محمود ومالك عبد ربه وفتحي المحايري...

قرر أن يغادر المكان. كان ثمة ساعة جدارية يقترب العقربان الكبيران فيها من بعضهما. الساعة تقارب الواحدة بعد منتصف الليل. لابد أن ينهض. حاول النهوض. كان النهوض صعباً. كان يشعر أنه ملتصق بالفراش، وأن شخصاً ما يكبله بيديه من الخلف. وقرر أن يستعيد الثيمة التي سمعها من الأمير الجزائري: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِّ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ... ونهَض!

استمد قوة غريبة من تلك الكلمات، ورأى نفسه يرتدي ثيابه بسرعة لم يعتد عليها من قبل. همّ بالمشي، ثم عاد ففتح الخزنة القريبة منه. جمع كلَّ مافيها. ووضعها في كيس يشبه حقيبة اليد.

اندفع نحو الباب وخرج من الغرفة باتجاه الصالون، ومن الصالون اندفع نحو بوابة القصر.. كانت المصابيح كلها متوهجة عندما همّ بالخروج، فإذا ساعة الصالون تعلن بموسيقاها الخاصة أنها بلغت الواحدة تماماً بعد منتصف الليل. سأل نفسه باندهاش: «هل هي مصادفة»؟!

أطبق بوابة القصر، وراح يركض باتجاه بيت أخته في حي الروضة!

غرفة العناية المشددة:
حب تحت المطر!

نقل الأطباء سرير فادي إلى غرفة عناية خاصة نظراً لحاجتهم إلى أسرّة غرفة العناية الكبيرة التي هو فيها. الجميع تعبوا، فناموا. نامت فدوى على حافة سرير فارغ يجاور سرير فادي، ونام حامد بملابسه على السرير الملاصق للنافذة، أما مُزنة فقد غفتْ وهي جالسة على كرسي في الجهة المقابلة لسرير فدوى. رسم نومُهم في غرفة المستشفى صورةً طريفةً لغرفةٍ ينامُ فيها الجميع مستسلمين لتعب وقلق سيطرا عليهم ليومين بعد نوبات الحمى التي راحت تتوالى على جسده...

مع بزوغ أول خيوط الفجر. أنهكهم التعب والقلق والخوف، فناموا. ولم تكن قد مرت دقائق على نومهم عندما صحا فادي وكأنه يقوم من إغماء طويل. فتح عينيه على غرفة مضيئة لم يكن يعرفها من قبل. جالَ بنظره على من فيها. نظرَ إليهم بعينين واهنتين مخضبتين بلون أحمر. نهضَ عن سريره بصعوبة بالغة. شعر أن رأسه غدا ساخناً ورطباً معاً، ومع ذلك حاول ألا يوقظ أحداً ولا حتى فدوى القريبة منه. مشى ببطء متغلباً على دوّار صعب كاد يرميه أرضاً، إلى أن وصل النافذة.

تنفس بعمق، وهو يشعر بأنه يعود للحياة. ظهرت الغيوم المتراكمة من خلال النافذة، أخذته الغيوم إلى بعيد... إلى مزنة التي تنام بجواره بعد أن جاءت للاطمئنان عليه. كان ذلك قبل زمن طويل... لم يعد قادراً على تحديده. مشيا معاً في جو ينذر بالمطر. أخبرته أنها تحب هذه اللحظات، قالت

له إنها تشبه لحظة دخول الماء إلى فمٍ عطشان، ولكي تفرض المشاعر التي تريدها عليه أمسكت ذراعه، وأسندت رأسها عليه وهمست بعذوبة فتاة عاشقة: المطر حلو... هيا نمشي. لابد أن يهطل!

مشيا. تأخر هطلُ المطر دقائق، ثم تدحرج رعدٌ كثيفٌ فوقهما بعد أن ومضت السماء بنور ساطع، وما هي إلا لحظات حتى هطل مطرٌ غزيرٌ غرّق كل شيء تحته حتى ملابس العاشقين اللذين لم يتحدثا شيئاً بعد في مشوارهما الغريب تحت المطر...

التفت فادي إلى داخل الغرفة. كانت مزنة نائمة بعمق. حدّق في جسدها. زاد وزنها كثيراً في الآونة الأخيرة. غيّرها الزمن. غيّر كل شيء فيها: وجهُها. صدرُها. مؤخرتُها. غيّر الزمن جمالَها ورقتها وأنوثتها، لكنه لم يغير ودّها. كان طبيعياً أن يراها بجانبه وقد أصابت الحمى جسده. لم تفاجئه عندما فتح عينيه ورآها تضع الكمّادات على رأسه!

دوّى في الأفق شيءٌ يشبه الرعد، فالتفتَ نحو النافذة. هزَّ رأسَه. هذا ليس رعداً. كاد يضحك بصوت عال، لكن الإصابة كبّلته.. عندما يتدحرج الرعد يتذكر مزنة... هكذا تفرض نفسها عليه في كل الشتاءات التي تمر، فتكبر هي ويكبر فادي، ويبقى الرعدُ مفتاحاً لذاكرة عاشقين جريئين يتذكران ما حصل ويضحكان!

- لندخل!

وسحبتْهُ مُزنة من يده إلى مدخل بناية عالية تتاخم الشارع الذي هما فيه. كان الممر معتماً. وكانت ملابسهما مبللةً قليلاً. ظن فادي أنها تهربُ من المطر. لم تكن مزنة تريدُ الهربْ. كانت تريد شيئاً آخرْ. في مدخل البناية العالية جعلته يتذوقُ طعمَ فمها ممزوجاً بماء المطر الحلو...

تلك الدقائق كانت تثيرُ ذاكرتَه على مرّ الأيام، وكان يسأل نفسه: «كيف لم تشعرْ مُزنة بالبرد رغم أنه خلع نصف ملابسها عنها في المدخل الذي هربا إليه من المطر إلى الحب». يستعيدُها في كل لحظات التأمل، فيأتي صوتُ المطر ليمتزجَ مع صوتِ أنين رغبتها وهو يضمُها بعنف إلى الدفء الأزلي في جسده الشاب!

جاءت موجة أخرى من دويّ بعيد... أهي حرب سماوية؟ سأل فادي نفسه، ثم ترك النافذة واقترب من مُزنة. كانت مستغرقة في نومها. تعبتْ فنامتْ. رأى شفتين مشققتين مطبقتين على فم نائم. قبّلها بلطف شديد. قبلة واحدة تكفي. أعادته القبلة إلى طعمٍ قديم تشبه حلاوته طعم المطر، ابتسم وهو يظن أنها تتصنع النوم، وستقولُ مُزنة بعد زمن طويل إنها رأت في الحلم فادي وهو ينهض من السرير شاباً قوياً صحيحاً. «اقترب مني وقبّلني على فمي» وتؤكد: «صدّقوني»!

دار فادي بين الأجساد النائمة. لم ينتبه أحدٌ إلى قُبلته لمُزنة. لا حامد وقد علا صوتُ شخيره، ولا فدوى وقد غابتْ في نوم عميق بلا أحلامْ. ولا حتى مُزنة التي تحكي شفتاها عن قبلة تشبه حلماً لا يصدقه أحد...

شعر فادي أن بإمكانه أن يبقى واقفا فقوّته تعود إليه، وروحه تتوهج، لكن صداعاً قوياً كان يذهبُ ويعودُ فيستوطن في جمجمته الموجوعة جعله يفكر بالعودة إلى السرير...

افتقد فادي الدكتور رضوان. أوقفه الفقدُ في مكانه: هل يعقل أن تكون إصابة الدكتور رضوان بليغة؟ أم إن نوبات الحمى جعلته يهذي بأحداث لم تقع؟ جلس على كرسي قريب. أحس برغبة في البكاء، فماذا لو كان حادث السيارة التي أصيب بها الدكتور رضوان كبيراً ومات فعلا؟!

عاد إلى السرير... استلقى، وسأل بصوت عالٍ:

- هل انتهت الحمى؟!

نام فادي. رأى الشام في نومه أحلى مما هي اليوم. عادت مدينة قديمة هادئة. عاد الناس الطيبون إليها. عادوا يحبونها وتحبهم. عادوا أوفياء لها مثلما هي وفية لهم...

شاهد الترامواي، فركب فيه. تذكر خوف أبيه عليه كي لا يضيع. استعاد تأنيبه له:

- لا تذهب بعيداً عن الحارة.

كم كان يتمنى أن يركب الترامواي، ويراه وهو يشق الطريق وسط ضجيج الأسواق. كان ينظر في الوجوه. تسحره وجوه الناس المشغولين في دوامة الحياة. كان يظن أنهم يفكرون مثله. يبحثون عن أحلام تتسع لكل العالم...

قرار بهدم القصر!

شاع خبر في بعض حارات الشام، ثم انتشر إلى منطقة العفيف والشيخ محي الدين والصالحية والمهاجرين، وفيه أن الرئيس شكري بك القوتلي سكن حارة من حارات الجسر الأبيض. وتأكدت الشائعة، وابتهجت الحارات القريبة، وشارك الكبار والصغار بعراضات كانت تأتي إلى الجسر وترفع هتافات جميلة.

على مدار أسبوع أو أكثر تعالت هتافاتُ عراضاتٍ متتاليةٍ من أكثر من جهة من جهات الشام. كانت العراضة تبدأ في تجمّع قليل من الأشخاص، يصبح نواةً لعراضةٍ أكبر، فتشق طريقها، وبين شارع وشارع ينضم إليها آخرون. تبدأ صغيرة وتنتهي كبيرة ولا يعيق مسيرها أحد. رجال الشرطة لايخافون منها. كانوا يخافون عليها. يوقفون السير من أجلها، وأحيانا تردد شفاههم الشعارات نفسها التي تتعالى من قلبها.

جذبت الحالة الاحتفالية الجميع وحرّكتْ بين الناس حواراً واسعاً حول الأحداث التي تمر بها البلاد بعد الاستقلال. كانت مستجدات الانقلابات تشغلهم، لكن عودة القوتلي حركت أشياء قديمة، وتوالدت موضوعات جديدة لأحاديث الناس كالموقف من شكري بك ومن خصومه ومن التطورات التي تحكي عنها الصحف وخاصة الوحدة ورفض المشاريع الغربية والأحلاف.

كان باعة الصحف يتحولون بين ساعة وأخرى إلى مكان استقطاب يحتشدُ فيه الناس لقراءة العناوين وشراء الصحف التي تثير اهتمامهم. كانوا يطالعون عناوينها على نواصي الشوارع كل صباح وعلى مدار ساعات

النهار، وكان قراء العناوين كثيراً ما يكتشفون أن ثمة تفاصيلَ أهم من عناوين لا يعرفونها...

خرجت نجوى أغريبوز وملك عبد ربه من المدرسة الثانوية. مشتا باتجاه الجسر الأبيض من جهة الطلياني. كانتا من أجمل فتيات الجسر الأبيض، تمشيان بأناقة وحشمة وبوجهين فرحين يثرثران طيلة طريق الذهاب إلى الثانوية أو العودة منها.

عند مكتبة الحمصي، لاحظتا أن عدداً من المارة يتجمعون حيث عُلقت على (ستاند) معدني عشراتِ الصحف الجديدة بملاقط غسيل.

قررت ملك أن تعرف ماذا يقرأ هؤلاء المارة في تلك الصحف، فطلبت من نجوى أن تقترب معها من شبك الصحف المعلقة، فردت نجوى محتجة:

- هل سنحشر أنفسنا بين الرجال؟ وكان جواب ملك:

- لابد أن أعرف ما فيها!

حلّت نجوى المشكلة باقتراحها:

- أنا سأتدبر الأمر.

سحبت ملك من يدها، وذهبت إلى صاحب المكتبة وطلبت منه شراء صحيفتين، من الصحف المعلقة:

- عمّو أبو أنس. أريد جريدتين.

فرد أبو أنس مستفسراً:

- أي جريدتين تريدين؟ فسألته:

- ماذا عندك؟ ضحك البائع، وقال وكأنه يوقعها في حيرة أكبر:

- ألف باء. النصر. الأيام. صوت العرب. المضحك المبكي. العلم. القبس. دمشق المساء..

تلكأت نجوى، فهي لا تعرف ماذا تختار، فأنقذتها ملك:

- المضحك المبكي والأيام ..

وضحك أبو أنس، وأعطى الجريدتين لنجوى، فحملتهما ومشت بخجل، وهي تهمس لصديقتها:

ـــ خجلّتيني!

فردت ملك:

- على أساس عندك الحل. كنا وقفنا بين الشباب وقرأنا العناوين!

التفتت نجوى إليها، وصاحت:

- «جكارة» فيك سنقرأ الجرائد عندنا في البيت.

دخلت ملك إلى بيت أغريبوز، كانت تعرف أهداف صديقتها نجوى، فخطوة من هذا النوع تعني الدخول في تبادل الزيارات، ثم سهولة اللقاء مع مالك شقيقها. في البيت قالت ملك:

- كان يمكن أن نقرأ الجرائد في بيتنا...

هربت نجوى من الفخ، و سألتها:

- هل تعرفين أسماء الجرائد التي ذكرها صاحب المكتبة؟ فأجابت ملك:

- بتعرفي. جرائد ماما تكفي. كل كم يوم تعمل استقبال وبالاستقبال تُنظّر على نسوان الجسر الأبيض، وأخي مالك يأتي بجريدتي المضحك المبكي والأيام...

وغمزتها لتثير اهتمامها:

- مالك شاب حلو. وبيفهم كمان... وسألتها بمكر:

- مزبوط ياحلو... حبيبك كامل مكمل!

فخجلت نجوى، واحتجّت:

- شو قصدك؟!

- على أساس أنا بير السر؟

- أنا خايفة من بيرك ليطوف!

فضحكت ملك، وسألتها:

- احك لي عن رسالة البارحة؟

وقالت نجوى:

- لو بطقّي مابقول! وسألتها:

- ليش أنت بتحكيلي عن شوقي؟!

لم تقرأ ملك عناوين الصحيفتين اللتين جاءتا بهما إلى البيت. انشغلتا بالحديث عن مالك، وعن رسائله التي كانت تنقلها ملك إلى نجوى، وإلى جانبهما كانت عناوين الصحيفتين تتحدث عن المرحلة الجديدة التي سيأخذ شكري القوتلي البلاد إليها بعد سقوط الشيشكلي، وكان هناك عناوين عن حلف بغداد وعن فلسطين وعن رئيس مصر جمال عبد الناصر...

كانت عناوين الصحف تستقطب مجموعات الناس عند الباعة، فقد لفتت هذه الوقائع وهذا الصخب الجميع، ودفعت هذه الأنباء كبار حارة المؤيد إلى التفكير بخطوة لم تكن لترد على بال أحد منهم، اقترحها مالك نفسه، وكان أصغر من كان موجوداً في الجلسة:

- شكري بك صار جارنا. وأنتم تعرفونه ويعرفكم. لماذا لا تقومون بزيارته وتهنئته بالرئاسة والخلاص من الانقلابات؟

التفت العيون إليه، فالفكرة مهمة جداً وقابلة للنقاش. وفي البداية اختلفت الآراء، لكن ما لبثت أن تقاربت. وكان الاحتجاج الأبرز بعدم جدوى الزيارة من الشيخ عبده الخرسا وابنه عبد الغني اللذين كانا من مؤيدي الشيشكلي...

بعد نحو ساعتين من الحوار اقترح ناظم الإيتوني عبارة حاسمة جعلت الجميع يوافقون على فكرة الذهاب للترحيب بالرئيس القوتلي، ومن بينهم الشيخ الخرسا نفسه، الذي قال:

- لا أحد ينسى ما قدمه شكري بك. حكمه الفرنسيون بعشرة إعدامات. أنا ضد صحبته مع الرئيس عبد الناصر، لكن الواجب واجب. على الأقل هذه حقوق الجار علينا. أنسيتم أنه أصبح جارنا، وبينه وبين الحارة و أبو مالك جدار واحد فقط؟!

وضحك عدد من الحضور على عبارته الأخيرة، وهز سعيد رأسه موافقاً، وقال:

-غدا سأتصل مع فؤاد بيك الحلبي مدير مكتب شكري بيك وأطلب منه موعداً لزيارة وجهاء حارة المؤيد.

وطلب من مالك تسجيل أسماء من يود المشاركة في الوفد!

* * *

لم يكن هذا الموضوع هو الوحيد الذي جرت مناقشته في تلك الجلسة، فما إن وصل الحضور إلى حل حول تهنئة القوتلي، حتى قُرع باب البيت،

وسمع الجميع صوت الأمير الجزائري، فأخبروه بالاتفاق على زيارة القوتلي، فأيدهم، وانتقل مباشرة إلى الموضوع الذي جاء من أجله:

- زيارة شكري بك واجب، فهو مجاهد حارب الفرنساوي، وصار رئيساً وهذا فخر لنا. أنا جئت من أجل الحكيم الدكتور خالد المؤيد يعني.

وتنفس بعمق، وهو ينظر إلى أبو مالك، وقال:

- يا حاج... كان يفترض أن تخبرنا بحال جارك. فقد علمتُ أنه يُعّدُ العدة لهدم قصره وعلينا أن نبادر لمنعه من خطوة غير معقولة. على الأقل بعد قدوم شكري بك إلى الجسر الأبيض.

وسرتْ فوضى بين الجميع، فقد فوجئوا بهذا الخبر، وخلالها كانوا يستفسرون عن سبب هذا القرار المفاجئ بهدم القصر، وقال أبو مالك:

- أنا لا علم لي بهذا القرار. نحن نمون على أشياء كثيرة في الحارة، لكن لايمكن أن نمنعه من التصرف ببيته...

وقال أبو نجوى أغريبوز، وكأنه وجد حلاً:

- يمكن لأحد منكم أن يشتريه!

فرد الأمير الجزائري محتجاً:

- المؤيد لا يبيع قصره. هو بحاجة إلينا وإلى دعائنا... حتى لو كان الجار في قصر، ونحن في قن دجاج. هو جار وله حقوق علينا.

ثم قال:

- يجب أن نقف معه.

والتفت إلى أبو مالك قائلاً:

- يا حاج أبو مالك... رتَّب لنا زيارة إلى قصر الحكيم. نكون فيها مجتمعين. ونقيم مجلسا للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فمجلس الصلاة على النبي تنحل به العقد، وتتفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج...

فردد الحضور:

- صلى الله عليه وسلم.

هجر الدكتور خالد الحارة، ونأى عنها، وخلال أيام بدا القصرُ مهجوراً. لم يظهر الدكتور خالد عند بابَيْه أو شرفتيْه. لا الشرقية ولا الغربية. كانت أضواءُ بعض غرفِهِ متوهجةً ليلَ نهارْ، أما الحركة في البيت فأوحت أن صاحب البيت نسي أضواء الغرف متوهجة وغادر القصر على عجل...

غابَ (أبو صالح) و(أبو العبد) الخادمان اللذان يشرفان على خدمات البيت ونظافته ويقومان بسقايةِ الأشجار. ظهرت بعض التغييرات للمارة، فقد أضحت دالية العنب المزروعة في الباحة الخلفية خاليةً من الثمار، قفز الأطفالُ إليها، وقطفوا ما تبقى من عنبها، وبقيت حباتٌ قليلة معلقة في عناقيدها، فهاجمتْها الدبابيرُ الصفراء وغزاها نحلٌ كثيفٌ وشرعتْ بعضُ أوراق الدالية بالاصفرار نتيجة العطش...

ظلت شجرة أكي الدنيا العالية، ترمي بظلالها على طرفِ الحارةِ الشمالي، وكانت خالية تماماً من الثمار، ومن الجهة الداخلية للباحة انتصبتْ شجرةُ المانوليا العملاقة رغم العطش وقد تفتحت أزهارُها بعبقٍ غريبٍ غطى حارة المؤيد كلها، وقال عنه أبو صلاح إنه يدَوخ الرأس. مرت أسابيع على هذه الحالة، وكان الدكتور خالد مختفيا عن الأنظار، وعاد لينام في فندق أمية في المرجة بعيداً عن المنطقة كلها. وقبل أن يقدم على خطوته التي ستشغل سكان حارة المؤيد زمناً طويلاً، طلب عدة مرات الاتصال بأخيه

محمد ياسر الذي يعيش في باريس، لكن الطلبات كانت لا تلبى، وكانت إجابة عامل المقسم بأن خط باريس لا يعمل إلا لبضع دقائق ثم يتوقف. وكان الدكتور ينتظر وينتظر ولا تأتي مكالمة باريس، وكانت أخته هدباء تطالبه بالتكتم على موضوع الجن والتروي قبل الإقدام على هدم القصر، وقالت له ذات مرة:

- دع المشايخ يطردون الجان وعد إليه ولا تخف!...

بعد أسبوعين، تحقق الاتصال مع باريس، وسرد لأخيه حقيقة ما يحصل في القصر، وأشياء «لا يصدقها العقل»... «ياسر... كانوا يدورون حولي، وأنا أدور حولَ نفسي، يفحّون كثعابين تريد التهامي، لا يمكنك أن تصدق يا أخي... لا يمكنك أن تصدق كيف يكونُ حالك لو ظهر الجنُّ لك!»... كان محمد ياسر المؤيد ينصت باستغراب، فالدكتور خالد لم يكن يؤمن بهذه الترهات، وعندما سأله ذات مرة عن الشياطين، ضحك، وقال: لماذا لا تظهر الشياطين في باريس؟ لماذا لا يظهرون في روما؟ يظهرون عندنا فقط في حارات الشام وزواريبها!!

وفكر محمد ياسر: «إذا كان أخوه قد جُن، فهذا يعني أن عليهم إيجاد مأوى له!»، وقال لأخيه:

- أنا لا أفهم عليك. يأتون. يدورون. هل جُننت يا خالد؟! فرد خالد:

- كنت أعرف أنك ستقول ذلك، ولكن لابأس أنا فقط أردت أن أخبرك بقراري.

وصمتَ لحظة، ثم أعلن قرارَه : سأهدم البيت!

واجه محمد ياسر العبارة بدهشة، وانقطع الاتصال...

في اتصال آخر، حاول إقناعه بعدم اللجوء لهدم القصر: «لا يمكنك أن تفعل ذلك. لا يمكن أن أتصور أن بيتنا في الجسر الأبيض، أجمل بيوت الجسر سيهدّم! وقال بعبارة صادمة: هذا قصر بيت المؤيد... تذكر ذلك يا خالد!

رد الدكتور خالد محتجا: «لقد هجرتُم الشام، وتركتوني في قصر ملعون يريد الجنُّ أخذه مني..على كلٍ هو لي.. هو حصتي من أملاكِنا، وسأهدُمه وأبني بيتا غيره في الروضة ليكون صغيراً على قدّي!».

* * *

في صباح مشمس، استيقظت حارة المؤيد على أصواتٍ لم تكن سمعتها من قبل، فقد بدأت جرافات كبيرة تزأر عند مداخل القصر، وتضربُ الجدران بعنف لتتساقط على الأرض، وكان المارةُ في الجسر الأبيض يراقبون المشهد بفضول واستغراب، ويسألون: لماذا يهدم الدكتور خالد قصر المؤيد؟!

في بيت فخامة الرئيس!

تأخرت موافقة مكتب الرئيس القوتلي على زيارة وفد حارة المؤيد التي طلبها ناظم الإيتوني نحو أسبوعين، كانت الجرافات تشتغل في قصر المؤيد بدأب، وكان يسمع صوتها إلى بيت الرئيس نفسه...

تجمع الوفد عند البوابة المهدمة للقصر، وغصّ كثيرون حزناً وهم يستعيدون صور جمالها الذي قضت عليه الجرافات بساعات. قطعوا المسافة بين بوابة قصر المؤيد المهدمة وبين بوابة بيت الرئيس، وتبلغ نحو مئة متر، سيراً على الأقدام. كانت أمطار تشرينية خفيفة ترشق أكتاف طرابيشهم ولفة الشيخ عبده وملابسهم الأنيقة والرسمية التي ارتدوها لتليق بحضرة رئيس البلاد.

تعثّر سعيد العطري مرتين وكاد يقع على الأرض، واندفع نحوه أبو مالك يساعده. قال العطري:

- منظر الخراب خربط توازني!

رحب بهم الرئيس بحرارة، وسأل بعضهم بأسمائهم عن صحتهم وتوقف عند مصافحة أبو نجوى أغريبوز، وسأله:

- الله زمان يا أبو نجوى. كنا شباب!

وضحك أبو نجوى، وهو يردد مع الرئيس:

- الله زمان يا شكري بيك. تعرفنا إلى بعض في حلب...

وهز الرئيس رأسه وسأله:

- إجا الصبي بعدين؟

فرد أبو نجوى:

- ألله ما أراد. صاروا ثلاث بنات!

ضحك الرئيس القوتلي، وربت على كتفه، وهو يردد:

- البنات رزقة كبيرة للدنيا والآخرة.

كان الموضوع الأول الذي طرحه الرئيس القوتلي على أعضاء الوفد، عندما جلسوا في أماكنهم، يتعلق بتهديم القصر، فالرئيس القوتلي يعرف أكثرهم، حتى إن قرابة تربطه بعدد منهم. رحب بهم، ثم قال:

- الدكتور خالد المؤيد لم يأت معكم. أين هو؟ الدكتور خالد صديقي. لم أشاهده منذ سنوات. قصره كان نقطة علام في الجسر الأبيض. فوجئت بما يفعله. شو القصة. الحارة حارتكم وأنتم تعرفون؟

وعقب على السؤال مازحاً:

- أخشى أن يْكونْ الدكتور خالد مع العقيد الشيشكلي، ولا يريدني جاراً له!

وابتسم الرئيس القوتلي بعد أن أنهى تساؤله، فابتسم جميع أعضاء الوفد حتى الشيخ عبده الخرسا ابتسم أيضاً، وكان سعيداً أكثر من المتوقع في هذه الزيارة.

جاء الجواب من سعيد العطري مشفوعاً بمقدمة صاغها بعناية تليق بمقام الرئيس:

- وجودُكم في جيرتنا شرفٌ لنا جميعاً ولكل الجسر الأبيض. وسمعتُكم العطرة يا فخامة الرئيس أضفت على سورية كلها فرحةً تشبهُ فرحة الاستقلال الذي شاركتم في صنعه...

كان الرئيس القوتلي يصغي لسعيد بك باهتمام، بانتظار إجابة واضحة، لكن سعيد بك اختصر الموضوع بعبارة غير مقنعة تتعلق بالدكتور خالد:

- يبدو أن الدكتور المؤيد أحب حي الروضة الجديد، فهناك سكن خالد بك العظم، كما تعلمون، وهو يحبه وهناك صداقة قديمة مع والده عادل بيك المؤيد رحمه الله، وربما يريد السكن هناك!

لم يقتنع الرئيس القوتلي بالإجابة. هز رأسه بحركة غير مألوفة. وألحّ على السؤال:

- لماذا هدّم القصر، ولم يطرحه للبيع مثلاً، فكما فهمت. سيترك كل شيء على حاله، سيتحول قصره إلى خربة!

فقال ناظم:

- لم يُخبر أحداً منا. نحن فوجئنا بالأمر.

فسأله:

- هل هناك مشاكل في حارة المؤيد جعلته يُقدم على هذا القرار؟

تدخل أبو مالك، وكان يجلس على يسار الرئيس القوتلي:

- لا. لا.. الحارة بخير. لا نريد أن نتعب رأسك يا فخامة الرئيس. البلاد بحاجة إلى وقتك وهمّك كافيك. في القصة لغطٌ كثيرٌ، ويقولون إن القصرَ مسكونْ، وأراد الدكتور خالد ألا يورط أحداً بشرائه!

ضحك الرئيس القوتلي، وأعاد الكلمة وهو يمطّ حروفها:

- مسكونْ؟! تقصدون بالعفاريت؟ سمعت ذلك ولم أصدق!

وتدخل الشيخ الخرسا:

- هو لم يوضح لنا تفاصيل ما حصل معه... يبدو أن شيئاً ما كان يؤرقه في هذا القصر، وكما تعلم فخامتك. قصره واسع. لا أحد يقيم معه. والبيوت الفارغة غالباً ما يسكنها الجان وهي كثيرة في الشام!

فرد القوتلي، متجاوزاً الفكرة، وكأن الكلام لم يرق له:

- أنا ضحكت لأني أعرف قناعات الدكتور خالد، حتى لو شاهد العفاريت لا يصدق أنهم عفاريت. غُربتُه في باريس وأوروبا غسلتْ دماغَه من معتقدات موجودة عندنا حول أمور كهذه!

وحرّك رأسه من جديد، وقال:

-لابد أن شيئاً ما حصل معه!

دخل موظف المراسم، وحنى رأسه، وهو ينظر باتجاه الرئيس القوتلي، يريد أن يوحي للضيوف بنهاية الزيارة، فقال الرئيس:

- دعنا قليلاً، فهؤلاء جيراننا، والله أوصى بالجار.

انسحب موظف المراسم، وساد صمت للحظات، وكأن الضيوف شعروا بالحرج، فإذا بالرئيس القوتلي يفتح موضوع الجان في الشام، قائلاً:

ـ قد تستغربون. إن قصص الجان والعفاريت في بلادنا كثيرة، وإذا كان الدينُ قد أقرَّ بها، فإنه لم يوضحْ إمكانية ظهورهم لنا، أو تفاعلنا معهم، وهذه هي النقطة التي يختلف حولها الناس!

هَمّ الشيخ الخرسا بالتدخل بالحديث، لكن الرئيس استدرك مبتسما:

- إلا في ألف ليلة وليلة.

والتفت إلى ناظم الإيتوني، وسأله:

- ألم تقرأ ألف ليلة وليلة ناظم بك؟

فرد بسرعة:

- بالتأكيد فخامة الرئيس بالتأكيد، وهي مليئة بقصص الجان والعفاريت فعلاً.

فتابع شكري القوتلي حديثه:

- الكنوز المدفونة في بلادنا أشعلت النار في نفوس الناس، وجعلتهم يبحثون عن كل الطرق التي يمكن من خلالها الوصول إليها. فالرومان والصليبيون وغيرهم ممن مروا على هذه الأرض طامعون وغادروها، دفنوا ذهبهم وأموالهم فيها. وكأنهم كانوا يتوقعون العودة إليها. صارت هذه الطمائر كنوزاً، والمغاربة فيما بعد أخذوا الخرائط منهم على أساس استعادتها ومقاسمة أصحابها، ومع الزمن رسم المغاربة قصصاً كثيرة حول الخرائط وربطوها بالجان، وقالوا إنها مرصودة كي يمنعوا الناس من نبشها. ومن يومها كثر الحديث عن العفاريت والجن والكنوز المرصودة في بلادنا!

كانت التفاصيل التي يوردها الرئيس القوتلي جاذبة وآسرة جعلت أعضاء وفد حارة المؤيد يصغون بانتباه، وسأل أبو صلاح الرئيس بعفوية:

- هل يمكن أن يكون الدكتور خالد بصدد البحث عن كنوز رومانية مدفونة تحت القصر؟!

فرد الرئيس القوتلي جاداً:

- تكلفة قصره وذكريات أسرته فيه أكبر من قيمة الكنز!

خجل أبو صلاح من سؤاله، لكن الرئيس القوتلي دارى ذلك الخجل بسؤاله في موضوع آخر:

- الحديث عن الوحدة مع مصر مفتوح. ما رأيك يا جار بوحدتنا مع مصر؟!

فاجأ السؤال أبو صلاح من جديد لكنه تغلب على ارتباكه قائلاً:

- كلنا مع وحدة العرب، لكن هل هي في مصلحة السوريين الآن...؟!

فرد الرئيس:

- ما الذي يجعلها في غير مصلحتنا. الاستعمار جاء إلى بلادنا وقسمها وأراد أن ينهب خيراتها، ويعطل صناعاتها، وأنا لا أخفيكم قبل أن آت بعد سقوط العقيد الشيشكلي كنت في الإسكندرية وشعرت أن كل المصريين يعتقدون أن الوحدة هي نوع من رد تاريخي على فرنسا وبريطانيا وإيطاليا الذين يرحلون عن البلاد العربية بعد سقوط زمن الاستعمار.

والتفت إلى سعيد العطري وسأله:

- سعيد بك، وأنت ماذا تقول؟!

- أوافقك طبعا. الناس تريد الوحدة يا فخامة الرئيس. استقلال سورية أشعل في الناس أشياء أكبر من الوطن. أقصد الأفكار القومية...

وتدخل أبو صلاح، وقد وجد الحديث سهلاً:

- إذا لم نتوحد مع مصر. الشيوعيون يأخذون البلاد إلى الكفر..

اهتم الرئيس القوتلي بعفوية أبو صلاح، فبعد أن حدق فيه قليلاً، هز رأسه موافقاً وابتسم. ثم وجه سؤالاً للشيخ الخرسا:

- نحن لم نلتق من قبل يا شيخ عبده. أعرف حساسيتكم أنتم رجال الدين وجماعة الإخوان المسلمين مع عبد الناصر. هل الوحدة خطوة موفقة؟!

وهنا رد الشيخ الخرسا محتجاً وبلغة لطيفة:

- عفوا فخامة الرئيس، يعني يا الكفار... يا عبد الناصر...

وضحك شكري القوتلي بصوت عال، ثم رد بهدوء:

- نحن لسنا أمام خيارين فُرضا علينا وينتظر العالم منا أن نختار. لا... يا شيخ. سماحتك تعرف أن مصلحة البلاد فوق كل شيء، ونحن نبحث أي الأمور في مصلحتها أكثر. الوحدة الآن مطلب مهم عند كثيرين وخاصة عند ضباط الجيش، ضباط الجيش يرفعون الصوت. يريدون الوحدة مع مصر، والقرار بشأنها يحتاج إلى حسم.

دخل موظف المراسم من جديد، فلم يطلب الرئيس القوتلي وقتاً آخر. أراد فقط أن يضع الحوار في نهايته، فقال:

- على كل حال. بلادنا اعتادت على أن يكون فيها آراء كثيرة. وأنا أعرف أن السوريين لايترددون بإبداء آرائهم في أي مشكلة كانت. أتعرفون لماذا لأنهم حريصون على بلادهم.. يحتاج الموضوع لجلسات كثيرة وأنا سعيد بزيارتكم لي... وكنت أتمنى أن يكون الدكتور خالد موجوداً، وأن يبقى جارنا في قصره الجميل...

* * *

كانت الأمطار قد غسلت منطقة الجسر الأبيض كلها، وعندما خرج أعضاء الوفد من الشارع الجانبي، الذي سيصبح اسمه لزمن طويل (جادة الرئيس)، شعروا أن البللَ طالَ ثيابهم، فما إن انعطفوا صعوداً نحو ساحة الجسر الأبيض حتى استعجلوا خطواتهم، وقال الشيخ الخرسا مازحاً:

- المطر رحمة من الله، فلماذا تستعجلون، وكأنكم تهربون منها؟!

ومضت السماء بالبرق، وتدحرج فوق منطقة الجسر الأبيض رعد مخيف، فازدادت الخطوات، وتحولت إلى ركض مع وابل المطر الكثيف، فركض الشيخ عبده معهم!

غرفة العناية المشددة:
حكاية الحكيم المجنون!

نام فادي بعمق!

عادت الحرارة إلى طبيعتها. كأن الجروح التأمتْ. اطمأنتْ فدوى. شعرَ حامد أن الأمور تتجه إلى الأحسن. أما مزنة، فقد التصقت بالسرير أكثر. كانت تسأل نفسها طوال الوقت ما الذي جعلها ترتبط بفادي على هذا النحو. هل كان عشقه لها سيستمر لو لم تتزوج. تزوج فادي منذ زمن طويل ولا تزال تزوره. صار عنده أولاد. صار عندها أولاد. أتكون تريد أن تأخذه من زوجته بعد أن توفي زوجها وهي التي تركت فادي من أجله.

نفضت رأسها. تريد أن تنتهي من هذه الوساوس. وضعت يدها على رأس فادي لتطمئن على حرارته. ارتاحت. حالته جيدة. طبيعية. قالت في نفسها «يا رب تشفيه». وقالت بصوت عال:

- مرتاح. إنه نائم كطفل صغير يحلم بلعبة!

«لعبة...».

وصلت العبارة إليه. عاد فادي طفلاً صغيراً يحتاج إلى لعبة وبيت صغير من علب الكرتون. لم تكن خربة قصر المؤيد سوى مكان لعبه المفضل. في تلك الخربة بنى بيتاً لديمة. وضع علب الكرتون فوق بعضها. أحضر لها لعباً كانت موجودة عند أخته فدوى. رتّب البيت. وضع له باباً. فتح نافذة على حارة المؤيد مثل قصر أيام زمان. اشتعلتْ روحه بدفء سحري داخل بيت الكرتون الذي تحيط به الأحجار والقاذورات.

آه يا ديمة. آه يا علب الكرتون. آه يا طفولة. آه يا حارة المؤيد. وكانت ديمة أشد فرحاً منه عندما انتهى بيت علب الكرتون. دخلا البيت. كان يشبه نفقاً صغيراً. كان يمكن أن ينهار عند أي نسمة هواء. طوّقته ديمة بذراعيها. كان ذراعاها طريّين ودافئين. قالت له أنت فادي وأنا ديمة. يعني أنت بابا وأنا ماما. وحضنته.

ارتفعت حرارة فادي. صاح فادي مثل المجنون:

- ديمة !!!!!!

هبّتْ مزنة لنجدته. دخيل روحك يا فادي. نهض حامد ثم ما لبث أن جلس. كانت فدوى تخرج سندويشات الجبن المسخن لها ولمزنة وحامد من الكيس بعد أن اشترتها من بائع قرب المستشفى. عندما ترامى صوت فادي في أرجاء الغرفة. اقتربت منه. عاد إلى النوم. اطمأنت. لاشيء يقلقها. اسم ديمة لايعني تدهور حالته. فعادت إلى السندويشات توزعها.

خرج فادي مع ديمة عند الظهر. عند الظهر تبدو ساحة الجسر الأبيض أحلى. طلاب المدارس. الباعة. الترامواي. باصات منطقة الشيخ محي الدين. باصات منطقة المهاجرين. السيارات. الناس. هذا يرتدي طربوشاً. وهذا يضع عمامة. وذاك يرتدي ربطة عنق مع الطربوش. ورجل مستعجل يرتدي قمبازاً وعقالاً. نسوة يرتدين الملاءات فلا يرى منهن سوى السواد... تظهر الصورة أمام فادي وتغيب. أخيرا ثبتت. صار كل شيء واضحاً. بين هؤلاء الناس ظهر المجنون.

لحق الأطفال بالمجنون. صفقوا. لحق بهم فادي. صفق معهم. كانت ديمة إلى جانبه. صفقت معه...

يوم شاهد المجنون. قال لأمه. مجنون يا ماما. مجنون عن جد. لحقتُ به. كانت معي ديمة. كان قريناه نذير وبشير المطامير يلحقان به. كان محسن صايمة يلحق به. صرنا نناديه: يا حكيم حكّمنا. يا حكّيم حكمنا. كان المجنون يركض وكأنه خائف منا.

حرام. قالت أم فادي. الجنون يافادي اختبار من الله للإنسان، اختبار يأخذ فيه الله من الإنسان شيئاً مما أعطاه. قال فادي ماذا أخذ الله من يا حكيم حكمنا. قالت عقله. ألم تلاحظ أنه لا يتصرف بعقل. قال فادي لأمه كان المجنون يهز رأسه ثم يقول اهربوا!!!!

غصّت أمه بالبكاء. قالت أتعرف قصة هذا المجنون. قال فادي لا. قالت أنا سمعتها من جد ديمة. ناظم بيك يعني. كان الحكيم دكتور قد الدنيا. كان يعيش بقصر كبير كبيرررررر ورسمت حجم القصر بيديها. أتعرف أين كان ذلك القصر. في الخربة التي أمام بيتنا.

صمتت كعادتها عندما تحكي قصة ما. تجعل فادي وفدوى وحامد ينتظرون. ثم تستأنف كلامها. استأنفت كلامها. يقولون إن اسمه خالد. درس ببلاد برا. عند الفرنساويين. كان أحسن دكتور بمستشفى الغربا. قال فادي ليش جن. قال فادي كيف. قال دكتور وجن. قال فادي. يعني أنا ممكن جن. قال فادي وديما!!!!!!....

أحس فادي بالبرد. وحْوَحَ. تذكر جاكيت الصوف الذي صنعته له أمّه بالسنارة. شرحت له كيف تصنع جاكيت الصوف. انظر يا فادي. لازم يكون معك سنارة باليمين وسنارة بالشمال. أمسكت السنارتين. قطبة إي. قطبة لأ. تلف الخيط حول السنارة، وتسحب السنارة الثانية وتلف الخيط ثم تدخل السنارة الأولى. هذه قطبة. وتكرر العملية. قطبة إي قطبة لأ.. ولم تعجب الفكرة فادي.

كان (الحكيم حكّمنا) يرتدي كنزة صوفية متل كنزة قطبة إي قطبة لأ. وسأل فادي أمه من جديد ليش جن. قالت أم فادي قصة طويلة. وقت الشمس بتغيب يا فادي. العتم بيخبي حكايات الناس. والليل برد وحكايات وأسرار. قالوا كان الحكيم ببلاد برّا. قالوا كَفَرْ. الكفار ببلاد برّا خلّوه يكفر. سلط ألله عليه الجن. جننوه. ياحرام ع ولاد العالم لما تضيع!

صمت فادي. كان يراقب أمه وهي تشتغل بالسنارة. وأمه صمتت. لم تعد تضيف شيئاً للحكاية. لكن الحكاية تبدأ عند الجن ولا تنتهي. كسر فادي الصمت. سألها والجن؟! ضحكت. قالت بسم الله الرحمن الرحيم كش برّا وبعيد. انتظر فادي الحكاية. لم تعد الأم تحكي شيئاً. قالت له وقت تصير كبيراً تعرف كل هذه القصص يا فادي. لكن فادي كان صغيراً. كان مع ديمة. وكان بشير ونذير ومحسن أطفالاً معه في الحارة... يتذكرون كل شيء. وقت لحقوا بالمجنون ياحكيم حكمنا. وسمعه فادي. سمع فادي الحكيم وهو يقول اهربواااا..

غَفَتْ مزنة عند سرير فادي. نامت بعمق. رأت الجسر الأبيض. أخذها فادي بيدها. أدخلها خربة قصر المؤيد. لم يحكِ لها قصة بيت ديمة الذي بناه من الكرتون. قال لها سأبني لك بيتا. أنا الأب وأنت الأم. قالت مزنة هذه يلعبها الأطفال الصغار. نحن كبرنا.. قالت مزنة البيت أحلى. ثم قلبت شفتها السفلى الصغيرة. قالت مزنة حبيبي فادي. أريد ألا يدخل أحد بيتنا. ضحك فادي. قال لها بيتنا. قال لها ندخل البيت ونلعب. وقالت له:

في بيتنا جن.

أقدمت فدوى على إيقاظ مزنة. قومي. نامي مليح. ارتاحي شوية. فتحت مزنة عينيها. سألت نفسها. لماذا أوقظتني. قالت فدوى. نامي ع

الصوفاية. وذهبت لتنام حيث قالت لها فدوى. استلقت. نامت. لم يأت فادي. ضاعت علب الكرتون. اختفت خربة قصر المؤيد. تغير كل شيء. تراجعت عن النوم. أرادت أن تستعيد الحكاية وهي مستيقظة. حضنها فادي كشاب كبير. قال لها أنا بابا وأنت ماما. ضحكت مزنة. قالت: فادي شيطان. جنيّ. لم يسمعها حامد. لم تسمعها فدوى. سمعها فادي.

كان فادي يلح على أمه أن تحكي الحكاية. قال لها. أنا صرت كبيراً ماما. احكي لي قصة الجن. وحكت له. قالت إن نساء حارة المؤيد سحرت الحكيم. كل واحدة كانت تريده لابنتها ولا تريد المرأة الفرنسية. شاب غني وقصر سياح نياح. كل ذلك أغراهن فوضعن له السحر عند البوابة الداخلية للقصر. كل واحدة أرادت أن يقع الحكيم في هوى ابنتها ويتزوجها. واحدة منهن استعانت بالجن عليه. طلبت من الجن أن يعشق الحكيم ابنتها. أرسل الجن إليه جنية تشبهها. صارت تأتيه عند المساء مثل أميرة. وكان ينسى أن يقول بسم الله الرحمن الرحيم. فعشقها، عشق الحكيم الجنية. فجننته، وكانوا يقولون صارت الجنية زوجته. لم تستفد النساء من سحرهن ولا شياطينهن.

سألها فادي من أخذ القصر. قالت لم يأخذ القصر أحد. هدّمه. قال فادي كيف. لماذا هدم القصر. يعني هدم الحكيم حكمنا بيته بيده. قالت أمه لا. الجنية قالت له إهدمْ القصر لنسافر. هدم القصر. واختفت هي. وجن هو. قال فادي لماذا لم يتزوج من فتيات حارة المؤيد. قالت أم فادي. الله أعلم. نحن لا نعرف. يقولون إنهن كن يتزوجن ويبقين في الحارة أو قريبا منها إلا واحدة. سألها فادي من. قالت اسمها نجوى. أحبت ابن الحارة. زوجوها إلى حلب ويقولون إنها ماتت بالسل.

الكنز!

حصل ذلك عند الصباح الباكر...

لم تكن الشمسُ قد طلعتْ تماماً. كان الجسرُ الأبيضُ هادئاً إلاّ من حركةٍ بطيئة لطنبرٍ الخضار والفواكه الذي يتجهُ نحو منطقة العفيف. حمّله صاحبه أكثر من طاقته، فصار البغل يترنح وتزحط حوافره على الأرض وصاحبه يضربه ويصرخ:

- دي. ديوس ولكْ. دي.. ترررررْ.

كانت حركة نقلِ الخضار تتم باكراً من جانبين، الأول من طريق الجبة إلى الجهة الشرقية والثاني من طريق العفيف حيث تتجه الطنابر عادة لتدخل سوق الشيخ محي الدين الشعبي المعروف بسوق الجمعة.

لمعت سكة الترامواي مع خيوط الصباح الأولى إثر موجة مطر خفيف غسلتها وغسلت الطرقات المتفرعة من ساحة الجسر نحو الروضة والشيخ محي الدين والطلياني والمهاجرين. وكان جامع الجسر قد أُغلق أبوابه بعد انتهاء صلاة الصبح، فراحت عشرات الستاتي تتوزع عند بابه وعلى الطرقات القريبة تبحث عن رزقها باطمئنان.

راقب الدكتور خالد معركة صاحب الطنبر مع البغل بعفوية طفل، ثم فطن لهدف ما في نفسه. كان هناك رجلان كهلان بعيدان يقفان عند الفرن يشتريان خبز المرقد، ومن جهة الطلياني كان هناك حركة توحي بأن أولَ حافلةِ ترامواي شقت طريقها صعوداً كالمعتاد...

وضع الدكتور خالد حقيبة سفر صغيرة على الأرض، وتفقد شيئا ما في كيس كبير يحمله بيده اليمنى، ثم عاد وحمل الكيس والحقيبة وانحدر سريعاً باتجاه حارة المؤيد ليدخل إلى خراب قصره الذي أنهت الجرافات خرابه قبل يوم واحد فقط!

وضع الحقيبة والكيس بجواره. وقف بين أكوام الردم. كشفته أضواء الصبح الأولى وحيداً في خربة كبيرة. كان مشهداً مروعاً أن يقف الدكتور على هذه الصورة وكأنه قائدٌ عسكريٌ مهزومٌ. اشتعلتْ عيناه بأسئلةٍ كثيرةٍ وحزنٍ كبيرْ، وفجأة انهارتْ ذاكرتُه بين الركام، فشاهد تفاصيل كثيرة من حياته تمر كشريط سينمائي سريع...

جال نظرُه على محيط قصره. هاهي حارة المؤيد. الحارة التي عاش معها طويلاً، ولم يتمكن من كشف أسرار بيوتها وسكّانها. كان قريباً منها وبعيداً عنها في وقت واحد. تراءت الحارة أمامه مكشوفةً تماماً للمرة الأولى: جدران بيت عبد ربه المحاذية لقصره المهدم لا تزال تحجب أسرار أسرة اشتهر ربُّها أبو مالك بتجارة العقارات وتأجير البيوت وبفصاحة أولاده. بانت بعض أعمدة الخشب من الجدار الغربي. سأل نفسه «هل هذا هو الحاجز الذي كان يفصله عن قصرنا».

برزت صورةُ مالك أمامه. لم ينسَ أبداً صداقةَ مالكٍ لأخيه الصغير محمود. فمالك رغم الفارق بينهما من جهة العمر كان يثير إعجابه، ويتمنى لو أن له في حارة المؤيد أصدقاء مثله. قال في نفسه: «كان مالك على الرغم من صغر سنه مثقفاً يعرفُ الكثير عما يجري في البلاد. كان متعدد الاهتمامات. ميالاً للسفر والتعرف إلى العالم». تراجعت زيارات مالك لبيتهم، ثم توقفت نهائياً بعد حادثة أبيه. كان محمود قد سافر إلى باريس مع محمد ياسر لكنه

عاد، ليقتله مرض السل وهو في مقتبل العمر في مستشفى ابن النفيس بركن الدين وحيداً يبحث عن هواءٍ نظيفٍ.

كان محمود ومالك يحكيان لخالد عن آخر الأفلام التي تعرضها دور السينما في دمشق، وكان مالك يحكي له عن أخبار الفن والسياسة من الصحف التي يقرؤها كل يوم، وكان فرحاً بصداقة أخيه لشاب من هذا النوع، لكن الأقدار لم تمش كما يريد. الأقدار مشت كما تريد هي، فمات محمود ولم يعد يرى مالكاً. وبقي محمد ياسر في باريس. وفجأة وجد الدكتور خالد نفسه في لعبة تحد مع الجن خربت بيته!

راقب أنحاء الخربة جيداً، ثم عاد ليدقق في حارة المؤيد. كانت تفوح منها عند الصباح رائحة الصندل والبخور، وكأن أحداً يقيم طقوساً ما في هذه الساعة من الوقت. ظهر عمق الحارة معتماً. اللمبة المتوهجة الوحيدة المعلقة على عمود خشبي عند زاوية بيت الإيتوني، كانت تبص دون أن تتمكن من كشف تفاصيل الحارة كلها. ومن جهة جبل قاسيون كانت عتبة الحارة تكشف مساحة واسعة تتاخم الجسر الأبيض وإطلالة جبل قاسيون السحرية التي كان يراها من غرفة أبيه القديمة في الطابق الثاني.

في طرف الخربة التي تحكي قصة قصره الكبير، وبمعول صغير تركه العمال بين الأحجار حفر الدكتور خالد حفرته السرية التي ستضاف إلى قصص حارة المؤيد والجسر الأبيض. خطط لها منذ لجوئه الليلي إلى بيت شقيقته هدباء. كل قراراته اتخذها سريعاً، وكأنه على موعد مع حدث كبير. وأسرع القرارات كانت تتعلق بتلك الحفرة!

كان التراب طرياً. عرف الدكتور خالد أنه تراب الحديقة التي نبتت فيها شجرة المانوليا وقد خلعتها الجرافات. تذكّر، وهو يحفر ما قاله أبوه إن شجرة

المانوليا بعمر محمود، ومات محمود ومات أبوه وماتت أمه ولم تمت شجرة المانوليا إلى أن اقتلعتها جرافة الهدم التي رسمت خطا جديداً لحياته!

بلغَ عمقُ الحفرةِ أقل من نصف متر. لم يكن يشعر بالتعب. كانت حبات العرق تتلاحق على خديه. حدّق فيها محاولاً التأكد من كفاية عمقها. نظر حوله متفقداً المكان. وضع الكيس والحقيبة فيها وطمرهما في التراب، ثم رمى أحجاراً كثيرة فوقها، وتراجع عدة أمتار ليحدد المكان ومحيطه، وغادر بسرعة وسط ضجيجٍ تعالى فجأة لحافلة تراموای تنزل مع عدد قليل من الركاب من جهة المهاجرين.

بعد نحو ساعة عاد الدكتور خالد إلى المكان، وأحضر عدداً من العمال وأمرهم بتكديس حجارة القصر فوق الحفرة التي طمر فيها الكيس. شرع العمال ينقلون الحجارة ويكدّسونها كما أمرهم، فصارت كومة كبيرة أعلى من الأكوام الأخرى من حجارة القصر المهدم، وعندما اطمأن إلى خطته، شكرهم وغادر المكان.

كانت الخربة خالية عندما غادرها، وكانت نوافذ الحارة مغلقة مع النسمات الباردة التي صنعها المطر الخفيف. وفي الطريق قال بعض المارة الذين صادفوه وهو يقطع ساحة الجسر الأبيض باتجاه العفيف «إن ثيابه ويديه كانت متسخة بالتراب، وإنه كان يمشي والدموع تنهمر من عينيه»، وسأل أحدهم: بصوت عالٍ: شو القصة يادكتور خالد؟ خير؟! فلم يسمع رداً...

كان أذان الظهر قد حل. ومع صوت الأذان عاد المطر أقوى من مطر الفجر. أضحت الحركة في الجسر الأبيض أكثر حيوية من الساعات الأولى لذلك الصباح. وكان المارة يركضون مسرعين تحت وابل المطر الذي انهمر. كان بعضهم يحملُ مظلات سوداء، وكان آخرون يضعونستراتهم فوق

رؤوسهم، وبين المارة كان هناك من يضع أكياسا من الورق تحاشياً من أن يبلل المطر رؤوسهم، وكان آخرون يمشون بلا مبالاة، وكأنهم يتقصدون المشي تحت ماء السماء الخيّرة.

أمطرتْ كثيراً... كثيراً... ابتلّتْ ثيابُ الدكتور خالد وقد قطع المسافة إلى سوق الشيخ محي الدين سيراً على الأقدام. كان يمشي شارداً يستعجل أحياناً، ثم يعود ويمشي ببطء. دخلَ من جادة البسام في منتصف الطريق إلى العفيف، توجه نحو بساتين الجُبّة، ومن هناك عبر زقاق النواعير مستعجلا يقصد جامع الشيخ محي الدين...

كان متعباً، قلقاً، يمكن لكل من يشاهده أن يطرح الكثير من الأسئلة لمجرد أن يرى تعابير وجهه. بدا نحيلاً رغم جسده المكتنز الطويل. تبللت ثيابه بالمطر وتبعثرت خصلات شعره. وعند عتبة بوابة الجامع جلس على رخامة الحافة وخلع حذاءه ودخل إلى صحن الجامع، وكأنه جاء بمهمة ضرورية ومحددة وكانت حبات المطر تتساقط من رأسه وثيابه المبللة.

توضأ ومسح وجهه بمحرمة بيضاء كان يخفيها في جيبه، ونزل إلى ضريح الشيخ محي الدين، وعند القبر جلس عند رأس الشيخ كعصفور وقع في حلّة ماء. راح يخاطب القبر، وهو يرتجف من البرد، وكأن الشيخ أمامه!

لم يلتفت الزوار القلائل إلى الدكتور خالد وحاله، فكثير من الناس يأتون بين يوم وآخر، ويجاورون القبر ويقرؤون القرآن، أو يرددون بعض الأدعية، لكن أحداً منهم لم يخاطب القبر بهذه الطريقة!!

تكررت زيارة الدكتور خالد لقبر الشيخ محي الدين يوما بعد يوم. كان يأتي من بيت أخته في حي الروضة إلى الجامع، من دون أن يمر بحارة المؤيد، وكان يتجول في السوق، ويعود عندما يتعب.

في آخر مرة نام فيها في بيت هدباء، أخبرها أنه لن يعود، وأنه سينام في مكان خاص به، وقالت هدباء:

- إعتقدت أنه سيعود للنوم في الفندق، وأن ذلك قرار يريحه، لكنه لم يعد يأتي أبداً إلى بيتي، ولم نجده في الفندق عندما ذهبنا نسأل عنه!

اختفى الحكيم في منطقة الشيخ محي الدين. ظنوه مبروكا. تغيرت ملامحه، فضاع. صار يأكل من الطعام الذي يوزع يومياً على الفقراء، خادم الجامع يشفق عليه، ويأتيه بسطل صغير من الشوربة واللحم، فيأكل لقمة أو لقمتين ويعيده إليه، وينزل إلى قبر الشيخ فيجلس هناك ويحكي مع القبر!

نحل جسمه، وغارت عيناه في محجريهما. طالت ذقنه واتسخت ملابسه، وصار من الصعب التعرف إليه. لم يعد شكله يوحي أنه الدكتور خالد المؤيد. صار شيئاً آخر...

لاحظ المارة بعد أيام أنه يحدث نفسه بصوت عال، وسأل كثيرون عنه، فمن يكون هذا الدرويش الذي اقتحم سوق الشيخ محي الدين فجأة. لم يتعرف إليه المارة ولا سكان البيوت القليلة التي تسلقت الجبل شمال الجامع. دقق الأطفال في العبارات التي كان يحدث نفسه فيها. كان يقول:

- أنا الحكيم. أنا الحكيم ومالي دوا!

أطلق عليه المصلّون لقب (المبروك)، لكن الأطفال كانوا أقرب إلى الواقع في تسميته، فقد سماه أطفال السوق:

يا حكيم حكمنا، وصاروا يركضون حوله، وينادون: ياحكيم حكّمنا، ياحكيم حكمنا. وكان الحكيم يصيح بهم بصوت عالٍ:

- اهربواا. اهربواا.

لكن أحداً لم يكن يهرب!

داخت نجوى من قبلة!

لم تعد القطط السوداء تظهر في حارة المؤيد. ولم يعد الشيخ عبده الخرسا إلى الحديث عنها. تراجعت حكايات الجن، وحلّت حكاية واحدة بدلاً منها.

تقول الحكاية: إن جنّياً جاء إلى حارة المؤيد يبحث عن بيت يستأجره ليسكن فيه، فطلب منه أبو مالك عبد ربه أجراً عالياً، فاستغفر الله وعاد من حيث جاء.

صارت حكايات الجن طرفة زادت النسوة عليها تفاصيل إضافية، وعندما حكت ملك عبد ربه لأخيها آخر ما حل بحكاية الجني. ضحك، وقال لأخته:

- الحياة مجموعة تفاصيل يبتكر الناس الجميل منها..

وبعد أن صمت قليلاً، ورأها تنتظر أن يتابع فكرته، قال:

- حتى المأساة يمكن أن تحول التفاصيل إلى حكاية مسلية!

خرج مالك من حارة المؤيد، يحمل مظلة سوداء، نظر في ساعته مرتين، وعندما لمح أبو صلاح في دكانه رمى التحية عليه، ثم اتجه نحو مكتبة الحمصي ليقرأ عناوين الصحف، وهناك وجد عدداً من العمال يجلسون عند حافة محل مغلق بجوار المكتبة، فقال له أبو أنس:

- تفضل أستاذ مالك. اطلع على الصحف عندي. خفتُ أن تبتل الصحف، فلم أعلقها على الشبك.

ثم سأله:

- ما الذي يجري في حارتكم يا أستاذ مالك؟

- خير؟ سأل مالك، فرد أبو أنس:

- الناس مشغولة بشكري بك القوتلي وبدعوات عبد الناصر لوحدة العرب والدكتور خالد هدّم القصر واختفى، وهؤلاء العمال الذين طلب منهم جمع الأحجار في الجهة الشمالية من الخربة، تركهم منذ أسابيع ولم يدفع لهم أجرتهم!

تدخل أحد العمال، وقد سمع الحديث:

- الدكتور خالد لا يقصر. نقلنا الحجارة كما طلب منا. لكن نحن لا نعرف ماذا نفعل. ومتى يعود!

ضحك مالك، ووعدهم:

- لن يضيع عليكم شيء. والتفت إلى صاحب المكتبة ضاحكا، وقال:

- أبو أنس يعطيكم إذا تأخر الدكتور خالد.

رد صاحب المكتبة:

- أنا سدّاد!

اشترى مالك صحيفة المضحك المبكي. طواها، وفتح مظلته، انتظر ثواني كي تمر حافلة الترامواي التي قطعت عليه الطريق، ثم عبر الشارع باتجاه الرصيف الآخر، وكأنه على موعد ما!

في إحدى حارات الجسر الأبيض الفرعية القريبة من الروضة التقى نجوى أغريبوز. كانت تسير وحيدة تحمل مظلة سوداء شبيهة بمظلته. قال لها، وقد تواجها على الرصيف:

- إلى أين رحلتك يا غزال؟

فردت نجوى:

- أنا في الطريق لبيت رفيقتي...

واستطردت، وهي تحاول الخروج من إحراجها:

- أختك ملك سبقتني ع الحارة! فقال:

- لاتخافي ع ملك. رح تعطينا وقت لنحكي.

- ليش عندك حكي؟!

- كتير...

صمتتْ، فصمتَ مالك. كل منهما ينتظر كلاماً من الآخر. نجوى كانت أكثر شوقاً لكلامه. لذلك ترددا في الخطوة التالية، فكيف يبدأ الحديث؟...

كانت تمطر، والمطر يزداد. كان مالك يفتح مظلته. وكانت نجوى تفتح مظلتها. وكان على أحدهما أن يغلق مظلته ليمشيا معاً، أو فإن المظلتين المفتوحتين ستعيقان مشوارهما القصير ذاك. قال مالك:

- ينبغي أن يطوي أحدنا شمسيته!

ضحكتْ. وردت:

- يجب أن نبقى بعيدين عن بعضنا. الشماسي مُحُرَمْ بيننا!

وضحكا معاً. وعلّق مالك:

- إذا مشوارنا حلال.

وأطبق مالك مظلته ومشى تحت المطر، فقالت:

- حتى لو غرقت بالمطر ما رح غطيك بالشمسية.

ووجدت نفسها تغطيه، فتلاصقا، واكتشف مالك أنها أطول منه، لكنها أكثر دفئاً وطراوة مما كان يتوقع، فهمس:

- نجوى. أنا بجن فيك!

ارتجف جسد نجوى لهذه العبارة. تورد خدّاها. قالت تمزح:

- خليك بعقلك. فقال:

ـ عقلي عندك...

تشاغلت بموضوع آخر:

- هل صحيح جَن الحكيم وضاع؟

فقال محتجاً:

- أنا الذي جنيت فيكِ. قلتْ لكِ أنت لي... قولي شيئاً!

ردت تمازحه:

- وأنت لمين؟!

أمسك يدها التي تحمل الشمسية، وأجابها بسرعة:

- لكِ! ضحكت بسعادة، وهمست:

- اتفقنا. بس ما تكون عم تلعب!

استمر مشوارهما دقائق، مرّا خلالها بالحارات الداخلية في حي الروضة، ثم رجته أن يبتعد لأنها ستعود إلى البيت، فوافق. وقال:

- اليوم عند غروب الشمس أراك ع السطح فوق...

فقالت تمازحه وقد اتسعت ضحكتها عن أسنان بيضاء ناصعة:

- فوق. فوق!!

* * *

تذكرتْ مزنة كلام فادي. فوق. فوق. فادي قال فوق. فوق. يارب فادي يتذكر. كان فادي قدّ الصوص. كانت مزنة قدّ طابة البينغ بونغ. جدار واحد بين بيت مزنة وبيت فادي. قالت مزنة تعال إلى السطح. لم يكن فادي يحب السطح. سألها فوق فوق. قالت فوق فوق. قال مئذنة جامع الجسر أحلى. قالت يوجد ستاتي على سطحنا. قال يوجد حمام في مئذنة الجامع. وأخيراً أقنعته. أنا طالعة. إذا لم تطلع لن أحكي معك. ورضيَ فادي. قال لها. سأطلع. أكيد سأطلع. شاهدته أمه. رفع النافذة نحو الأعلى. كانت النافذة تطل على بيت شكري القوتلي المغلق. ومنها يمكن الخروج إلى سطح الفرن، ثم يمكن الصعود إلى سطح بيت مزنة على سلم من عشر درجات.

كانت مخاطرة. قالت له أمه سُلم الخشب لا يصعد عليه الصغار. لكنْ مزنة تزعل. صعد الدرجة الأولى والثانية بسهولة. بخمس درجاتْ أحسَّ أنه سيهوي فوق سطح بيت الرئيس القوتلي. أحس بدوار. أمسك الدرجات العالية. لم يعد ينظر إلى تحت. راح الدوار. مزنة تنتظر. صعد الدرجة السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة. أمسك بالحافة. قفز فإذا هو على سطح بيتهم المجاور لبيت مزنة.

كانت مزنة تنتظر. مزنة طفلة حرونة. كادت تقلب شفتها السفلى لو لم يأت. لم تقلب شفتها. ضحكت. جاء فادي. وقفا. بينهما كان هناك جدار من الخشب والطين. كانوا يلصقون الطين على أعمدة من خشب فيصبح مثل الجدار. قال فادي أنا طلعت على مئذنة الجامع. شاهدت الحارة والجسر الأبيض. شاهدت جبل قاسيون.

استمر اللقاء نصف ساعة. حكى فادي وحكت مزنة. حكي مثل حكي الحمام. فجأة ترامى صوت من تحت. صوت فيه خوف. فادي. فادي يْ. فادي يْ يْ.. كان صوت أمه. فادي خاف. رد من فوق. ماما. ماما. قفزت الأم إلى سطح بيت

القوتلي ونظرت إلى أعلى السلم. وجدته ينظر من فوق. ويكاد يهوي. صاحت. خليك فوق. خليك فوق ياعمري. وصعدت إليه وأمسكته. مثل الحمامة عندما تحمل فرخا من فراخها. نزلت ونزل معها. وبقيت مزنة وحدها تختبئ وراء جدار الطين.

* * *

فوق. فوق.

التقى مالك عبد ربه نجوى أغريبوز، في المكان نفسه، قبل أكثر من خمس سنوات من لقاء فادي مع مزنة. يتذكر مالك كل شيء. ونجوى لا تريد أن تتذكر لأنها تخجل. مالك هو من وضع السلم على السطح. جاء به من الجهة الأخرى. صعد قبل غياب الشمس بساعة ونصف الساعة. راح يرقب جبل قاسيون. ثم تذكر خربة المؤيد. يا ألله... عاد إلى الجهة الغربية من السطح. نظر من فوق. كانت خربة المؤيد واسعة مليئة بأكوام الأحجار.

تذكر أيام القصر. كان يلتقي محمود المؤيد فيه. ياله من قصر جميل من الداخل. كان يشرب مع محمود حليباً ناشفاً طيباً، وأحيانا يضع الحليب الناشف في فمه. قالت له أمه ماما بيت المؤيد أكابر. تذكر كلمة أكابر. أمه كانت تدعو نساء الحي إلى الاستقبال. النساء كن يقلن عن أم مالك أكابر. وكانت أم خالد المؤيد تأتي. امرأة جميلة شعرها أبيض مخلوط بالأسود. لم تكن ترتدي منديلاً ولا إيشارباً. كانت أم مالك ترتدي إيشارباً جميلاً مربوطاً بعناية عند العنق.

حكى لأمه عن جمال القصر وغناه. وأمه حكت لأم نجوى. وأم نجوى قالت: بيت المؤيد عندهم ثلاثة شباب. وأنا عندي ثلاث بنات. ضحكت أم مالك. قالت لها الزواج قسمة ونصيب يا أم نجوى.

سمع مالك حركة على سطح بيت أغريبوز. التفتَ. شاهدها. يالها من قامة ساحرة نجوى أغريبوز. أقلع عن التأمل بخربة بيت المؤيد. راح إليها. شاهدها

للمرة الأولى بثوب بسيط. لم يكن الثوب فاضحاً. كان يرسم كل شيء في جسدها. وخاصة عند الصدر. صدر نجوى شهي. كرتان بحجم قبضة اليد تدفعان الثوب فترسمان عليه دائرتين شهيتين. فم ضاحك بأسنان بيضاء. شعرها الفاحم. عيناها البنيتان مثل فراشة البراري. ركض من طرف السطح إلى طرفه الآخر. وكانت نجوى تضحك. سألته من كانت في الطرف الآخر. رد بذكاء أنت. سألته يعني أنا في الخربة. رد بذكاء. في الخربة كانت شجرة المانوليا. وكان قد وصل إليها وتواجها. قال رائحتك مثل رائحة شجرة المانوليا.

فاحت رائحة لا يعرف أحد مصدرها. كانت خليطاً بين الياسمين والمانوليا. اشتعلت أحاسيس مالك. قال لها: أنا الآن في أول طريق الجامعة. هل ستنتظرين. ضحكت. قالت له: أنا الآن في الصف العاشر. هل تنتظر. ضحك مالك. قال: أنت لي. سألته وكأنها تعيد المشهد: وأنت لمن. وسريعاً أمسك يدها. كان جسدها أعلى من الحائط الطيني. وكان جسده أعلى من الحاجز الطيني. وجذبها نحوه بقوة وعنف.

قالت نجوى لشقيقته ملك بعد شهر، وهي تحكي لها القصة:

- لا أصدق كيف أمسكني. كأنه غريق وتعلّق بمركب.

وحذرتها ملك:

- هذا شيطان احذري منه!

وسألتها:

- وبعد. ماذا فعل؟

قالت نجوى وقد توردت وجنتاها:

ـ لا أعرف وجدت فمي ملصوقاً بفمه، ثم دختْ!

رقصة نجوى أغريبوز المريبة!

خلال أكثر من أسبوعين سجّل أبو صلاح البوشي في دفتر يومياته خبراً واحداً فقط في عدة أسطر يقول:

«انشغل الناس بصداقة عبد الناصر وشكري بيك. ونحن أقمنا عرساً مطنطناً لابني مجيد على رضوى ابنة الشيخ عبده الخرسا، وتمت الأمور على خير، وسيسافر ابني مجيد مع عروسه إلى الرياض خلال أيام إن شاء الله...».

لم يسجل أبو صلاح تفاصيل العرس ومجرياته، ولم يسجل شيئاً عن التداعيات التالية له، والتي ربما كان يجهلها. اكتفى بما كتب، فقد جمع العرس الحارة في حفلة واسعة وأثار أحاديث وذكريات عنها.

تدخّل الشيخ عبده في شكل العرس وتفاصيله: هذا حلال، وهذا حرام. كان بطبعه حشرياً لا يسكت عن أي شيء يعارضه، فكيف إذا كان الشيء يخصه، ويتعلق بمسائل شرعية!

كان يتحصّن حول الرأي الذي يقوله، حتى اللحظة الأخيرة. ثم لايلبث أن يتعامل بليونة وأريحية، وأحياناً يتراجع عن رأيه المتعنت بطيبة خاطر. والغريب أن ابنه عبد الرزاق يحذو حذوه، فهو يتشدد حول ما يطرحه أبوه، ثم يعود بدوره ويتراجع عنه عندما يتراجع عنه أبوه...

أما شركته مع أبو مالك عبد ربه في بعض العقارات في الشيخ محي الدين والعفيف، فلم تنجُ من مزاجيته وكثيراً ما اختلفا، لكنهما ظلّا معاً لأن الشيخ عبده كما يقول أبو مالك: «أمين وطيب وحقاني، وإلا ما كان سعيد بيك شاركه قبلي في تجارة العبي!».

تدخل الشيخ الخرسا في كل ما يتطلبه العرس من طقوس، فوافق على سفر رضوى مع مجيد بعد العرس إلى الرياض، وكان قنوعاً في مهر ابنته، كريما في تحمل التكاليف. إلاّ أنه تشدد في التفاصيل، فدخول العريس على النساء ليجلس على كرسي (الآسكي) إلى جانب العروس، لم يرق له أبداً، فرفضه، ورفضه ابنه عبد الرزاق أيضا بشدة، وقال بصوت عالٍ: لا يمكن أن يحصل هذا الشيء!

وعندما سمع مالك عبد ربه بذلك ضحك وقال:

- الله يعينك يا أبي كيف تحمّلت شراكته؟!

والقصة كما يرويها الشيخ عبده نفسه أن ذلك يدخل في الحرام، وقال:

- هذا اختلاط لا يجوز شرعاً، فكل النساء سافرات في جو العرس، وأنتم تعرفون مثل هذه الأجواء، فكيف سيدخل العريس على النساء ليجلس على البطيخ... (الآسكي)؟!

وأضاف مستغربا:

- هل نسيتم أن النساء نساؤكم؟!

وسأله صهره مجيد:

- يا عمي. في هذه الحالة أين سأجلس مع العروس؟!

فضحك الحضور، ولم يتراجع الشيخ عبده، ولم يضحك على سؤال العريس، أما عبد الرزاق، فامتعض من سؤال العريس، وقال محتجا:

- وهل كان الآسكي والرقص والفقش على زمان الرسول صلى الله عليه وسلم!

فصمت مجيد. ورضي الجميع بقراره، وهو قرار لاقى أشد الغضب عند كل المدعوات اللواتي عرفن أن مكان العريس على **(الآسكي)** سيبقى فارغاً ولن تجلس عليه سوى العروس. وتعالت أصواتهن:

- يعني نحن رايحين على مأتم لا سمح الله!

تجمعتْ الفتيات حول رضوى في المربع التحتاني من بيت الشيخ، وعلى الرغم من اتساع مساحة المربع، اضطررن إلى ترك الباب مفتوحاً على أرض الديار لكثرتهن، ومع سخونة العرس أقيمت حلقة الرقص خارج المربع وتحدّت الفتيات بملابسهن المكشوفة، النسمة الباردة التي كانت تتسلل من بين الأشجار وأصص الزريعة الكثيرة في البيت...

صارت الفتيات ينادين بعضهن للرقص بفرح زائد، فتستلم هذه من تلك، وتقوم الثانية بتسليم الرقصة لمن تريد، وهكذا.

كان الخوف يجتاح رضوى وأمها من أي تدخل مفاجيء للشيخ قد يمنع الغناء والزغاريد، أو يسحب الدربكة من يد الفتيات، فيفسد العرس. وفي النهاية، تغلبت سهرة الفتيات على هواجس أم العروس.

نهضت ملك عبد ربه لترقص. كانت ترتدي ثوباً من الساتان السماوي موشى بخيوط زرقاء وتزينه حبات من الخرز في أماكن الصدر والنحر. وفي رسغيها خشخشت أساور الذهب الخالص، أما عند عنقها، فقد تحلّت بطوق ألماس أعطته لها أمها قبل العرس.

تقصّدتْ ملك أن يكون رقصُها دوراني الشكل لتكشف جمال ثوب الساتان وسعته، فدارت عدة دورات، ثم غنت كبقية الفتيات:

أول عـــشرة محبـــوبي هـــداني خـــاتم ألمـــاس

وهو قصدي ومطلـوبي وهادا اللابق بين الناس يا عيني

وقفت مطولا عند الآسكي الذي تجلس عليه رضوى وحيدة. ورقصت للعروس أكثر من دقيقة وزغاريد أمها ترافقها فتشجعها. بعدها اقتربت ملك من نجوى، وكانت تجلس في جهة العروس، ظنّت الفتيات أنها ستسلمها الرقص، لكن ملك غمزتها واقتربت منها، ثم همست شيئاً ما، وعادت إلى موجة غناء ورقص:

منـديلك أحمـر وردي زاهـــي بلـــون الـــورد

وإيمتى بتجي لعنـدي تـشيلك فـوق الـراس يـاعيني

أخيراً، أمسكت ملك بيد نجوى ودعتها للرقص، فنهضت نجوى. كانت متفتحة كوردة شامية، فرحانة أكثر من العروس، بدت أكبر من عمرها بعدة سنوات نتيجة الماكياج الذي وضعته، رقصت فتوهج وجهها بحمرته المعتادة مع ضحكة واسعة مغرية.

كان ثوبها زهريّاً، يفيضُ إغراءً بلونه الساحر وبما أضافته من حبات الخرز الأحمر والخمري التي وُزّعتْ على صدره المحفور ليكشفَ عن ثديين فجيّن، وكان الثوب ضيقاً، بعكس ثوب ملك، فرسم ملامح جسدها الطويل البض. وغدت حركاتها أكثر إثارة للفتيات اللواتي يراقبن الأثواب بعناية.

دارت نجوى بين الفتيات. رقصت، وغنت:

بيدوب جسمي كل ما تجي على بالي كما يـدوب الحـصى بـين الجبـال

اسـألوا المبـتلي لاتـسألوا الخـالي اسـألوا الثريـا والـسبع نجـمات

ونجمـــة الـــصبح تنبـــيكم بحـــالي

تلاقت عينا نجوى مع عيني ملك، فضحكت ملك. ولاحظت سعاد دك الباب وهي من الفتيات المدعوات القادمات من المهاجرين هذا التناغم بين الفتاتين فقالت لفايزة الإيتوني التي تجلس بجوارها:

- بين نجوى وملك سر كبير لا أحد يعرفه غيري!

لم تلتفت فايزة إليها. كانت تصفق. ابتسمت. ثم غيّرت مكانها... أما نجوى فقد وصلتها العبارة مباشرة، فسيطر عليها شيء من الغيظ، ومع ذلك استمرت في الرقص ومراقبة حركات سعاد، التي ما انفكت تعلق وتهمس وتوحي بأن هناك شيئاً ما، فاقتربت منها، وسألتها:

- أنت سعاد دك الباب... مزبوط؟!

وأمسكت بيدها تشدها وتضحك:

- هيا. قومي للرقص، وبلا كترة حكي!

هزّت سعاد رأسها موافقة، وتقبلت العبارة وقامت للرقص. بينما اتجهت نجوى نحو ملك، وشرعتا في جولة همس مضادة، فقالت ملك:

- العقبى لك ولأخي مالك!

قبّلتها نجوى، واقتربت من أذنها وقالت وسط الضجيج:

- خليه يُصاب بالعدوى من مجيد...

ضحكت ملك بصوت عال، وعادت تهمس لنجوى:

- والعقبى لك ولشوقي.

وضحكتا، وكأن أسراراً كثيرة تجمعهما، ثم قالت نجوى:

- يا الله... اقرصي رضوى، فتنتقل العدوى إليك.

وبحركة صبيانية نهضتا واقتربتا من رضوى. كانت رضوى شاردة بين نظرات الفتيات وبهجتهن، وقد غطت وجهها بالتول الأبيض، فبدت جميلة ناصعة مكتنزة الشفتين. قرصت نجوى العروس بإصبعين قويين، فتعالى صوت رضوى:

- آآآآيْ.. يبعتلك عريس. وجعتيني!

وخفَتَ الضجيج، ثم تعالى ضحك الصبايا، عندما عرفن سبب صراخ رضوى، فإذا صوت الشيخ عبده الخرسا يأتي عالياً من جهة باب المربع القريب من باب البيت. توقف الضحك. ودب الهلع في نفوس المدعوات وأهل العروس والعريس معاً، فما الذي جاء به إلى المربع في عز الرقص؟!

وجاء صوته:

- يا الله... تسَتّروا... دستور يا أهلنا.

أطبق الصمت في المربع وأرض الديار، وتراكضت النسوة والفتيات لإخفاء أجسادهن، وأخفيت الدربكة بين الجموع، وقبل أن تعرف المدعوات ما الذي سيفعله الشيخ عبده بقدومه، تسلل ابنه الصغير عبد الغني ووقف بين النسوة يتفرج عليهن مدهوشاً بالمشهد، فناداه أبو صلاح الذي كان برفقة الشيخ:

- عبد الغني. تعال. تعال. عيب... العريس بس!

نقل الشيخ عبده، الذي كان برفقة أبو صلاح والعريس، نبأ آخر من دون أن يدخل، وهو نبأ فاجأ الجميع:

- العريس إجا يقعدع الإسكي!!!

تعالت الزغاريد، فقد تراجع الشيخ عبده عن قراره، وتجدد العرس وكأن شروطه الصعبة ألغيت. ودخل العريس مزهواً أنيقاً تفوح منه رائحة

المسك التي رشه أبوه فيه. أما الشيخ فانسحب مع أبو صلاح الذي أمسك بيد عبد الغني، وسط لغط كبير بين النسوة والفتيات حول هذه المفاجأة، لكن صوت عبد الرزاق جاء من الخارج يحتج على خطوة أبيه، ويقول:

- إذا أنت وافقت ياشيخ. بكرة أعراس حارتنا تصبح مختلطة!

ركضت نجوى إلى الدربكة المخفية.أخرجتها ومسحت جلدتها بكفها لتصبح أكثر حرارة، وشرعت تدق عليها بإيقاع راقص. فعادت الفتيات إلى الرقص من جديد. وتراجعت خشيتهن من حضورِ غريبٍ يشاهدهن بأوضاع لا تليق ببنات حارة المؤيد، وكان العريس يخفض نظره نحو الأرض، ولم ينظر باتجاه العروس إلا عدة نظرات مسروقة.

غنّتْ نجوى من جديد، كذلك غنت ملك، وزادت سعاد دك الباب من همسها مع الأخريات، وكان يتضح من نظراتها أنها تقصد ملك ونجوى بآن واحد، ومع ذلك لم تغيّر الفتاتان من أفعالهما وأهملتا كل ما كانت تفعله سعاد!

* * *

سرت الشائعات بين فتيات الحارة عن قصة حب خفية بين نجوى أغريبوز ومالك عبد ربه. وصلت القصة إلى بيت نجوى الذي قام، ولم يقعد، فنفت نجوى ذلك وبكتْ، وقالت لأمها وهي تعضُّ على شفتها:

ــ هذه أفكار سعاد دك الباب. رفيقتنا بالمدرسة. شاهدتني في عرس رضوى الخرسا مع ملك فاختلقت القصة. شو يعني إذا كانت جارتنا بتحبني. يعني ضروري كون بحب أخوها؟!

حاولت أمها تسويق هذا الدفاع في الحارة، فلم تنجح، بل تناقلت بعض النسوة همسا من حي الروضة أن هناك من شاهد مالك ونجوى يمشيان في الحارات معا على آخر انسجام.

لم يعد مالك يشاهد نجوى. ولم تعد نجوى تذهب إلى المدرسة أصلاً. وفي جامع الجسر تلاقت عينا أبو مالك مع عيني أبو نجوى، فأخفض أبو نجوى عينيه بقهر وكأنه يحمل عتباً كبيراً تجاه جاره.

تقدم أبو مالك منه عند باب الجامع، وربت على كتفه:

- له يا أبو نجوى. أنت أحلى وأشرف جار. معقول تقلب وجهك وقت تشوفني؟!

فرد أبو نجوى:

- قصة ابنك مالك ضربت الجيرة من أصلها يا أبو مالك...

رتب أبو مالك طربوشه، وتغيرت ملامح وجهه، وقال بصوت منخفض:

- في حارة المؤيد. في كل حارات الشام يا أبو نجوى. البنات أعراض الحارة. وإذا نجوى عرضك هي عرضي وعرض مالك أيضا، يعني متل ملك. وإذا في أي شيء بين مالك ونجوى ما بيتعدى قصة شب وبنت عجبوا بعضهم وهذه هي القصة. نحنا جاهزين. اليوم المسا جهّز حالك لزورك أنا والشيخ عبده الخرسا ونطلب البنت على شرع الله!

فغصَّ أبو نجوى بكلامه،وأغمض عينيه بيديه كي لايرى أبو مالك والخارجون من الجامع الدموع، ثم قال:

- له يا أبو مالك. هذا يعني إن هناك شيئاً ما حصل ونريد أن نغطيه بشيء شرعي!

فرد أبو مالك:

- فشروا. بنتك أشرف من الثلج قبل ما يسقط على الأرض!

حجة عبد الناصر بألف!

تزينت حارة المؤيد لاستقبال الحجيج العائد من السعودية. انشغل الكبار والصغار في زينتها. نُصبتْ على مدخلها الوحيد، وعند عتبتها، أقواسٌ خشبيةٌ تم تجميعُها لتشكلَ قاعدة قوية ومتينة، وعلى هذه القاعدة تم تركيب عوارض خشبية، ثم جمعت أغصان كثيرة من أشجار الصفصاف والكينا ورميت فوق تلك القواعد، فتشكلت قبة من الأغصان، وعلى جانبي القاعدة عُلّقت سجادتان عجميتان كبيرتان بحجم المدخل...

أقيمت قبتان شبيهتان في وسط الحارة وآخرها، إضافة إلى قوسين كبيرين تم تشبيكهما بالأغصان أمام بيتي سعيد العطري وناظم الإيتوني، اللذين تنتظرهما الحارة لتقيم مهرجان عودتهما من الحج المبارك مع زوجتيهما.

استمر تركيب الزينة عدة أيام، وأشرف على تركيبها محمود الإيتوني وأيمن العطري، وعندما انتهت قام أبو علي الكهربجي بتركيب حبال متقاطعة علّقت عليها مئات المصابيح الكهربائية، وتم وصلها بالتيار الكهربائي...

عند المساء، توهجت الحارة كجوهرة مستطيلة تشكل في مجموعها زاويتين جميلتين عُلقت في صدر كل زاوية منهما عدة سجادات إضافة إلى أعلام كُتب عليها عبارات: حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً. حجاج مكة وردت علينا، لا إله إلا الله محمد رسول الله.، وكانت حبال الأعلام تتقاطع مع حبال المصابيح بشكل متعاكس، وكان أبو علي بجسده الصغير يتحرك بحيوية بالغة ليرسم مشهداً يليق بالمناسبة!

بعد أيام من عيد الأضحى، ولم يكن الحجيج قد عادوا، أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس، ولاقت مدينة دمشق خطاب التأميم بسعادة بالغة، فخرجت مجموعات تؤيد خطوته وتهتف باسمه، واتسعت دائرة محبيه، وتخوف كثيرون من أن يقتله الفرنسيون أو الانكليز... كتب أبو صلاح على دفتره بعفوية:« أعلن الرئيس عبد الناصر تأميم قناة السويس، وأللّه يستر» وكتب في أسفل العبارة: «الشام في ١٧ ذي الحجة ١٣٧٥» ثم أضاف إلى ذلك العبارات التالية:

«الحارة تنتظر حجيجها أعادهم الله بالسلامة والقبول...»

تأخر وصول الحجيج قليلاً، عادوا بعد عشرين يوما من نهاية عيد الأضحى، وفي عودتهما تحوّلت حارة المؤيد إلى مركز استقطاب كبير، فجاءها مهنئون من المهاجرين والميدان والشاغور والعمارة وركن الدين، وجاءت وفود كثيرة من حارات الجسر الأبيض القديمة والجديدة وخاصة حي الروضة، وفاحت روائح المسك والبخور في أرجاء الحارة، وتمنى كثيرون لو تبقى حارة المؤيد على هذه الحال أبد الدهر!

في البداية، كان المهنئون يدخلون بيت ناظم الإيتوني لأنه يقع في وسط الحارة، ثم يدخلون بيت سعيد العطار في داخلها، وعندما أحس الطرفان بكثافة المهنئين أقاما في اليوم التالي سُرادقا مشتركاً خارج البيت وتم توزيع الكراسي على طرفي الحارة.

ارتدى الحاجّان ثوبين أبيضين وعمامتين بيضاوين، وتوهج وجهاهما ببياض ناصع يميل نحو الحمرة، وكأنهما خرجا من الحمام لتوهما. جلسا في السرادق متجاورين، وكان أبو مالك والشيخ عبده يواظبان على الجلوس

مع المدعوين بعد صلاة العشاء، وكانا يساهمان في استقبال وفود الحارات الأخرى، وغاب أبو نجوى أكثر الأيام عن الحضور.

كان هناك من يوزع ماء زمزم بفناجين صغيرة، مع تمر، وترابة مكة، وأعداد كبيرة من المسابح، وسجادات الصلاة الصغيرة. وظل بيت الحاجين لعدة أيام مفتوحاً للفقراء، يأتون نهاراً، فيتناولون الطعام في أرض الديار ويأخذون الهدايا، ويجلسون قليلاً على كراسي السرادق، ثم يغادرون ليكرر بعضهم زيارته في اليوم التالي، وكانت تُلبى حاجات المحتاجين المادية الأخرى عند الضرورة.

قبل يوم واحد من إلغاء السرادق، فتح حوار مقتضب عن قناة السويس وعبد الناصر مصادفة، وكان الحوار هادئاً، فجرى الحديث عن تخوفات المرحلة القادمة، وظهرت عبارات موجزة تتخوف من خطوات عبد الناصر، إلى أن أخطأ أحدهم فأطلق عبارة هزّت الحضور كلهم، وكادت تشعل فتنة في حارة المؤيد، وذلك عندما قال:

- تأميم قناة السويس يساوي عشرين حجة لجمال عبد الناصر!

كان الشيخ عبده الخرسا قبالة الشاب الذي أطلق تلك العبارة، فرد مباشرة:

- أستغفر الله العظيم. هذا كفر يا ابني.

تدخل سعيد العطري من مكانه فوراً، وسأل الشاب:

- من أي حارة أنت يا ابني؟!

فرد الشاب، وهو يحرنُ على كرسيه:

- شو كفرنا ياحاج؟!

وجاء الرد هذه المرة من ناظم الإيتوني:

- نعم هذا كفر يا ابني!!

وهرع آخرون يطالبون الشاب بالاستغفار:

- استغفر ربك يا رجل. استغفر ربك يا رجل.

وتدخل مالك عبد ربه، وكان يجلس في مكان قريب من كرسي الحاج سعيد، وقال:

- كفّرتم الزلمة ع كلمة. خلّي عقلكم كبيراً!

نهض أحد رجالات الحاج سعيد وصفع الشاب على وجهه، وقام الحضور عن كراسيهم وتدافعوا لمعرفة ما يجري وما يقال. اختلطت الأصوات. لم يعد أحد يعرف من يتحدث. ولا ماذا يقول. ثم فجأة تراجعت الفتنة. وهدأت الأمور، عندما أُبعد الشاب عن السرادق وتم إخراجه من الحارة!

ما إن خرج الشاب من الحارة، حتى قام عبد الرزاق الخرسا ووجه كلاماً يطال ابن حارته مالك عبد ربه، فقال لمالك:

- أنت الذي جاء بذاك الشاب الناصري الكافر!

ثم أطلق كلاماً أغضب الجميع، فأسكتوه على الفور:

- لا تأمّنوا الأستاذ مالك لا على الحارة ولا على بناتها. هذا فاسق من زمان!

وتعالت الأصوات من جديد، وعلا صوت مالك:

- له يا جار. هذا عيب. أنا لا أعرف الشاب ولم أره من قبل، ثم لماذا تتهجم عليّ؟!

ولم تهدأ الحارة إلا بعد تدخل رجالاتها وارتفاع أصواتهم الغاضبة، ومع ذلك تركت جروحاً لا تندمل في النفوس. كتب أبو صلاح على دفتره: كادت تحصل فتنة بسبب أحد الحشريين. إذا كان عبد الناصر وحدويا، فهل نكفر بالله. أستغفر الله العظيم. قال ذلك الحشري بالحرف الواحد، وكنت موجوداً، حج عبد الناصر عشرين مرة وقت أمم قناة السويس!

وكتب أبو صلاح تحت هذه الفقرة تاريخ اليوم الذي دونها فيه أي في ١٣ محرم ١٣٧٥ ثم كتب ملحوظة:

كلام عبد الرزاق جرح أبو نجوى كتيراً...

اختلفت وجهات النظر في بيوت حارة المؤيد. هناك من استكبر العبارة التي قالها الشاب. وهناك من وضعها في حجمها. وهناك من اتهم الشاب بالشيوعية:

- أكيد هذا شيوعي من جماعة خالد بكداش.

وسخر آخر من هذا التعليق، وقال:

- وهل خالد بكداش الشيوعي الكردي مع العروبة؟

ظلت المشكلة مثار نقاش لأسابيع، ذهبت فيها الأقاويل في كل الاتجاهات، إلى أن وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، فاحتدم النقاش في الحارة من جديد، ولكن بموضوع آخر، وكانت أغلب الآراء تميل إلى تأييد جمال عبد الناصر.

قال مالك عبد ربه لأبيه:

- عجيبة حارة المؤيد. صارت كلها قلباً واحداً مع عبد الناصر. وما إن صلّى عبد الناصر وخطب الجمعة بعد العدوان الثلاثي حتى صرنا نعتبره

من الأنبياء. مع أن رجالات الحارة لم يرتاحوا كثيراً لشعبيته، ولم يستنظف الشيخ عبده خطواته الأخيرة، واتهمه بأنه يُنسّق مع الإنكليز!

ضحك أبو مالك، ورد على ابنه:

- نحن عاطفيون يا ابني.

ثم اقترب منه، وهمس بصوت يكاد لا يسمع :

- كان أبو نجوى مكسور الخاطر. الله يصلحك يا مالك.

وسأله:

- إذا كانت نجوى بخاطرك وتريدها. الله أمر بالسترة، وهي نعم الأخلاق، وأهلها على الراس والعين!

أطرق مالك. لم يشأ أن يعطي جواباً واضحاً. قال لأبيه:

- ما زالت نجوى في الثانوي وأنا في أول طريق الجامعة والقصة قصة ولدنة!

رد أبو مالك، وكأنه يحادث نفسه:

- لاحول ولا قوة إلا بالله!

لم تمضِ أسابيع قليلة حتى احتفلت الحارة بعيد المولد النبوي، وقام محمود الإيتوني، وأيمن العطري بترتيب الاحتفال في الحارة وتشارك معهما عبد الرزق الخرسا بحماسة، وقد استفادا من خبرتهما في زينة الحج، وتذكّر الجميع حفلة عودة الحجاج من بيت الله على الرغم من بعض حبات المطر التي سقطت فوقهم أثناء المولد.

في حفل المولد النبوي تُليت أناشيد نبوية، وألقى الشيخ الخرسا مع شيخين آخرين كلمات وعظية عن معاني المولد، ولم يفتح أي موضوع

سياسي، رغم أن البلاد كانت تغلي بصمود مصر وموقف السوريين المؤيد، وخاصة الهجوم على خط التابلاين، وكان الحديث الذي يتنامى عن الوحدة بين سورية ومصر!

أما أبو صلاح، فلم يكتب شيئاً عن حفلة المولد النبوي، اكتفى بتدوين حدث وقع في اليوم التالي جاء فيه:

«نقل أبو نجوى بيته من الحارة إلى حلب، كان مكسور الخاطر. لم أكن في وداعه. كنت في السوق، ولم أتأكد بعد من بيع بيته ومغادرة حارة المؤيد!

٢٩ ربيع الأول ١٣٧٦»

بكت ملك عبد ربه كثيراً عندما ودعت نجوى أغريبوز. ذهبت مع أمها وشقيقتها فلك، وهناك بكوا جميعاً، وقالت ملك:

- أنا لا يمكن أن أنسى نجوى. كانت أختي الثانية.

وبكت نجوى، ولم تتفوه بأي كلمة. أما أمها، فغصّت بعبارة أرادت أن تقولها، لكنها أقلعت عن النطق بها، وشرعت في نوبة بكاء شاركتها فيها ملك وأمها وأختها الصغيرة!

حكاية شوقي ونجوى!

رن جرس الهاتف. كان جهاز الهاتف مركوناً في الإيوان على صوفا طويلة خضراء مرقشة بخيوط من القصب، تصل إلى باب داخلي صغير مغلق، وكانت ملك تسقي أحواض الزريعة، وتجلس عليها بين فترة وأخرى لترتاح. كانت تجمع أوراق الشجر المتساقطة على الأرض، وتشغل نفسها بدندنة أغنية أم كلثوم الجديدة:

شوف دمعي جاري سهران في ناري

ولا أنت داري بالسهرانين

أروح لمين ومين ح يرحم قسايا

وأقول يا مين ومين ح يسمع ندايا

توقفت عن الغناء. خمّنت أن رنين الهاتف يعنيها. أصغت قليلاً، ثم هرعتْ إلى الهاتف. رفعتْ السمّاعة. كان الرنين قد توقف، وكأن صاحب الاتصال تردد في متابعته. سخن قلبُ ملك، وقالت في نفسها: «لابد أنه هو... شوقي!»

تفقّدت أرض الديار بنظرات خاطفة. لا يوجد أحد تحت. لا يوجد أحد فوق. شقيقتها فلك على المشرقة. مستغرقة في شرود عميق. هذا الشرود تقع فيه باستمرار كلما تفرجت على الشارع الذي انكشف جماله بعد هدم قصر المؤيد...

وأمها في بيت الإيتوني في انتظار مخاض شمس ابنة ناظم بيك. هاجمها المخاض، فأحضروا لها (الداية) أم مسعود، وذهبت لتكون بجوار جارتها والدة شمس التي ألحت أن تلد ابنتها عندها...

قالت ملك بثقة، وبصوت يكاد يكون مسموعاً:

-إنه هو... شوقي. أعرف. يتصل عادة وقت صلاة العشاء!

كان أبو مالك يؤدي صلاة العشاء في الجامع فعلاً، وهي عادته اليومية، وكان مالك يخرج مساءً إلى الجسر الأبيض ليلتقي أصدقاءه في المقهى بين يوم وآخر. وهذا يعني أنه لا يوجد سوى هي تحت. وسألت نفسها، وقد ارتفع وجيب قلبها:

«لكن لماذا لم ينتظر شوقي قليلاً لترفع السماعة؟!»

تعالى جرس الهاتف من جديد. كانت قربه. لم تخفْ هذه المرة. كانت واثقة أنه لها. وأن شوقي سيكون على الخط، وأنها بأمان. رفعتِ السمّاعة. كادتْ تُرحّب به:

- كيفك شوقي؟ اشتقت لك حبيبي!!

وقبل أن تنطق بهذه العبارات عرفتْ. لم يكنْ هو. تنفست الصعداء من أن تكون أخطأت. جاءها صوت أنثوي بعيد:

- ألو. ألو.!

تلكأت ملك نتيجة إحباطٍ داهمها، ثم عادت إليها الحيوية، وقالت بلهفة، وكأنها عرّفت أنها نجوى:

- نجوى حبيبتي. أنتِ وين؟!

- أنا أحكي من حلب. اشتقت لكم. كيفكم؟ كيف الشام؟

غصّتْ ملك بالبكاء. بلعتْ غصّتها، ثم قالت:

- شو صار معكم؟ إيمتى بدكن ترجعوا ع الشام؟

صمتت نجوى. فألحّت ملك:

- لاتخافي. أحكي. مافي حدا في البيت! فقالت نجوى:

- سلّمي لي على مالك وقولي له: ادع لنجوى.الخميس عرسي ع تاجر حلبي من بيت إخلاصي!

- شو عم تحكي؟!

- الزواج قسمة ونصيب يا نجوى.

- وما لك؟!

- خلص القصة ماعادت مزح. سعاد دك الباب هي أصل البلا. بدها مالك ولو على حسابي. هي من شاهدتني أنا ومالك في الطريق. بابا تعب كثيراً. صار يقعد ويبكي ويقول: الله يسامحك يانجوى. خسرتيني الشام. خسرتيني حارة المؤيد!

بكت نجوى، وبكت ملك معها. نظفت كل منهما أنفها. فسألت نجوى:

- شو صار معك أنت؟!

خَفَقَ قلب ملك. ليس لديها جواب. كانت تتوقع أن يكون الاتصال منه. فكّرت، ثم قالت وهي تمسح دموعها على خديها مازحة:

- أبوك أخذكم على حلب، وأنا خايفة بابا يأخدنا ع دير الزور!

اختلط بكاؤهما مع الضحك. واجتاحتهما نوبة جميلة من الوجد وتشارك الهموم، وقالت نجوى تخفف عنها:

- إذا صار معك شي وقررتوا تهاجروا تعالوا على حلب وبلا الدير!

وضحكتا من جديد، وفي نهاية الاتصال، قالت نجوى:

- قولي لمالك أنا لا أنساه، وإذا كان يريد سعاد الله يهنيه...

فسألت ملك:

- طولي بالك. كأن هناك قصصاً لا أعرفها... احكِ لي...

فردت نجوى، وهي تغلق السماعة :

- بعدين. بعدين. هذا صوت بابا!

* * *

لم يتصل شوقي ذلك اليوم. أشعل اتصال نجوى في صدر ملك هواجس كثيرة، فإلى أين ستصل قصتها مع شوقي. هل ستنتهي القصة على خير؟ هل يمكن أن يهجّ أبوها من الحارة كما فعل أبو نجوى؟!

جلست على طرف الصوفا في الإيوان قرب جهاز الهاتف. راحت تشد خيوط القصب بعصبية. راقبت من هناك شجرة اليافوي التي تغطي باحة البيت. راقبت المياه التي تفيض عن أطراف البحرة. أحست أن المياه تتحول إلى شاشة سينما كبيرة تشبه (سينما راديو) الموجودة عند مدخل سوق الحميدية، وتعيد التفاصيل كلها دفعة واحدة!

لم تبدأ القصة في الجسر الأبيض، ولم تنته فيه. بدأت أبعد منه بقليل في مشوار قصير لن تنساه أبداً طالما ظلّت على قيد الحياة. التقت ملك مع شوقي قبل ستة أشهر فقط. كانت عائشة صديقتها في المدرسة الشاهد الأول والأخير.

اتفقتا على مشوار في طريق الشيخ محي الدين، وكانت عائشة صاحبة الاقتراح. قالت لملك بتفاؤل غريب انتابها فجأة:

- طريق البيت ممل. اليوم نحتاج لمشوار يعني.

وشرحت فكرتها بعبارة أخرى:

خليه مشوار(أونطة).

فردت ملك:

- يعني تضييع وقت؟!

ومشتا تتحدثان عن أسرار المدرسة وفتياتها وعن المدرسات وقسوتهن. بعد دقائق قليلة، وفي منطقة الجبّة، واجههما شابٌ وسيمٌ متوسط الطول أنيق المظهر، تفيض من عينيه السوداوين حيوية ساحرة. خافت ملك، فقد أصبحت بمواجهة شاب غريب اقتحم مشوارهما. قالت عائشة:

-هذا أخي شوقي.

رمى الشاب التحية، ومد يده لمصافحة ملك، فصافحته، فإذا بها تسمع تعريفاً جديداً بالشاب:

- مجنون بالشعر...

لم تكن نجوى تعرف معنى أن يكون الشاب شاعراً، أو مجنوناً بالشعر، مع أنها قرأت شعراً كثيراً في الصحف وفي بعض الكتب. عندما التقت عيناهما أحست بدفء نظراته وأدبه في استخدام الألفاظ.

تركتاه وتابعتا المشوار، أخبرته عائشة أنها ستعود إلى البيت بعد قليل. بقي خيال شوقي خلفهما على صورة وجه جميل آسر. وبعد أيام التقى هذا الوجه من جديد عندما زارت ملك شقيقته في البيت!

كل شيء كان يبدو مهيَّأً لتعارفهما، وفيما بعد أقسمت عائشة أنها لم تكن لعبة مرتبة. كل شيء كان مصادفة. تعرّفت إليه فعلاً، وتعرف إليها فعلاً. وبعد دقائق وجدته وهو يقرأ لها مقاطع شعرية:

«هل عندك شك انك أحلى امرأة في الدنيا

وأهم امرأة في الدنيا؟.

هل عندك شك أني حين عثرتُ عليك...

ملكتُ مفاتيح الدنيا؟...»

أحست أنه يقرأ لها هي بالذات، فهزت رأسها، تشغله باهتمامها بالشعر وليس بمعناه. فقرأ لها مقطعا جديداً بصدق عال في الإلقاء:

لا تسـألوني... ما اسمهُ حبيبي

أخشى عليكمْ... ضوعةَ الطيوبِ

زقُّ العـبيرِ... إنْ حـطّمتموهُ

غـرقتُمُ بعاطـرٍ سـكيبِ

والله... لو بُحـتُ بأيِّ حرفٍ

تكدَّسَ الليـلكُ في الدروبِ

لا تبحثوا عنهُ هُـنا بصدري

تركتُهُ يجـري مع الغـروبِ

ترونَهُ في ضـحكةِ السواقي

في رفَّةِ الفـراشةِ اللعوبِ

في البحرِ، في تنفّسِ المراعي

وفي غـناءِ كلِّ عندليـبِ...»

قرأ شوقي القصيدة كاملة، وعندما انتهى. صفقت له، وقالت:

- الله. يا نزار قباني.. الله..!

فوجئ شوقي. كانت ملك تعرف نزار قباني من أشعاره. زادته هذه المفاجأة إعجاباً. أدهشته بجمالها ورقتها. سحرته بأناقة حشمتها، وهي تعيد الإيشارب الأزرق فوق غرّتها كلما تسللت الغرّة لتتنفس من تحته. عرف أنها تقرأ الشعر والصحف وتعرف أكثر مما يتوقع عن أحداث تعيشها الشام... فقال لها:

- هذه أول مرة تفوح روائح عطر جميلة من حارة المؤيد!

فردت، وهي تقلب شفتها السفلى تستنكر غزله بلطف:

- في حارتنا روائح كثيرة. منها الياسمين، ومنها الزنبق البلدي، ومنها زهر اليافاوي، ومنها الريحان، ومنها الخزامى... لكن هناك أيضا روائح طيبة في أخلاق الناس العالية وطيبتهم، وإذا كنت لا تصدق اسأل ناظم الإيتوني!

فسألها باندهاش:

- من هو ناظم الإيتوني؟!

ضحكت. وهمست:

- هذا دورك أنت! فقال، وقد أصبح كلامه مباشراً إلى درجة جعلت عائشة تستغرب:

- وحياة هالغرة الحلوة، سأبحث عن ناظم الإيتوني وأتعرف إليه ولو بآخر الدنيا!

فاحمر وجهها خجلاً!

لم يتعرف شوقي إلى ناظم الإيتوني إلاّ بعد أسبوعين، وسريعاً فاتح شقيقته بشكل غير مباشر قائلاً:

- أخبري ملك عبد ربه أني تعرفت إليه!

فسألته: من؟ أجابها:

- ناظم الإيتوني.

قلبت عائشة شفتها السفلى وسخرت:

- من هو ناظم. وما علاقة ملك؟!

قال شوقي:

- ذكاء ملك أدهشني. أتعرفين أن لناظم الإيتوني محلاً لبيع العطر في سوق العطارين!

* * *

عادت أم مالك من بيت الإيتوني، وما إن عبرت الدهليز، حتى أعادت الجلبة إلى البيت، وأيقظت ملك من شرودها. صاحت :

- ملك. ملك... وينك؟!

ردت ملك:

- ماما أنا قدّام الإيوان.

وبثت الأم خبرها:

- ولدت شمس الإيتوني. ولدت شمس!

نهضت ملك باتجاه أمها. فرحة:

- الحمد لله. الحمد لله... شمس طيوبة (بتستحق) كل خير!

وسألت:

- بنت واللا صبي؟!

فردت الأم:

- بنت فلقة قمر!

* * *

ابتهج ناظم الإيتوني بولادة ابنته. طلب من زوجها أن تبقى شمس في الحارة فترة من الوقت ريثما تتحسن برعاية أمها وشقيقتيها. وانشغلت أسرة الإيتوني بالطفلة الصغيرة. أما ملك، فلم يمض يوم واحد فقط، حتى زارت شمس وهنأتها بالولادة، وسألتها عن اسم الطفلة، فقالت شمس:

- ديمة.

حملتها ملك وراحت تهدهدها وتردد بفرح:

- ديمة الراضي ستكون أجمل فتيات الجسر الأبيض!

صالون أم مالك

فاحت رائحة الحطب الذي اشتعلت فيه النيران، فزادت حرارة الإيوان الذي تجلس فيه ملك مع أختها فلك تتهامسان عن قصص الزائرات اللواتي يتدفقن على الاستقبالات التي تقيمها أم مالك بين وقت وآخر.

أعطى الدفء حيوية للبيت في ذلك النهار المُشمس في بيت عبد ربه. تسللت الشمس برشاقة وخفة بين الغيوم ثم بين أوراق الأشجار لترسم على أرض الديار شبكة أخّاذة من البقع الداكنة والمضيئة.

وعندما تتحرك الأغصان تتبدل أشكال تلك الشبكة، وكأن رساماً ماهراً رسم لوحةً متحركةً كبيرةً على الأرض، فيما يتدفق ماء البحرة رقراقاً شفافاً يشوش على ذلك الهمس غير الواضح القادم من الأختين.

دعتْ أم مالك صديقاتها إلى صبحية جديدة، وهي الثانية خلال الشتاء الذي بقيت أيام على نهايته. وفي المربع التحتاني حيث اجتمعن، توهجت مدفأة كبيرة أخرى ووزعت أم فواز شراب السحلب الساخن على النسوة بعد أن رشت المكسرات وجوز الهند على وجه الزبادي.

حضرت ثلاثُ نساء من خارج الحارة، وحضرت أيضاً هدباء المؤيد شقيقة الدكتور خالد إضافة إلى الجارتين الحميمتين أم محمود إيتوني وأم أيمن العطري. سار كل شيء طبيعياً رغم النيران التي اشتعلت في صدر أم مالك، فما الذي جعل الكثيرات يقاطعن دعوتها التي وجهتها بنفسها وبوساطة التليفون إلى كثيرات من صديقاتها، هذه الهواجس جعلت أم مالك تتلقف الرسالة...

جاءت الرسالة من ابنتها ملك. قالت ملك بعفوية:

- لابد أنهن زعلن على قصة نجوى!

صاحت أم مالك:

- زعلن... لماذا؟!

وقالت من دون تردد:

- لم يفعلا شيئاً لا يرضي الله. مشى ابني معها أمام عيون الناس مرة واحدة، فهل خربت الدنيا!

وتنهدت بحسرة، تخاطب ابنتها ملك:

- يا ألله ع الناس هذه الأيام... والله أخاف على نجوى كأنها أنت أو فلك. هل أرضى أن يقوم مالك بفضح بنات الناس؟

لم تجد تفاعلاً من ابنتها فلك التي كانت تنظر إليها بدهشة، وردت ملك بعد نحو دقيقة:

- ماما. انتقال أبو نجوى من الحارة إلى حلب كرمى للقصة هو الذي جعل المسألة تكبر، كانت ردة فعله غير متوقعة!

فردت أم مالك:

- طبعا... ثرثرات الحارة تجعل البنت البريئة رقاصة... استغفر الله العظيم!

تقصّدت أم مالك طرح الموضوع مع ضيفاتها، فما إن جلست في المربع حتى عاتبت الغائبات على المقاطعة، ونفت أن يكون هناك أي شيء يسيء لسمعة نجوى، وقالت، وهي تعرف أن كلَّ كلامها لابد أن يصل إلى أصحابه:

- عندي بنتان يا جماعة، فكيف أقبل أن يساء إلى نجوى أغريبوز وهي ابنة حارتنا. بنات الحارة الواحدة بالشام أخوات!

راقبت أم مالك ردود أفعالهن. كانت كلماتها تدخل إلى القلب، وكان يمكن أن تكون أفكارها التي طرحتها أمامهن بهذه العلنية مقنعة. ثم وجدت نفسها تهتف بعفوية:

- الله لا يسامحك يا سعاد... أسأتِ لنجوى، ونجوى أطهرَ من الثلج على الأرض!

لم تعرف النسوة المدعوات من تقصد أم مالك بسعاد. لكن الصوت الذي ظهر من المطبخ أثار جميع المدعوات وجعلهن يبتعدن عن التخمينات، فقد تغيّرت القصة كلها... هرعت أم مالك لتعرف ما الذي حصل لتصرخ خادمتها ذلك الصراخ المرعب!

كان مطبخ بيت عبد ربه الأرضي، يتصل مع حمام صغير، وسقيفة واسعة مليئة بكراكيب كثيرة جُمعت فيها على مر الأيام، ومن تلك السقيفة يمكن المرور عبر نافذة زجاجية إلى سطح موصول في البيت هو سطح فرن الخبز الذي كان يمتد عمقه بمحاذاة قصر المؤيد من شارع الجسر الأبيض إلى بيت عبد ربه حيث تعالى الصراخ المفاجئ!

كان ذلك صوت أم فواز، التي تأتي من حي جوبر القريب من دمشق لتقدم المساعدة في الأعمال المنزلية لأم مالك. تراكضت أم مالك وابنتاها إلى المطبخ يستفسرن عما جرى لأم فواز، فإذا المرأة تعجز عن الكلام، وقد رُبط لسانها وشُتر حنكها، فتوقعن أن شيئاً ما أخافها داخل المطبخ، وهي تعد أطباق البرتقال للمدعوات.

وبصعوبة بالغة فهمن منها أن هناك قططاً سوداء مرعبة نزلتْ من السقيفة، ثم عادت واختفت بين الكراكيب، وذهلت الأختان، وحاولت الأم تمالك أعصابها والتخفيف من حدة الأمر، وتدافعت بعض النسوة للاستفسار، وانتشر الخبر: هناك قططٌ سوداء في بيت عبد ربه!

انتهتْ الصبحية على عجل، وساد خوف داخل البيت، وعندما عاد مالك سمع بما حصل، ودخل المطبخ، ثم صعد إلى السقيفة، وطمأنهن أن لاشيئ هنا، لا قطط سوداء ولا زرقاء، كما قال... ومع ذلك سرى الخوف إلى حارة المؤيد، وترامت تفاصيل لم تقع إلى بقية أحياء الجسر الأبيض، وفي تلك التفاصيل تحولت القطط إلى جن، وقيل إن الجن ظهروا في بيت عبد ربه نهاراً جهاراً وبوجود عدد كبير من النساء.

أشعلت الواقعة نيراناً كبرى في صدر امرأةٍ واحدةٍ لايمكن توقعها. كانت تلك المرأة هدباء المؤيد. تذكرت على الفور تلك القطط السوداء التي كانت تخرج لأخيها وزوجته، ثم فرقتهما وجعلت أخيها يهدّم القصر ويركض كالمعتوه في شوارع الجسر الأبيض ومنطقة الشيخ محي الدين، فتلاحقه لعنة القصر أينما حل!

لم يعد بيتها الجديد في حي الروضة هادئاً، ولم يعد لجرس البيانو الإيطالي رونقه الذي رافق تركيبه قبل شهور، فكان الأول من نوعه في أحياء الشام الجديدة. صار صوته مفزعاً أحياناً!

تغيّرت مساءات أسرة عبد ربه كلّها، فسيطر عليها الوجوم والحذر والخوف. صارت أوراق الأشجار وضوء القمر الذي يتسلل بينها ليلاً ترسم أشباحاً على الأرض تثير الهلع في النفوس.

كان السؤال بالنسبة للجميع، من أين جاءت تلك القطط السوداء، وهل يمكن أن تكون انتقلت من قصر المؤيد أثناء هدمه، ثم أين اختفت طيلة تلك الفترة التي مرّت؟!

كانت أسئلة مالك وأبيه كثيرة، وتدور في بعضها حول أم فواز نفسها، فهل هي امرأة معتوهة؟ هل هي مريضة من قبل، ولم تكن تلك الأسئلة تأتي بأي جواب واضح عليها!

كان جواب مالك ساخراً:

- ماذا لو كانت القطط بيضاء وعيونها زرقاء، هل كان يحصل لأم فواز ما حصل؟!

وردد أبو مالك بحذر:

- لا تسخر يا مالك...أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وتمتم بحروف مدغومة ببعضها:

- إن شاء الله خير. إن شاء الله خير...

هجرت الأسرة المطبخ الأرضي. لم يدخل أحدٌ إليه لأربعة أيام متتالية، وكان اضطرار أحدهم للدخول يدفعه لإشعال كل أضواء المطبخ والتشارك في الدخول مع شخص آخر، وفي النهار فقط. أما خلال الليل، فكان المطبخ يبقى مهجوراً لا حركة فيه. كذلك أغلق الحمّام الموجود فيه وخرج عن الخدمة.

في حي الروضة تشكل القطب الثاني من المسألة، فكلما هدأت الأمور في حارة المؤيد، كان القلق يزداد فيه. وفي بيت وجيه القباني صارحت هدباء زوجها بالتفاصيل، وأخبرته بما حصل في الصبحية التي دعت إليها أم مالك، وسألته صراحة:

- هل يمكن أن تكون القطط السوداء هي نفسها التي كانت تخرج لخالد أخي؟ هذا يعني أن ماريا معها حق. وأن خالد جننته الجنيات!

ضحك زوجها، وقال:

- هذا يعني أن القطط السوداء هي من الجن الذي كان في قصر بيت أهلك المُهدّم؟!

وهزت رأسها، فسألها وقد عاد إلى جدّيته:

- طيب. عندما كنت تعيشين في القصر مع أسرتك قبل الزواج، لماذا لم يكن الجن موجوداً؟!

وشدد عليها السؤال:

- آ؟ أخبريني!

أجابته هدباء وهي تبكي:

- هل نسيت قصة أبي؟!

* * *

انتشرت حكايات الجن من جديد. وبين أسبوع وآخر، وشهر وآخر تتراكم تفاصيل كثيرة لا تصدق. امتزج الخيال مع الواقع، واختلط الحديث الصادق بالحديث الكاذب، وكانت البلاد تغلي بمشاعر الوحدة مع مصر، فهل ستحصل الوحدة فعلا؟

وكتب أبو صلاح على دفتره عبارات عدة جاء فيها:

«يحكون في حارة المؤيد عن القطط السوداء والجن، والناس مشغولة بالوحدة. الوحدة مع عبد الناصر قاب قوسين أو أدنى»...

غرفة العناية المشددة:

الوضع مستقر!

تجمعت هيئة الأطباء حول سرير فادي عبد الرحمن. كانوا أربعة أطباء مع ممرضين اثنين يقفان بزاوية الغرفة. جرى تداول بسيط حول طبيعة الالتهاب نتيجة الجرح في رأسه. وقررت الهيئة بعدها أن الوضع مستقر وأن الالتهاب ينحسر عن الدماغ، وأن بقاء فادي لن يستمر طويلاً.

سألت فدوى:

- طمنونا؟!

هز رئيس الأطباء رأسه، وردد:

- إن شاء الله خير. وابتسم.

وجاء صوت حامد يطمئن على الدكتور رضوان:

- ماذا عن الدكتور رضوان المؤيد، كيف حاله بعد الحادثة؟

ابتسموا جميعاً، وهز رئيس الأطباء رأسه، وقبل أن يغادروا الغرفة، دوّن ملاحظات محددة على إضبارة فادي، وقال بحزم:

- إذا لم يكن هناك ضرورة يبقى مرافق واحد فقط مع المريض!

وخرج. فلحق به الأطباء والممرضون.

جرى تشاور في غرفة العناية المشددة: تبقى فدوى. أو يبقى حامد. مُزنة مشكورة على زيارتها. الخيار وقع بين اثنين: فدوى أو حامد، فمن سيبقى في غرفة العناية المشددة عند فادي؟

حسمت مُزنة الأمر:

- لن يبقى إلاّ أنا!

نظرت فدوى بدهشة. ابتسم حامد وبلع ريقه. ألّحت مُزنة:

- لا شغلة ولا عملة عندي. أولادي كبروا.أنتما متعبان. هيا. اذهبا وارتاحا. أنا أبقى هنا. لقد قال الأطباء إن وضعه مستقر.

وبقيت مزنة. إلاّ أن وضع فادي لم يكن مستقراً كما قال الأطباء!

* * *

سمعتُ بكاءً. وسمعتُ صوتَ تنظيف أنفِ فدوى. وسادَ صمتٌ. كأنهم ذهبوا ليتفقدوا الطبيب الدمث. وأنا كنتُ صامتاً مثلهم. لم أحزنْ. ولم أقلْ شيئاً. لم أكن أريدُ أحداً... ناموا جميعاً. طيفُ الأمير الجزائري ظلَّ ساهراً معي. كان واهن الجسد يتكئ على عكازة من الخيزران. كان وجهُه تحت الطربوش مشعشعاً بالنور. حملَ بيده كمّادة بيضاء واقترب مني وهو يتمتمْ. وضعها على رأسي. أحسستُ أن الحرارة خفّتْ. شعرتُ بالراحة. مسحةْ رسول كانتْ. قلتُ. سأنام. لم أنم. أنا بين النوم واليقظة. ذهبت روحي إلى الجسر الأبيض. كان ذلك منذ زمن طويل. طويل. دخلتُ الجامع. رأيتُ شيخاً يجلس على الأرض ولا يُصلّي. كان يجلس عند الدرج الصاعد إلى المئذنة. يلتفُ الدرجُ صاعداً لتنكشفَ في جهة اليسار فُسحة تشبه القاعة وتطل على صحن الجامع بنوافذَ خشبيةٍ مستطيلةٍ محكمةِ الإغلاق. كانت القاعة واسعةً وباردةً وفي زاوية منها يجلسُ رجلٌ كبيرٌ يشبه الشيخ. على رأسه طربوشٌ أحمر، وعلى الطربوش خصلةٌ من خيطان حريرية صفراء. تحلّق حول الرجل عدة أولاد يجلسون وكأنهم يتعلمون حروف اللغة العربية في أحد كتاتيب الخجاتي!

شاهدني الرجلُ فقال اقعدْ يا ابني. هذه أول مرة أراك فيها هنا. عرّفْنا على حالك يا ابني. قلت وأنا أنظر إلى خصلة الخيطان الصفراء: أنا فادي أريد أن أصعد إلى المئذنة. ضحكَ الرجلُ. سعلَ واهتزّ الطربوش الأحمر فوق رأسه ورقصتْ خصلة الخيطان الصفراء من السعال. قلتُ له أنا تبرعت للجامع بعشرة قروش. فقال الحسنة بعشرة يعني صاروا مئة. سألتُه من يعطيني المئة. قال الله. قلتُ أين هو. قال فوق في السماء وإليه نصلّي كل يومٍ خمسَ مرات. سألتُه لماذا تجلس ولا تصلي.أجاب أنا أصلّي أحياناً هنا في غرفتي خارج الحرم و الله يقبل كل شيء يا ابني. المهم النية الصادقة في العبادة وفعل الخير. سألتُه ما عندك بيت فقال: هذا بيت الله وأنا أسكن فيه. قلت هل بإمكاني أن أسكن بالمئذنة. قهقه الأولاد وقال واحد منهم الشيخ الجزائري الأمير ألا تعرفه. فقلت لأ. لا أعرفه. طلبوا مني أن أجلس وأسمع. جلستُ وسمعتُ... قال الأمير الجزائري لازم نحب الله قال: أحبوا الله وبلادكم الله حاميها. نحنا في الجزائر دافعنا وندافعُ الآن عن بلادنا والله معنا وسنطرد الفرنساوي. واجبنا الديني الدفاع عنها. سألته:

طيب كيف اليهود أخذوا فلسطين من أهلها وأخذوا القنيطرة من سكانها وما حدا دافع عنها. ابتسم. قال لكي نصحوا من غفلتنا. وقال اسمك فادي. يا فادي توجد حكمة من وراء كل قصة... تركنا ديننا فأراد الله أن يذكرنا. قال تعالى: يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا وكانوا به يستهزئون صدق الله العظيم!

وسألني الأمير الجزائري هل تحفظ جزء عمّ في القرآن الكريم. قلت لأ. حافظ قل هو الله أحد والحمد لله رب العالمين قال:

لا. لا. ما بيصير لازم تحفظ جزء عمّ فقلت: أحفظه إذا تركتني أصعد إلى المئذنة. فقال بهدوء ووقار: خذوه. خذوه يا أولاد إذا كان يحب المئذنة فهذا يعني أنه يحب الجامع والجامع بيت الله. وقال لي انتبه. ابق بحدود الدرابزين!

صعدتُ إلى المئذنة والدرجُ يدورُ ويفتلُ وأنا أدورُ أفتلُ أحسُ بالدوار. أصير في أعلى المئذنة. أرى ممراً ضيقاً ودرابزين. خفتُ. شعرتُ بالدّوار. ثم تجرأتُ. أمسكتُ خشب الدرابزين، ورحتُ أراقب كل شيء. رأيتُ جبلَ قاسيون. أحسستُ أنه قريبٌ. أحسستُ أنه يريد أن يحكي معي. رأيتُ بيوته وكأنها تعمشقت عليه. نظرتُ إلى أسفل فرأيت الجسرَ الأبيض ونوري باشا. بحثتُ عن ديمة بين المارة الصغار الذين حدّقتُ بهم من فوق فلم أجدها. لم أجد ديمة... ناديت من فوق:

أين أنت ياديمة... ديمة. مه... مه... مْهْ؟

ديمة هي كل شيء في الجسر الأبيض. والجسر الأبيض يغلي بالناس. ناسْ في كل الاتجاهات. ناس يذهبون وناس يأتون. كلٌ ينظرُ في اتجاه. لا أحد ينظرُ إلى فوقْ. لا أحد ينظر إلى أعلى المئذنة. لا أحد ينظر إليّ. رأيتُ حارتنا. حارةُ المؤيد. لم تكن حارتُنا كما أراها من تحت. كانت حارة أسرار. حارة لها رائحة. منذ ذلك الوقت صرت أحب رائحتها. رائحتُها لا تروح أبداً من أنفي. شممتُ رائحتَها من فوق. عندما أشم الرائحة من فوق لا أنسى أبداً تلك الرائحة. خرأبَة بيت المؤيد وبيتُنا لا يظهران. تظهر دكان أبو صلاح في رأس الحارة. نظرتُ إلى الشام. هذه هي الطريق إلى الطلياني. وهناك في الشارع الفرعي كان يسكن جارنا شكري القوتلي. وتلك البعيدة هي بناية الكويتي[1]. أعلى بناية في الشام. هذه سوق

---

(١) فندق الشام حاليا.

الحميدية... يا ألله ما أجمل الشام من فوق... تصورتُ نفسي حمامة. كنت أحلم كثيراً أنني حمامة. قلتُ لجدّي ذات مرة يا جدي لماذا لا نطير. وجدّي شيخ عمره تسعون سنة. يصلي. لا يملّ من الصلاة. عندما يتوضأ صباحاً يغمر رأسه بماء البحرة البارد، ثم يُخرِج رأسه تتساقط منه حبات الماء، ويشهق. عندما سألته شهق جدّي. كأن رأسه كان في الماء. ذقنُه بيضاء مثل الأمير الجزائري. لكن ذقن جدّي طويلة. تحركتْ ذقنُ جدّي البيضاء. قال لي بعد أن فكّر:

نحنُ لسنا حماماً. الحمام يطير. نحن لا... ومن وقتها صرتُ أحلم أنني حمامة لكي أغيظ جدّي. كنتُ أرى حارة المؤيد من فوق أحلى. شاهدت بيت مزنة من فوق. بيت كبير واسع فيه أشجار. ناديتها. مزنة. مزنة. نه. نه. نْ. لم تسمعني. كأنها نائمة. شاهدت بيت أبو صلاح من فوق. بيت واسع فيه بحرة وأشجار. شاهدت كل تفاصيل الحارة. تذكرت الأمير الجزائري وهو يحذرني أن أتخطى الدرابزين. صرختُ من فوق: رُحْ يا أمير. رُحْ يا ستين عاماً في بيت الله. رُحْ يا جدي يا ذقن طويلة بيضاء. رُحْ. رحْ. رحْ. حْ. حْ. وانكسر الدرابزين. صرتُ أطير مثل الحمامة. طرت فوق الشام. فوق بيوت كلها حكايات. فوق بيوت تفوح منها رائحة ياسمين وخبّيزة وزهر الليمون وزهر البابونج. وقلتُ سأذهب إلى سوق الحميدية. وذهبتْ. كان هناك خلقٌ كثيرون. شاهدتُ جمال عبد الناصر. حملني أبي على كتفيه. مثل البطيخة المدورة جلستُ على كتفيه. قال انظر بابا. انظر إلى جمال عبد الناصر.. ونظرتُ لم يكن جمال عبد الناصر كان سوق الحميدية معتّما وفيه خلقٌ كثيرون. جاءت سيارة سمينة سوداء مكشوفة. وفيها رجلٌ أسمرٌ طويلٌ يلوح بيده. صاح أبي من جديد: السيارة المكشوفة يافادي... انظر هاهو أبو خالد يقف فيها... وأنا بطيخة صغيرة مدورة جلستْ على كتفي أبيها قلتُ لجمال عبد الناصر:

ماذا تفعل في سوق الحميدية؟

فقال: الوحدة العربية. بيّة. بيّة. القومية العربية. بيّة. بيّة. فلسطين. والإستعمارررررر...رْ. سمعتُ نبض أيادٍ كثيرةٍ. ورأيتُ حناجرَ تهتف من دون سعال وعبد الناصر يردد:

الإستقلال ل ل لْ وأرعد الناسُ موجات وموجات. سقطتْ البطيخة المدورة بين الموجات. سقط فادي بين الرعد. كاد يختنق لولا أبوه... انثقب سقف سوق الحميدية من رعد الموجات. خرج الرعد منه. صار حماماً وطيوراً وصهيلاً وصلاة. فَهْمَهَمَ أبي في الحارة: عبد الناصر صلّى في الأموي يا أبو صلاح وهناك من يقول عنه إنه كافر. اصطكت أسنان أبو صلاح.. قالت أسنانُه:

السياسة يا أبا حامد. فرد لهاث أبي:

عبد الناصر صلى عن حق وحقيق!

كانت المظاهرات تدور في الشام.. مع عبد الناصر. مع شكري القوتلي. مع الوحدة العربية. مع فلسطين. قال أبي عن القوتلي. هذه أعجوبة. رئيس يتنازل عن الحكومة. القوتلي أكرم رجل في العالم. تخلى عن زعامته من أجل الوحدة. قال عمي القوتلي أذكى رجل في العالم. وصار حديث طويل. عبد الناصر والقوتلي. وأكرم الحوراني. وعبد الحكيم عامر. والانفصال ل ل ل ل لْ.

لم أعدْ حمامة. وقعتُ من فوق. وقعت على حرف اللام في كلمة الانفصالْ. نزلت عن المئذنة حزيناً. جلستُ على الدرج. دعوتُ ربي. دعوتُه من قلب مهزوم. يارب اجعلني حمامة. لم يجعلني اللهُ حمامة. نزلتُ عن الدرج إلى مكان الأمير الجزائري كان يحمل كمادات ماء بارد. سألتُه معك

حمى. فجاءت الحمّى. الحمّى تأتي ولاتروح. الحمّى لاتذهب أبداً. الكلُّ نيام. لا أحد يضع كمادات على رأسي. الأمير الجزائري وضع كمادات. راحت الحُمى. وعادتْ. جاء صوت أبي. صوت أبي مثل هدهدة لطفل نعسان. قال أبي لأمي. حامد صار شابّا. كانت أمي تجلسُ قبالة أبي تشرب الشاي. قالت أمي فدوى صارت عروسا وضحكتْ. وكانت أختي فدوى فتاة صغيرة كبيرة العيون تحلم أن تصير حمامة. قال أبي. فادي وُلد أيام العدوان الثلاثي. قالت لأ. يا أبو حامد وقت خطب عبد الناصر من الجامع بمصر.كان فادي وَلْدان وخالص. كان صغيراً. كنا نخاف يصير شي. كنا نخاف تجي الحرب للشام ويصير شي. وغنى العرب وطني حبيبي وطني الأكبر. الشام وقفت مع عبد الناصر. وقالت أمي الناس بتحب عبد الناصر. قال أبي. بحرب الست وخمسين بيّنت العرب من غير العرب. قالت أمي النسوان يحلفن براس جمال عبد الناصر. قال أبي النسوان حلفن من قبل براس أكرم الحوراني وغنّين له... قالت أمي تركوه وقت الانفصال. قال أبي تركوا الحُسين قبله في كربلاء. قالت أمي كنا نتباهى لو ظل شكري القوتلي جارنا. قال أبي. ربما ندم. الله معه. صار بلبنان... قالت أمي قصص حارة المؤيد وصلت للعالم من شكري القوتلي لسعاد دك الباب.

سألتُ أمي: سعاد مين. ضحكت أمي. سألتني نحن ساكنين ببيت مين؟! قلت لا أعرف. قالت في بيت عبد ربه!

حكاية سعاد دك الباب

جاءتْ سعاد دك الباب إلى بيت عبد ربه بنفسها، طرقتْ الباب، وانتظرتْ. صوتُ (السّقاطة[1]) لم يصل إلى الإيوان الذي كانت تجلس فيه ملك وأمها... قالت أم مالك:

- كأن أحداً يطرق على الباب؟

بحثت سعاد عن الجرس، فوجدته على الجهة اليسرى من الجدار خارج القوس الخشبي للباب، فضغطت عليه، وانتظرت من جديد.

ترامى صوتُ الجرس في أرض الديار. عندما يرن جرس بيت عبد ربه تتذكر ملك رنين جرس مدرستها الطويل. أخبرت أباها بذلك. قالت له:

- بابا دخيل طربوشك الحلو غيّر الجرس. هذا الجرس مثل جرس المدرسة!

وعدَها بتغييره ضاحكاً. لكنه لم يكن قد غيّره بعد عندما زارتهم سعاد. جاء رنينه من جديد. قالت أم مالك:

- قلت لك إن أحداً يطرق الباب!

ركضت ملك، وملك عندما تركض تشبه غزالة. خصرُها نحيل. شعرها طويل. عيناها تضحكان مع ضحكتها. دارت حول البحرة، وهي تردد:

- لحظة. لحظة!

---

(١) يد نحاسية تعلق على الأبواب القديمة بدلا من الجرس.

وفتحت الباب...

وقفتْ مدهوشة... لم تصدق ملك من تكون تلك التي تقف عند قوس الباب. سألت نفسها:

«هل يمكن أن تكون سعاد أخطأت في العنوان؟» فحمّستها سعاد، تقطع ظنونها باليقين:

- إيْ أنا سعاد. مفاجأة ما؟ ما في كلمة تفضلي؟!

ارتبكت ملك. سارعت إلى تدارك الأمر:

- تفضلي سعاد. تفضلي.

ودخلت معها إلى المربع. تلعْثمَتْ بكلمات الترحيب، بحثت عن صيغة تصلح للترحيب بها. فوجدت نفسها تردد:

- مافينا نقول غير أهلا وسهلا. أهلا وسهلا!

كانت عبارة (ما فينا نقول) رسالة عتب واضحة عن أحداث وقعت. عن موقف يختبئ في الصدر. تداركت سعاد الأمر. عرفت أن ملك محرجة، فحاولت أن تحلَّ عقدة المسألة:

- أنا جئت لأحكي كل شيء. القصة بسيطة. لا تحرجي نفسك ملك. أنا حابّة نكون صديقتين وتكوني بالصورة كلّها. أنا لست شريرة. ولست فتّانة بين الناس. هناك قصة لازم تعرفيها!

هزّت ملك رأسها باستسلام. كانت تجلس على الكنبة القريبة منها في المربع، فهمست كأنها تطمئنها لتحكي كل ما عندها:

- سعاد. سأعد القهوة وأعود. يبدو أنه حديث طويل...

رمشت سعاد بعينيها. تصنّعت ابتسامة ودْ. لكن عينيها لم تضحكا. أعطاهما ثوب الساتان الأسود الذي ترتديه ورائحة العطر الناعمة التي تفوح منها جدية خالصة، وكأنها جاءت لتعلن أنها تستحق مالكاً أكثر مما تستحقه نجوى.

خرجت ملك من المربع. أخبرت أمها أن زميلة لها في المدرسة جاءت لتزورها، وأنها ستعدُّ لها القهوة، فنهضت الأم وطلبت منها العودة إلى زميلتها، لأنها هي التي ستعد القهوة، ولذلك عادت سعاد لسماع ما تخفيه سعاد من تفاصيل عن القصة التي جعلت بيت أغريبوز يغادرون الشام كلها إلى حلب:

- أنا تعرّفت إلى مالك منذ أكثر من سنتين. كنت أعرف أنك أخته. وأخبرتُه أنك في المدرسة نفسها التي أدرس فيها. مالك شاب حبّاب. لطيف. مثقف. كان بيني وبينه استلطاف فقط، ثم صار حباً. بصراحة أنا أحبُّه!

ابتسمت ملك. عيناها أوحتا أن ابتسامتها تحمل من السخرية أكثر مما تحمل من السعادة، فهي تعرف أنه يحب نجوى. لم تعلق. انتظرتها لكي تتم روايتها:

- مالك جريء. يحكي مع البنت كلمتين، فيأسرها بكلماته...

فقاطعتها ملك:

- يعني قصدك مالك بيلطش بنات المدارس؟

- لا أبداً. فهمتيني غلط. أنا تعرّفت إليه مصادفة والتقيته أكثر من مرة. أحببته. مشيت معه. ماشفت منه في البداية إلاّ كل خير. بعدها. صار اللي صار.

- ما فهمت؟!

قاطعتها ملك، فردت سعاد:

- مصادفة. كان في شارع الروضة يمشي مع نجوى أغريبوز تحت الشمسية. طار عقلي. تصوري تشوفي حبيبك ماشي تحت المطر مع بنت بشمسية واحدة. حقي يطير عقلي يعني. تصوري حالك محلّي!

- ممكن تكون أخته؟! فضحكت سعاد:

- تظنين أني لا أعرف نجوى أغريبوز!

دخلت أم مالك تحمل بيدها القهوة، فرحبت بسعاد، فقالت ملك:

- ماما. سعاد رفيقتي بالمدرسة.

ولم تذكر لها كنيتها. وغاب عن الأم أن تسأل عن كنيتها كالعادة عندما تأتي صديقات ملك. قالت الأم:

- أهلا وسهلا يا بنتي!

خرجت أم مالك بشكل اعتيادي، وقالت سعاد:

- أمك بتجنن يا ملك!

لم تلتفت ملك إلى المجاملة، قالت تحضُّ سعاد على الكلام:

- وبعدها شو صار؟!

ردّت سعاد:

- خلّي الباقي لبعدين!

* * *

لم يكن مالك عبد ربه في مشواره مع نجوى أغريبوز تحت المطر يعلم أن سعاد وزميلاتها شاهدنه في إحدى حارات شارع الروضة. ما إن شاهدته سعاد حتى تغيرت ملامحها. تغير مجرى حديثها مع زميلاتها اللواتي يجهلن حكايتها معه. لم تشأ أن تحكي لهم السبب. صار لون وجهها أصفر كما لاحظت زميلة لها، كادت تقع على الأرض. سألتها زميلتها:

- سعاد شو صار. وجهك تغيّر لونه!

كان المطر ينهمر بشدة. وكان يمكن أن تحتج سعاد بالبرد، لكنها لم تستطع إخفاء ارتباكها. أحست بوهن في جسدها، ورغبة في أن تجلس على الرصيف. تمالكت نفسها. ومشت شاردة طيلة الوقت تتمنى لو أن الأرض تنشقُّ وتبتلعها!

في البيت، هرعت إلى الكتابة. كتبت رسالة من صفحة واحدة مليئة بالكلمات الصغيرة:

«أنت غشاش. كيف تمشي مع نجوى. كيف وقلت لك أكثر من مرة أني أحبك. كنت تهز رأسك. يعني توافق. كنت تكتب اسمك على يدي وتقول لي أنك تخاف من اسمك في كل مرة تتحدث فيها مع فتاة!

هل هذا هو الإخلاص والحب...»

وكتبت له أيضا:

«أنت حر. أنا لم أعد أشعر نحوك بالحب. أنت دمرت مشاعري.. أنت دمرت كل شيء!»

قرأ مالك رسالتها، وضحك. قال في نفسه: «عقل البنات صغير فعلا. كل بنت تعتقد أن أول شب يعرفها هو زوج المستقبل!»

وضع الرسالة في جيبه، وشردت أفكاره بعض الشيء، لكنه عاد وأخرج الرسالة، وقرأها من جديد، توقف عند العبارة التي وردت في رسالتها:

«كنت تكتب اسمك على يدي وتقول لي إنك تخاف من اسمك في كل مرة تتحدث فيها مع فتاة»...

نعم... لقد قال لها ذلك، وسأل نفسه:

«لماذا حفظتْ العبارة ولم تسألني عنها؟!. هل تقصد أنها عرفت منذ ذلك الوقت أنني أحكي مع بنات. هذا لم يكن يدفعها للغضب. لماذا انتبهت إلى تلك العبارة وجعلتها من دون تفسير؟!»، ثم وجد نفسه يضحك بصوت عال. مزق الرسالة. رماها على الرصيف. أخذ الهواء بقاياها ونثرها في بقعة واسعة. وأحس مالك أن لقاءاته مع هذه الفتاة ستعلمه الكثير. وسأل نفسه، من جديد:

«لماذا يخاف من اسمه في كل مرة يتحدث فيها مع فتاة؟»

تعود القصة إلى سنتين فقط.. قال له أبوه:

- سمعت أنك تمشي مع أكثر من فتاة.

خاف. لم تكن شخصية أبو مالك تخيفُ أبناءها. كان ودوداً عملياً تعلّم أن الحياة علاقات ومصالح: «يا ابني الحياة مصالح»، ثم يضيف: «والأخلاق ضرورية في الحياة، وكذلك السمعة». وعندما يغضب أبو مالك يهتز طربوشه. ويثور غضبه إذا كان الأمر يتعلق بأعراض الناس: «احذر اللعب بأعراض الناس!»...

خاف مالك. لم تكن كل هذه الأقوال التي استردها من أبيه عن ذاكرته تخيفه. أخافته مسألة أخرى. قالها وهو يؤنبه قبل نحو سنتين:

«عندما تمشي مع فتاة في الشارع. ربما تمشي مع غيرك. فإذا كنت الأول يجب أن تنصحها، وإذا كنت الثالث يجب أن تغضب منها، أما إذا كنت الثاني، فاعلم أن الفتاة ستتنقل من هالك لمالك لقبّاض الأرواح!» وصاح به:

- لديك أختان يامنظوم. ينبغي أن تخشى عليهما!

تمنى لو لم يمزق الرسالة. فهذه الرسالة تحمل أيضا هموم أبيه. ينبغي ألا يتصرف مع سعاد على هذا النحو. إذ كيف يحب نجوى أغريبوز ويلتقي مع سعاد دك الباب. أو كيف يحب سعاد ويمشي مع نجوى. كان ذلك مأخذاً عليه، وقد أرّقته كل هذه الأفكار التي مرت على رأسه، واتخذ قراراً حازماً مع نفسه لم ينفذه:

«ينبغي أن أحسم الأمر فأبقى مع نجوى!».

عندما أخبرته شقيقته أن نجوى في صدد الزواج في حلب. اتصل بسعاد وقال لها:

- سنبقى معا. فردت تبكي:

- تأخرت!

* * *

بعد شهرين. عاد مالك إلى البيت بعد العصر. كان متعباً. جائعاً. يريد أن يأكل، وينزوي مع نفسه. عرفت أمه بقدومه، فنادته من فوق:

- الطعام هنا. اصعد. سنأكل معاً.

سأل عن أبيه، فأجابته:

- خرج إلى صلاة المغرب.

صعد إلى غرفة الجلوس في الطابق الثاني. تناول الطعام مع أمه، فلاحظت قلقه وتعبه، وقالت:

- تقبرني، كأنك تعبان...

دخلت ملك، وكانت تفور وكأنها تريد أن تحكي كل ما عندها دفعة واحدة. وجدت أمها جالسة، فكتمت ما في صدرها. راقبته وهو يأكل بشرود، واستغفلت أمه عندما خرجت من الغرفة وسألته:

- شو اشتقت لنجوى أغريبوز؟!

وكطفل صغير رد عليها نافياً بهزّ متواصل من رأسه، واللقمة في فمه، فابتسمت بسخرية وقالت:

- احزر من كان هنا؟!

وقبل أن يجيب، أخبرته بالجواب:

- سعاد دك الباب!

غرفة العناية المشددة:

اعترافات أم فواز!

شاهدَ فادي نافورةَ ماء.

حباتٌ صغيرةٌ من الماء، تتدافع من تحت إلى فوق، تشكل خيوطاً متتابعة، ترسمُ أزهاراً من ندى. تصعدُ قطراتُ الماء في مسارها الأخّاذ، ثم تسقط متعبة على جبين فادي الساخن، وكأنها من كمّاداتِ الأمير الجزائري الرطبة. يختلط ماء الكمّادات مع خيوط النافورة، فتُخشخِش بمائها الرشيق شفافة في قلب البحرة...

ظهرت يدا أمّه الجميلتان وهما تقدمان طبقاً أبيض. يدا أم فادي كريمتان كما قالت لها أم فواز. قدمت لها صحن قريشة مع السكر، أبيضٌ على أبيضْ. طيبٌ على حلو. قالت أم فواز، وهي تمسك يد أم حامد. أشهد بالله يداك تدلان على الكرم. يداك مفتوحتان للخير يا أم حامد. ضحكت أم حامد. قالت يداي متورمتان من الغسيل يا أم فواز. فسألتها هل عندك أولاد صغار. ردت أم حامد عندي. ولكن فادي وحده جني ملفلف.

ضحك فادي عبد الرحمن في المستشفى، وهو يستعيد الحكاية. هدأت الحمى التي أصابته. أطفأتها النافورة وكمادات الروح التي وضعها الأمير الجزائري. رأى فادي نافورة الماء من فوق. ورأى تحتها تفاصيل حكاية لا يمكن نسيانها...

تأخرتْ اعترافاتُ أم فواز كثيراً. لم يسمع أحد من حارة المؤيد باعترافاتها إلاّ أم حامد وفادي، وكان فادي شاهداً مختبئاً. وكانت أمه تصغي. جاءت أم فواز من منطقة جوبر شرقي دمشق. كادت تضيع لأنها نسيت الطريق الذي يوصلها إلى الجسر الأبيض. أخبرتْ أحد سائقي الترامواي أنها تريد حارة المؤيد، وكان يعرف الحارة، فأوصلها إلى الجسر الأبيض وتركها وقد استعادت كل شيء من ملامح المكان، وصارت تهتف وكأنها نيوتن وجدتها. وجدتها. وجدتُ حارة المؤيد. أعرفها من روائحها الحلوة...

مضتْ سنواتٌ على انقطاع أم فواز عن حارة المؤيد، ربما ثلاث أو أربع سنوات. غابت. انقطعت أخبارها. حتى إن أم مالك نفسَها ظنّت أنها ماتت بعد حادثة المطبخ والقطط السوداء والجن!

فتحتْ أم حامد الباب، لتجد أمامها امرأة غريبة المظهر تهم بقرع الجرس. كانت المرأة متعبة رسم الحر على وجهها وجبينها حبات كثيفة من العرق. رحبت بها. أجّلتْ أم حامد خروجها. دعتها لترتاح، فردت المرأة، وقد ظهر مَيلانُ فمها بشكل واضح:

- هل أنا مخطئة؟ أليس هذا بيت عبد ربه!

وافقت أم حامد، وأخبرتها أنهم رحلوا، وأن البيت تم تأجيره لبيت عبد الرحمن يعني نحن، ودعتها للدخول:

- تفضلي يا أختي. تفضلي ارتاحي...

وعند حافة البحرة جلستا على كرسيين متقابلين. قدمت أم حامد للضيفة الغريبة طبقاً من القريشة والسكر، وقالت تحمسها على تناوله:

- قريشة طازجة.

فسألتها أم فواز:

- هل أنتم فلاحون؟!

هزّت أم حامد رأسها موافقة. كان فادي صغيراً. تعربش على شجرة اليافاوي. أضحى على غصن فوق البحرة تماماً. ومن هناك صار شاهداً. جلس على الغصن وسمع حكاية أم فواز. وللمرة الأولى يسمع أمه وهي تقول نحن فلاحون. لم يكن يعرف أن هناك فرقاً بين الفلاحين وغير الفلاحين.

وحكاية أم فواز قصيرة. تشبه اعترافات عاشقة مجهولة لاتريد أن تفضح كل شيء. كانت نافورة البحرة تشغله أحياناً عن بعض التفاصيل. كان ذلك يثيره أكثر، فينحني حتى يكاد يقع في البحرة ليسمع التفاصيل بوضوح. الأكثر إثارة في تلك الجلسة هو قيام أم فواز برفع ثوبها لتكشف عن بطنها. رآها من فوقها. بطنها أبيض مكور صغير. ومن تحته يظهر رداؤها الداخلي يصل إلى ركبتيها وهو من الخام الأبيض. شعر بفضول غريب اجتاحه ليشاهد أشياء أخرى في جسدها. لكن كلامها أخافه:

- هذا هو علام السكين!

شاهد فادي بقايا جرح كبير يمتد على مساحة البطن، فخاف. قالت أم فواز وهي ترسم خطاً بإصبعها فوق الجرح، وكأن أم حامد صديقتها من عشرة أعوام:

- ضربني بالسكين فشق بطني من هنا إلى هنا... وأعادت ثيابها وزادت في التفاصيل: شق بطني، وقتلَ رمضان الله يرحمه!

اختصرت أم فواز حكاية عشقها بسطرين لم يتمكن فادي عبد الرحمن من نسيانهما طيلة حياته: «أحببتُه وأحبني يا أم حامد. هو ماتْ وابن عمي

أمضى حياته في السجن». سمع فادي أمه تسأل لماذا لم تتزوجا بالحلال. ردت أم فواز تزوجنا بالسر. والله كان شاهداً. قالت أم حامد: الله خير الشاهدين. لكنه لايقبل الزواج بالسر. قالت أم فواز العشق قتّال يا أم حامد. العشق قتّال!

وحكَتْ أم فواز عن فرارها من حمص إلى الشام وزواجها من أبو فواز في جوبر. قالت كان أبو فواز شهماً. سترَ عليَّ. وعشنا معاً. ولم يتركني حتى بعد حادثة بيت عبد ربه!

شاهد فادي أمه تأتي بصحن زبيب وقضامة. لا تأتي أمه بهذه الأشياء إلا إذا كانت إقامة الضيف طويلة. عرف أنها تريد أن تسمع المزيد. رآها وهي تسحب الكرسي وتقترب أكثر من أم فواز لتقترب أكثر من الحكاية. خاف أن ينخفض صوتها فتضيع التفاصيل عنه، وهو فوق على غصن شجرة اليافاوي يحبس أنفاسه بحرص كي لا ينكشف أمره، فتعاقبه أمه، لكن صوت أم فواز ظل واضحاً...

سألت أم حامد ماذا جرى في بيت عبد ربه. قالت أم فواز هذا الذي ترينه على وجهي وفمي. حصل هنا في هذا المكان. فسألتها أم حامد: تقصدين اللقوة؟ نفت أم فواز وأشارت إلى المطبخ المجاور. التفتت أم حامد. التفت فادي من فوق. أصبح المطبخ موضوعاً في حكاية أخرى.فماذا تخفي أم فواز عن هذا المكان.

قالت إن أم مالك عبد ربه صاحبة البيت كانت تقيم استقبالات كل فترة وكانت تدعوها فتأتي لمساعدتها. سمع فادي أمه تسأل عن معنى الاستقبالات، فردت أم فواز يعني حفلة نسوان.

في حفلة النسوان تلك. قالت أم فواز. كنتُ في المطبخ أرتب الضيافة للنساء وكنَّ من أكابر أهل الشام. كنت أشتغل وبأمان الله، فجأة رأيته. وكررت العبارة: رأيته والعياذ بالله. خافت أم حامد. خاف فادي فوق غصن شجرة اليافاوي. سألت أم حامد:

من هو. وكان فادي يسأل أيضاً في نفسه من فوق الغصن من هو؟

ومن دون أسئلة شرحتْ أم فواز. قالت إنه كان بحجم الخروف. لا يعقل أن يكون الخروف أسود. هناك خروف بني. أما خروف أسود فأنا لم أشاهده في حياتي. من أين جاء الخروف سألت أم حامد. أجابت أم فواز لم يكن خروفاً كان يشبه قطة سوداء من الجن!

شاهد فادي أمه تلتفت إلى المطبخ. شاهد فادي أم فواز تلتفت إلى المطبخ. التفت فادي إلى المطبخ. لم يجد شيئاً. أم فواز قالت لم يكن وحيداً. كان معه قطط سوداء. فصرختُ ودون أن أشعر شُتر حنكي!

هدأت الحكاية. لم تعد أم فواز تحكي. لم تعد أم حامد تحكي. لم يعد فادي يسمع. مرت نصف دقيقة. هل هو الخوف. هل هو الدهشة. وللوهلة الأولى لم تعد شجرة اليافوي مكاناً يطمئن إليه فادي. صارت جزءاً من مطبخ مخيف تعبث فيه قطط سوداء كل واحدة بحجم خروف. أحس أنها مليئة بالقطط السوداء. قطط سوداء لها شوارب مثل شوارب الزير سالم المرسومة على أحد كتب أبيه. لها عيون مثل عيون الشياطين التي سمع عنها من أمه ذات يوم. استعاد الحوار المخيف مع أمه. قالت أمه هم ليسوا مثل البشر. عيونهم بالطول يافادي. ولهم قرون مثل قرون الماعز. وينامون مع الإنسان في السرير نفسه ولا يحس بهم.

قالت أمه. ولماذا خفتِ من القطط يا أم فواز. قالت أم فواز لا أعرف. قالت القطط مخيفة. قالت أيضا ظننتُ أنهم من الجن. فاطمأنت أم حامد. اطمأن فادي. هم قطط ولكنها سوداء يمكن أن يخاف منها الإنسان.

غّيرت أم فواز الموضوع. قالت عندما صرختُ وشاهدتني أم مالك وقد شتر حنكي. أعطتني عشر ليرات. وقالت لي عندما يتحسن وجهك عودي. الله يعطيك العافية.

قالت أم فواز وهي تتذكر لحظات عصيبة:

- غطيتُ وجهي وخرجتُ من البيت وصرت أذهب من شيخ إلى شيخ ليعود وجهي كما كان. وقد تحسن الآن كثيراً.

تنفست أم حامد الصعداء. كأنها كانت تشاهد فيلماً وانتهت مشاهده المخيفة أو المثيرة. أما فادي فهَمَّ بالنزول. قال في نفسه سأنزل حتى لو عاقبتني أمي. لكنه لم ينزل. فتحت أم فواز حكاية جديدة. قالت لأم حامد. كان في بيت عبد ربه أسرار كثيرة. منها ما عرفته ومنها مالم أعرفه. كان مالك عبد ربه يحب نجوى أغريبوز رأيت صورها في دفاتره كانت أحلى البنات. وكانت ملك أخته تحب شاباً اسمه شوقي وسمعتُها تقول لنجوى إن شوقي يقبلها ويعصر صدرها. كنت أسمع القصص وأنساها، وكنت أحياناً أود لو أعرف ماذا جرى للمحبين ولا أجرؤ على السؤال. أشهد بالله يا أم حامد كانت حارة المؤيد أجمل حارات الشام رغم ما مر عليها من مشاكل.

صمتت أم حامد، وكأنها ترتاح من الحكي، ثم عادت إلى حديثها. بعدها أنا لم أعد آتي. لم أعرف شيئاً عن حارة المؤيد. هل تعرفون مكان السكن الجديد لبيت عبد ربه؟!

حكاية

شكري بيك مع عبد الناصر!

تحول قصر المؤيدُ يوما بعد يوم إلى خربةٍ تجمّعتْ فيها الأوساخُ والملابسُ المهترئةُ وأطباقُ التنكِ المستهلكة وقطع البلاستيك التالفة وأكياس الورق التي يأتي بها الهواء من الشارع والأماكن المجاورة مع كل عاصفة غبار تحط في فراغ الخربة.

اعتاد الناس على خربة المؤيد. شاهد بعضُ السكان أفاعي صغيرةً تتسللُ بين الأشياء المرمية في الزوايا، ثم تختبئ بين حجارتها المكدسة، وكانت الخربة تغصُّ بالجرذان والفئران التي تخرج وتعود إلى جحورٍ بنتْها بين الركام، وكأن المساحة المهدمة قد أصبحت ملعبها. كذلك تحولت الخربة إلى مكان لقطط وسخة ومريضة تموء في الليل والنهار، وهي تبكي على حالها.

تحوّلَ حائط البلوك الأجرد إلى سورٍ يخفي وراءه بقايا مأساة القصر الذي هجرهُ صاحُبه ثم خرّبه وتركه ليعيش مأساته ليجن أو يجننه الناس. حلّ حائطُ البلوك مكانَ جدران كانت تزيّن المنطقة كلها، بأحجارها البيضاء ومنحوتاتها المتقنة وعرائش الورد الجوري والياسمين والمجنونة والبلاب، وكان هذا ينذر بأيام لا تشبه أيام الشام الحلوة...

كان الرئيس شكري القوتلي، في أيامه الأخيرة قبل أن يتنازل عن الحكم، يمرُ بمحاذاة الحائطِ وهو يركب سيارته إلى قصر الرئاسة في حي المهاجرين. وفي كل مرة يتحول هذا الحائط إلى شريط سينمائي كأنه يخفي

خلفه أحداثاً تأخذ البلاد إلى مآسيها. يمر بسيارتِه بجوار الحائط، فيبدأ الشريط بالدوران. أحياناً يتذكرُ أيامَ فرنسا ومقاومة الاستعمار. يتذكرُ أحكام الإعدام التي لاحقوه بها. وكان يقول:

كنا يداً واحدة فانتصرنا. وأحياناً يتذكر حسني الزعيم المجنون الذي غيّر هوية سورية وفتح باب الانقلابات عندما أطاح به وأنزله عن رئاسة البلاد. وكان يقول: سامح الله الزعيمَ غّير وجهة سورية، ودفع الثمن حياته!

وأحياناً يتذكر العقيد أديب الشيشكلي ويُحدّث نفسه «كاد يخرب البلد بحرب أهلية» وسريعاً دفع الثمن وقتلوه.

كان القوتلي يتذكرُ أيضاً أصدقاءَه أولاد المؤيد، وخاصة الدكتور خالد. كان يريدُ لهذا القصر أن يبقى كذاكرة حيّة لحيويةِ مدينةٍ يحبُها ولا يتخلى عنها أبداً، وسألَ نفسَه باستغراب وحزن:

«لماذا يتغير كل شيء في هذه المنطقة، أيكون الجسر الأبيض منطقة ملعونة فعلا؟!».

في آخر مرة نظر فيها إلى خربة قصر المؤيد، كانت وحدةُ العرب هاجسَه الأولَ والأخيرْ، ولم يكن ذلك يرضي جميع حلفائه السابقين. أعجبه عبد الناصر ولم يعجب الآخرين. وعندما أعلنَ عبد الناصر تأميمَ قناة السويس. توهجتْ عينا القوتلي. وخافَ على عبد الناصر. ومع تصاعد معركة القناة دعا الله:

«يارب تمر الأمور على خير بين فرنسا وبريطانيا وجمال».

عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر. كان بيت القوتلي في جادة الرئيس يغصُّ بالزوار. كان البيت يبقى مضيئاً إلى صلاة الفجر. لم يكنْ ينامُ

كثيراً. كانت الأحداثُ تشغله، ويفكر بعمل كبير. وعندما جاءت أخبار دخول الاتحاد السوفييتي على الخط وإنذار بولغانين ردد بتلقائية:

كنت أتوقع ذلك. الله يحميك يا جمال...

لم تنسَ سورية مصرَ ولم ينسَ عبد الناصر مواقفَ السوريين في العدوان الثلاثي، وكانت تلك العلاقة المتينة أيام الحرب مفتاحاً لحدثٍ كبيرٍ وقعَ بعدها بأقلّ من سنتين هو قيام الجمهورية العربية المتحدة التي جمعت مصر مع سورية في دولة واحدة...

كتب السوريون على الجدران عبارات كثيرة، وعلى جدار خربة قصر المؤيد، كتبت عبارة مختصرة لها معنى كبير:

عاشت الوحدة. عاش عبد الناصر والقوتلي!

تزين الجسر الأبيض بصور الرئيسين شكري وجمال، وبلافتات كبيرة تؤيد الوحدة. دبت الحيوية في الحارات والأسواق والشوارع. الجميع يتحدثون عن الوحدة. الجميع مع الوحدة. حتى الذين كانوا ضدها أعلنوا تأييدها.

* * *

علّق ناظم الإيتوني على أكثر من متجر له في سوق الحميدية لافتات كبيرة تؤيد الوحدة، تحمل الدافع الحقيقي لهذا التأييد المعلن، حملت اللافتة التي وضعها على محل بيع العطر عبارة تقول:

- شكري بيك لعينيك!

يومها انتقده بعض التجار. قال له أحدهم:

- تأخرت. تؤيد القوتلي وكأنك تؤيد عبد الناصر!

رد ناظم:

- ماشفنا خير عبد الناصر من شره. نحن نحب القوتلي لأنه أراد الاستقلال. والعرب يحبون عبد الناصر لأنه يريد استقلال بلاده ووحدة العرب!

لم تُرضِ هذه العبارات تجار السوق. تاجر واحد من سوق الحميدية دافع عن ناظم الإيتوني. قال لهم:

- وقت يفتح عبد الناصر سوق مصر كلنا نؤيده!

فرد تاجر آخر:

- وقتها يكون قد بلع الشام!

وعندما تنازل شكري القوتلي عن الحكم إلى جمال عبد الناصر بعد إعلان الوحدة في ٢٢ شباط ١٩٥٨ تحولت الشام إلى مدينة اسمها المهرجان. وسجلت أكبر حدث في تاريخها.

سيطرت خطواتُ شكري القوتلي وجمال عبد الناصر والوحدة على الحوار الذي دار بين أبناء الحارة كما هو الحال في سورية كلها. تحولت أحاديث السكان إلى موضوع واحد. الوحدة وعبد الناصر، ومع أن آلافاً مؤلفة من السوريين كانت تؤيد الوحدة، فقد عاندها بعض سكان حارة المؤيد. علا صوتُ سعيد العطري في مشرقة بيت عبد ربه:

- الوحدة مع مصر سترجع بسورية إلى الخلف كثيراً. وستتعطل مصالحنا. المصريون سيلتهمون الشام مثل قطعة جبنة طرية. مصر تريد أن تنقل مشاكلها مع العالم لبلاد العرب ونحن حمّالو الآسية!

أيّدهُ في ذلك أبو صلاح البوشي، والشيخ عبده الخرسا. وتوقع الشيخ الخرسا أن ينقلَ عبد الناصر أجهزة مخابراته إلى الشام. فهذا الرجل، كما قال

الخرسا، «لا يستطيع أن يعيش ويحكم دون مباحث وسطوة»، ورد أبو صلاح موافقاً:

- علاقات عبد الناصر مع الروس لا تنبئ بخير. لم يبق إلا أن يأتي الروس إلى بلادنا بعد الفرنساوي.

وتساءل الشيخ الخرسا متأسفاً:

- لا أعرف ما الذي يجعل شكري بك يعشق الروس!

كان مالك عبد ربه يتحرك لتقديم الخدمة لضيوف أبيه، وكان يسمع باهتمام. وضع طبقاً كاملاً من الحلويات أمامهم، وأخذ يوزعها في أطباق صغيرة مذهبة، وهتف بهم:

- كلام ناظم بيك مهم. لا تخافوا من الوحدة ومن زعيم اشتغل من أجل الاستقلال، وفي الوقت نفسه مخابرات عبد الناصر لا تناسب السوريين والصحافة والزعماء الكبار.

سأله سعيد العطري:

- مافهمت قصدك يا أستاذ مالك. فرد مالك:

- يعني لازم تكونوا مع الوحدة الصح خالية من مخابرات عبد الناصر!

أعجب هذا الكلام أبو مالك، فهز رأسه بسعادة يؤيد رأي ابنه الشاب، ثم قال مازحا:

- كلام مالك حلو مثل المدلوقة!

وقال يتابع حديثه:

- ارتاحوا قليلاً من السياسة ياشباب. القوتلي بذات نفسه سيريّح حاله من السياسة لو شاهد المدلوقة بالقشطة...

وأضاف:

-تفضلوا...

ضحك أبو صلاح وقال:

- يبدو أنه سلّم الحكم لعبد الناصر، وهو يأكل مدلوقة...

فضحك الجميع، فقال سعيد العطري، وكأنه يريد أن يحسم الموقف:

- شكري بيك غلط غلط كبير.

ورغم أن القشطة كانت تدور بطعمها الأخاذ في أفواههم، فقد جاء قرار سعيد العطري من جديد، والصحن في يده:

- لنقل الحقيقة. أخطأ شكري بك بالتنازل عن الحكم لعبد الناصر. صارت البلاد سيّاحة نيّاحة لرجال عبد الحكيم عامر، وخربت البلاد وضاعت مصالح الناس .

لم يتدخل أبو مالك كثيراً بالحديث، كان مشغولاً بضيافتهم، ولم تتمكن المدلوقة من وقف الحديث، لكنه وعندما ورد اسم فلسطين في حديثهم قال أبو مالك:

- مهما كان. يظل عبد الناصر مكسباً لفلسطين.

ولم يرق ذلك للشيخ الخرسا، فعلّق ساخراً:

- في ظل عبد الناصر على فلسطين أن تتوقع الأسوأ!

ضحك أبو مالك، وهو ينظر إلى ابنه، وقال:

- الجيل الجديد عشقان عبد الناصر، بشرط يكون ديمقراطي.

أما مالك، فكان مهتماً بحديث ضيوف أبيه. كان يخالفهم في كل مايقولونه عن عبد الناصر، و كان يرى مواقف القوتلي (تاريخية)، وقال باستغراب:

- أستغرب أن تفتح مصر أسواقها أمام تجار الشام ولا يقبلون!

لم يناقش أحد هذه الفكرة. الشيخ الخرسا فقط. علّق بعد الخروج من البيت:

- مالك يجهل ما ستجلبه الأيام القادمة لهذه البلاد.

فرد ناظم الإيتوني:

- هذه حماسة شباب. نحن أيضاً تحمسنا للكتلة الوطنية بنفس الطريقة.

وعلّق الشيخ عبده الخرسا:

- الله يسامحك ياشكري بك!

* * *

بعد فترة قصيرة من توقيع اتفاق الوحدة خرج شكري القوتلي من بيته فجراً، لم يرتدِ ملابسه الرسمية. ترك طربوشه في البيت، ورمى على رأسه شالاً أبيضَ مطرزاً بخيوط صفراء، ومشى وحيداً باتجاه جامع الجسر الأبيض، وهناك صلّى صلاة الفجر، وجلس مع المصليين فعرفوه، وتجمهروا حوله، يحدثونه عن الوحدة و عن عبد الناصر؟!

كان يتوقع أن يجد كثيرين من حارة المؤيد في الجامع. لم يكن هناك إلا أبو صلاح البوشي وأبو مالك عبد ربه. كانت أجوبة الناس تتداخل. كثيرون منهم يحبون عبد الناصر، لكنهم متحمسون. وكثيرون يتخوفون منه ولكنهم متسرعون. لمحَ القوتلي أبو صلاح وأبو مالك بين الناس، فحيّاهما، وقال بصوت أراد أن يسمعاه:

- أنا مقصر بحق الجيرة!

هز أبو مالك رأسه، ولم يفهم أبو صلاح قصده. وتابع القوتلي حديثه مع المصلين، ثم قال:

- سأحكى لكم قصتي مع هذا الشاب الذي اسمه عبد الناصر.

ساد صمت بين الحضور، جلس كثيرون ممن كانوا واقفين. ومط آخرون رقابهم ليسمعوا ماذا سيقول شكري بك. وظل أبو صلاح وأبو مالك في مكانهما، وسمعا ما قاله القوتلي بصراحته المعروفة وصوته الجهوري:

- عندما توليت الرئاسة في مطلع الأربعينيات كنت أزور القاهرة وهناك صليت بالجامع الأزهر. كانت أخبار الشام وأهل الشام ومعاركنا مع الفرنسيين قد وصلت إلى أهل مصر الذين يعتبرون السوريين شجعان وقوميين...

وصمت شكري بك، وكأنه يسترجع ذكرى غريبة ومؤثرة في حياته، ثم أضاف:

- هناك تعرفت إلى ضابط مصري شاب. حيّاني بكبرياء وفخر. وقال: سيدي الرئيس. أنا جمال حسين ضابط في الجيش المصري. رأيت موكبك يدخل الجامع الأزهر، فأحببت أن آتي لأصافحك و أتحدث معك...

كان جامع الجسر الأبيض قد هدأ تماماً، فكثيرون ممن كانوا يغادرون الجامع توقفوا مع حلقة من المصلين التفت حول رئيس بلادهم المتنازل لعبد الناصر، وأنصتوا، فهذا الرئيس يحكي شيئا من تاريخ لم يسمع به أحد. وتابع القوتلي:

- رحبتُ به. قلت له. أهلاً وسهلاً يا ابني، بك وبكل جنود مصر. وكان متحدثاً يختصر ويكثف المعنى. حكى لي عن مصر وسورية ومعركة

فلسطين حكى لي عن المشاريع التي تعد لمنطقتنا. حدّثني عن ضرورة وحدة سورية ومصر، ولا أخفيكم. أحببت فيه حماسه وشجاعته وأفكاره. وعندما انتهى اللقاء وأراد أن يودعني وجدتُ نفسي أقول له:

أتمنى يا جمال أن نلتقي مرة ثانية وتكون سورية قد توحدتْ مع مصر، وأرجو أن تكون أنت رئيساً لمصر. ومرّت سنوات وصار هذا الضابط الذي تعرفونه باسم جمال عبد الناصر رئيساً لمصر...

وجاءت أصوات بين المصلين: الله أكبر. الله أكبر...

وشاركهم أبو صلاح الدهشة!

همّ شكري بيك بالنهوض. فإذا بصوت يأتيه من خلف المصلين:

- شكري بيك. شكري بيك!

عاود شكري بيك جلوسه، وراح يبحث في الوجوه عمن يناديه. أطل وجه شاب ملتحٍ، وراح يدفع المصلين ليقترب منه، ثم هتف وهو يلهث:

- شكري بيك. أنت تتحدث عن الوحدة ومصلحة العرب. هل نسيت مصلحة المسلمين؟!

قطب شكري القوتلي حاجبيه، ورد عليه بقسوة:

- لا يا ابني. لاينبغي أن تطرح هذا السؤال علي. ثم هل تعتقد أن هناك فرقا بين مصلحة العرب والمسلمين...

ساد هرج ومرج، وجاء سؤال من شاب آخر:

ــ ومن يضمن أن تستمر الوحدة لمصلحة العرب والمسلمين؟

رد القوتلي:

- الشعب. إذا كان الشعب يريد الوحدة. إذا كنتم أنتم تريدون الوحدة، فلا يستطيع أحد الوقوف في وجهها. لا الإنس ولا الجن!

ابتسم أبو صلاح، وقال في نفسه:

- «كلام القوتلي مهم!».

نهض شكري القوتلي، ومشى باتجاه باب الجامع ينوي الخروج. أخذته الذاكرة إلى خالد المؤيد والجن. وجد نفسه يتوقف ويبحث عن أبو مالك عبد ربه، ويناديه:

- ياجار. شو أخبار الدكتور خالد؟!

غصت العبرات في عيني أبو مالك، وقال:

- تراه مجنوناً في حارات جبل الصالحية والشيخ محي الدين!

صمت القوتلي برهة، ثم حنى رأسه، ومشى وهو يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

طوفان!

اندفع الناس نحو ساحة الجسر الأبيض بكثافة غريبة. كانوا يصعدون من جهة الطلياني وساحة عرنوس ومن جهة الشيخ محي الدين كعراضات الموالد. تتوالد حشودهم من الحارات المتداخلة، ثم يزدادون إلى أن تضيق بهم الشوارع، وكذلك حصل قرب حارة المؤيد...

اندفعت أعدادٌ كبيرةٌ منهم من جهة منطقة الجبة والشيخ محي الدين تعاكس حركة التراماواي والباصات حتى تكاد توقفها، وفي وسط الساحة الصغيرة تشكّل تجمعٌ كبيرٌ لتيارات جارفة من البشر كانت تتدفق كسيل زاحف بعد وابل من مطر موسمي كثيف.

كانت الوجوه مشرقة متفائلة يشع بريق غريب من عيونها تبحث عن شيء ما لا تعرفه. جزءٌ كبيرٌ من أصحاب هذه الوجوه لا يعرف لماذا يركض مع الراكضين، فما إن شاهد المجموعات تتحرك حتى تحرك معها، وجزء آخر سمع بالخبر...

انتشر خبر كالنار في الهشيم:

- جمال عبد الناصر يتفتل في الشارع!
- في أي شارع يمشي عبد الناصر؟!
- من هو الذي شاهده؟!
- ومن أطلق الخبر؟!

أسئلة كثيرة على أفواه الناس، ولا أحد يجد جواباً مقنعاً لأي سؤال منها. أحد الأجوبة قال إن عبد الناصر لم يكن يمشي. أوقف سيارته المكشوفة السوداء، ثم نزل بنفسه واشترى عدة أقراص ليتذوق (الطعمية السورية)، أي الفلافل!

وفي جواب آخر أن عبد الناصر كان يحيي الناس ويصافحهم ويضحك معهم في الشارع قبل أن يصعد إلى السيارة وتمضي به باتجاه القصر الجمهوري في المهاجرين.

ومن الأجوبة التي لفتت أنظار كثيرين أن رجلاً رث الثياب طويل الشعر يرتدي قمبازاً مقلماً باللون الفضي والأبيض والأسود، هو من أخبر الناس بوجود جمال في العفيف، وصاح بصوت عال: اهربواااا!

ومع أنه كررها عشرات المرات، لم يهربوا!

جاء صوت رجل كهل أنيق يرتدي طقماً كحلياً وربطة عنق زرقاء، فأيد ماقاله صاحب القمباز:

- عبد الناصر هذا الذي تركضون من أجله هو الذي سيخرب البلاد بدلاً من أن يوحدها! وقال أيضا:

- المجنون معه حق. اهربوا.. اهربوا!!

وضاع صوته في الضجيج، فمن غير المعقول أن يصدق أحد هذا القول، لذلك بقي الرجل يمشي وحيداً يبلع ريقه، فيما ظل صوت المجنون يتردد على الرصيف المواجه:

اهربوا!... اهربوا!

تبادل بعض المتجمعين في الشارع النظرات، وسأل واحد منهم:

- أيكون الحكيم حكمنا!

وضحكوا...

هي إذاً خدعة مجنون صدّقها الناس. إذ كيف سيترك عبد الناصر سيارته ليشتري (الفلافل) السورية، وهل من الصعب على قصر الضيافة أن يشتري له ألف قرص دفعة واحدة؟!

وفجأة تعالى صوت في الجسر الأبيض، قرب المقهى:

- عبد الناصر فوق في منطقة العفيف. عبد الناصر في العفيف.

أعادت هذه العبارة الناس إلى التحرك بسرعة أكبر. صار التجمع فوضوياً. تدافع الناس بطريقة همجية. سقط أطفال في الطرقات المتجهة إلى العفيف، وكاد بعضهم يموتون نتيجة التدافع، وعند جامع العفيف أغمي على امرأة سمينة دفعتها الحشود وداست على جسدها الأقدام.

تجاوز الوقت صلاة العصر، وقارب موعد المغرب. لم تكن الشمس قد غابت تماماً. لكن هذا المكان يبدو معتماً حتى قبل الغروب، فجبل قاسيون يحجب عنه النور تلقائياً. يخيم شحوب المساء على حاراته قبل أن يحل المساء.

في ذلك الشحوب الذي تغطيه جلبة الناس المتدافعين. كان شوقي موجوداً، مدهوشاً. «نعم كنتُ مدهوشاً» كما قال لملك، وهو يحكي لها عما حصل في ذلك المساء:

- تصوري. تدافع الناس كأمواج قوية تضرب الشاطئ، فرموني. لا يمكن أن يواجه الواحد منا العشرات وهم يتدافعون كالمجانين.

- ولماذا يتدافعون على هذا النحو؟!

- يريدون مشاهدة جمال عبد الناصر. إنهم يحسون أنه زعيمهم فعلا...

- وأنت ألم تكن تود مشاهدته؟!

- بلى. ولكنني لم أندفع كما اندفعوا... كنت أمشي بشكل طبيعي...

- وهل شاهدته؟!

- لا... كان ذلك صعباً...

وصف شوقي المشهد بعبارة غريبة. قال لملك بعد أن أطلق صفيراً من شفتيه:

- شيء مهول يا ملك... شيء مهول فعلاً...

أما أبو صلاح، فتوالدت المشاهد أمام ناظريه كيوم الحشر، كما وصفها على دفتره. فما إن سمع أحد الزبائن الذي يقف عند باب دكانه أن عبد الناصر موجود في الشارع حتى رمى ما اشتراه، وانطلق مع الناس.

هكذا ببساطة فعل أبو صلاح نفسه، رغم أنه لم يكن يوافق على الوحدة مع مصر. ترك الدكان مفتوحة، وخرج ليشاهد جمال عبد الناصر، سحره عبد الناصر، فنسيّ تحذيراته في حارة المؤيد من هذا المصري الذي يريد أن يحكمنا بدل القوتلي!

طرح أسئلة كثيرة على الناس المتدافعين محصلتها معنى واحد:

- أين هو جمال عبد الناصر؟!

لم يجبه أحد. مشى مع الناس صعوداً ووصل مع الجموع إلى العفيف، ثم اتجه شمالاً باتجاه شورى، وهناك رأى الناس وقد أصبحوا كتلة واحدة تجمعت حول بائع الفلافل...

لم يكن عبد الناصر موجوداً. كان قد غادر المكان. ولم يبق من الحكاية إلا بائع الفلافل فقط وبعض الأطفال العاملين معه، وهو يجيب على سيل الأسئلة الكبير الذي يجتره الناس:

- هل أكل عبد الناصر الفلافل عندك فعلا؟!

كتب أبو صلاح على دفتره، صفحة كاملة عما حصل، كتبها بعد زمن طويل من وقوعها. كتبها وكأنه يعاتب عبد الناصر، أو كأن عبد الناصر يجلس معه على طاولة واحدة:

«لا أعرف ماذا أقول لك يا جمال...

هل تصدق أني تركت دكاني مفتوحة عندما سمعت أنك جئت إلى الجسر الأبيض والعفيف... تركت الدكان ومشيت خلف الناس مثل المجنون لأراكْ. فماذا فعلت بالناس. هل سحرتهم. هل سلبت عقولهم.

هل ستعمر بلادهم وتجعلها قوية. هل ستكون أحسن من حسني الزعيم وأديب الشيشكلي وشكري بيك وخالد العظم وخالد بكداش ومعروف الدواليبي...

الناس ترسم أحلامها على إيمانك بالله وطلتك وتلويحة يديك...»

وكتب أبو صلاح على دفتره تفاصيل إضافية، وخاصة تلك التي تحدث فيها عن رد فعل حارة المؤيد على قرارات عبد الناصر:

«كل الحارة تمنت لو أنها شاهدتك، وأنت تأكل الفلافل في شوارع الشام. ناظم بيك، وأبو مالك، وسعيد العطري، ومالك... كثيرون كانوا يتخوفون من أفكارك، ومع ذلك تمنوا لو أنهم شاهدوك... حتى نسوان الحارة تمنت كل واحدة منهن أن تراك...»

وفي اليوم التالي، نفذت كل الصحف من مكتبة الحمصي، وقال أبو أنس لمالك عبد ربه الذي أخذ حصته المحجوزة ذلك الصباح:

- تصور يا أستاذ مالك. اشترى الناس كل الجرايد، ولم يبق حتى النسخ التي كنت أعلقها بالملاقط على سلم الحديد!

حكاية

التلصص على جسد فايزة!

نفت أم مالك عبد ربه أن يكون صراخ أم فواز في تلك الصبحية نتيجة ظهور الجن في المطبخ التحتاني. حولت القصة إلى مجموعة طرائف، لتخفف من حدتها، فيظن الناس أنها نوع من المزاح، ودافعت عن فكرتها قائلة:

- القطط تسرح وتمرح في الفرن. والعمال يرمون الشوادر الساخنة على السقيفة المتاخمة لبيتنا. وفي الشتاء تهجع القطط بين الشوادر، فتنحشر فيها القطط السوداء والبيضاء طلبا للدفء!

أعجب أبو مالك بجبروت زوجته. وبهذا التبرير المقنع، فمن أين يأتي الجن، ولماذا يستهدفون بيته عن بقية الحارة. وسألها ذات ليلة قطعت فيها الكهرباء، وهو يراقب رد فعلها:

- هل أنت متيقنة من حكايات قطط الفرن؟!

تمالكت أم مالك نفسها. وقالت:

- عجبي يا أبو مالك. أولادك متعلمون. مالك سيتخرج قريبا وأنت قررت زواجه. علاقته مع السياسيين والصحفيين تميزه عن الجميع. وأبوه، يعني أنت، سيّد من تحدّث بالحضارة. وملك تحكي لغتين. وفلك متفتحة وجريئة. هل تصدق أن الجن يظهرون لنا، أنا واثقة أن الجن يخافون أن نظهر لهم!

ابتسم أبو مالك، وسألها:

- ومالك؟ وملك؟ وفلك؟ هل يفكرون مثلك؟

أجابت بثقة:

- صحيح تخوّشوا في البداية من المطبخ، لكن لاتهتم. أولادنا لاتخيفهم هذه الخرافات.

هز رأسه، وضحك، إلا أن صورة عادل المؤيد أيام الضباب تراءت أمامه، وتذكر الدكتور خالد وقد تحول إلى تائه مشرد في شوارع الجسر الأبيض والشيخ محي الدين، يركض فيركض خلفه الأطفال يهتفون: يا حكيم حكمنا!

* * *

ألغت أم مالك استقبالاتها بعد تلك الحادثة. لكنها لم توقف زياراتها لصديقاتها اللواتي حضرن استقبالها. وراحت تبث طرائف عن حكايات المطبخ والحمام، فتوحي بأن الحكاية أخذت أكثر من حجمها:

- طيب إذا كان الجن من مخلوقات الله. أليس من حقهن الاستحمام وتناول الطعام؟ نحن بيتنا مفتوح لجميع المخلوقات. خليهم يأكلوا. خير الله كثير...

وكانت طرائفها تقابل بسعادة من صديقاتها، و بعضهن كُنّ يحملن الأفكار نفسها عن خرافات ظهور الجن للناس، فتجاوبن معها، وزدن عليها طرائف أخرى، فتراجعت بعد أسابيع كل الأقاويل التي انتشرت، ونجحت أم مالك في خطتها، إلا أنها واجهت استعصاءً مع هدباء المؤيد، فقد أنصتت هدباء كثيراً إلى طرائفها، ولم تكن تواجهها بالقبول، ولا في الرفض...

في آخر الأمر، استحلفتها هدباء أن تقول الحقيقة:

- اقسمي بأولادك يا أم مالك. أن الأمور كما تتحدثين!

تغيّر وجه أم مالك، فالمسألة عند هدباء تأخذ بُعداً آخر. لم يطلب منها أحد أن تُقسم. وهي في حيرة من أمرها. لاهي رأت الجن، ولا يمكنها تصور أشكالهم، ولا الجن تحرشوا بها. فهل ستقسم بأولادها؟ هل ستحكي لها هواجسها؟ هل ستحول الأمر إلى طرفة جديدة؟

كان قرارُها حازماً، فلابد أن ما حصل كان مصادفة. صحيح أنها خافت. لكن الخوف طبيعي في هذه الحالات. قالت لهدباء:

- هواجس من هذا النوع تحصل في كل البيوت. سببها العتمة أو تشوش الرؤيا، وأحيانا التفكير في الموضوع نفسه، ومنشأ الأمر خرافات نتناقلها من جيل لجيل.

وحاولت أن تمازحها، فإذا بها تقول:

- هل نسيت المثل الذي يقول: لا تفكر بالجن فيحضرون. نحن نوسوس بهم بأفكارنا، فيحضرون!

وسألتها:

- هل شاهدت أنت الجن إلاّ في البشر؟!

هزّت هدباء رأسها ببرود، ونهضت باتجاه المطبخ.

* * *

بعد أيام من زيارة أم مالك لحي الروضة، حصلت واقعة أخرى في حارة المؤيد، الواقعة عاشتها فايزة الإيتوني وحدها، لكن تفاصيل كثيرة نقلت عن ألسن النساء.

لم تكن فايزة تخرج كثيراً من البيت. كانت فتاة جميلة شقراء ممشوقة القدّ. عرفت بالاحتشام. مؤدبة. تمشي وهي تخفض نظراتها. تتحاشى النظر

بعيون المارة. في كل مرة كانت تريد فيها الخروج من البيت كانت أمها تطلب منها الحشمة في ملابسها، والهدوء في مشيتها وكثيراً ما كانت تصحبها في مشاويرها...

وفايزة هي ابنة ناظم الإيتوني. نُقلتْ إحدى المرات في سيارة إسعاف بسبب إصابتها بحالة إغماء في الحمام. دخان الحمام كاد يخنقها كما قالت أمها. في المرة الأخيرة تعالى صراخها من غرفتها التي تطل نافذتها على حارة المؤيد، ووصل صوتها إلى محيط البيت.

كان ذلك في صباح يوم السبت. أيقظتها أمها في ساعة مبكرة لتذهب إلى أول أيام امتحان صف الحادي عشر، الذي هي فيه. نامت في ساعة متأخرة من الليل تُحضّر لامتحانها، منهكة لم تشبع من الساعات القليلة التي نامت بها.

نهضت من فراشها. واستحمت وعادتْ لترتدي ثيابها. أحست بحركة عند النافذة، وكأن شيئاً يتحرك خلفها. كانت فايزة عارية من ثيابها، فتداركت الأمر بأن غطت نفسها بيديها. فالنافذة لا يمكن أن تكشف تفاصيل غرفتها إلا إذا تسلق شخص ما الجدار.

أمسكت شرشفاً مرمياً على السرير، ولفت جسدها، واقتربت من النافذة لتتفقدها، فإذا بها تراه وقد شغل رأسه حجماً كبيراً من النافذة، سقط على الأرض، ثم فرّ بعيداً. صاحت بهلع:

ماما.. ماما..

ترامى صراخها إلى خارج البيت. ثم ارتمت على الأرض مغمياً عليها، وقد ظل الشرشف يلف جسدها. وقال أخوها محمود فيما بعد: إن قطاً أسود كبيراً ظهر عند نافذتها فجعلها تصرخ من الخوف قبل أن يغمى عليها!

فقدت فايزة النطق عدة أيام. وضاعت فرصة الامتحان الأخير ذلك العام. انكفأت عن الناس. كانت تصرخ عند أي حركة. وكانت أمها تبقى دائماً إلى جانبها، ولم تستفد من كل التمائم التي قرأها الشيخ عبده الخرسا فوق رأسها ليجعلها تطمئن!

لم تصدق النسوة كل هذه التفاصيل، وشرعت الحكاية تأخذ بعداً آخر، فمن عريس الغفلة الذي تسلق نافذتها يتلصص على فايزة الحلوة لإمتاع نظره بجسدها الأبيض الممشوق؟ هل هو قط أشقر أم أسمر؟ هل هو من حارة المؤيد أم من الروضة أم من المهاجرين؟

اشتغلت الألسن بحكايات كثيرة عن فايزة، وكانت أمها تبكي وتؤكد براءة ابنتها من هذه الأشياء...

لم يصدق الحكاية إلا عدد قليل من سكان حارة المؤيد إلى أن ظهرت حكاية ظهور الجن في بيت شكري القوتلي نفسه، الذي ترك بيته وغادر الشام وكانت الشام تغلي بأحداث تهدد الوحدة، فأضيفت حكاية فايزة إلى حكايات الجن في حارة المؤيد!

غرفة العناية المشددة:
الشام أيام عبد الناصر!

صلّى أبو حامد عبد الرحمن الجمعة في الجامع الأموي، واتجه إلى بيته الجديد في حارة السبع طوالع. استأجر هناك غرفة ومنافعها لم تكن تتسع له ولزوجته ولأولاده الثلاثة، ولم يكن حامد أكبرهم قد دخل المدرسة بعد. سألته أم حامد:

- لماذا سموا هذه الحارة السبع طوالع، ولا يوجد فيها لا طلعة ولا نزلة؟!

ضحك أبو حامد. قال لها وهو يهم بتناول طعامه من سُفرة القش التي وضعتها على الأرض:

- لن أتشاطر عليك. أنا لم أكن أعرف، والسؤال ليس عيباً!

شاركته الضحك، وقالت:

- يعني توجد قصة مضحكة في سؤالي؟!

- القصة معي ومعك. أنا كنت أعتقد الأمر على هذا النحو، لكن أحد الجيران الشوام أخبرني الحقيقة.

سألته:

- وما الحقيقة. هات لشوف!

فقال:

- الشام كلها ماء. موصوله بقنوات لكل حارة وأحيانا لكل بيت. في حارة السبع طوالع. هناك سبع نبعات صغيرة في الحارة، وكل نبعة يسمونها طالع الماء!

وضحكت. وضحك أبو حامد. قالت أم حامد:

- في الضيعة نسميها: العين!

جاءت أصوات هتافات صاخبة من الخارج. قطعت الأصوات حديث طوالع الماء. جاء اسم عبد الناصر في الهتافات. قال أبو حامد:

- أهل الشام مقسومون. قسم مع عبد الناصر يصفق ويرقص في الشوارع ويهتف كما هتف أبناء مصر في الست وخمسين وأغلبهم من الفلاحين. وقسم يحوقل ويسأل ولا يعرف ماذا تحمل الأيام القادمة.

ردت أم حامد. وهي تهز سرير طفلها فادي:

- يخزي العين على عبد الناصر. كل الناس تحب عبد الناصر. ربي سبحانه يضع سره بأضعف خلقه. وضع بعبد الناصر سراً كبيراً. سر للناس الغلابة والمساكين.

تم نقل أبو حامد من التعليم إلى الشام. صار موظفاً. جاؤوا من ضيعة قريبة في زنار الشام الريفي الواسع. هاجر كثيرون من الريف إلى المدينة. أما أبو حامد فتم نقله بقرار. فتعليم أبناء الريف أفضل وأشرف من استئجار غرفة بالسبع طوالع، كما قال لزوجته التي فرحت بالنقل إلى دمشق والسكن بالسبع طوالع، لكن القرار قرار!

التقى أبو حامد أصدقائه وأبناء قريته الذين جاؤوا تباعاً إلى الشام وتوظفوا أو اشتغلوا عمالاً. شكلوا مجموعة أصحاب من قرية واحدة أطلقوا

عليها اسم (الشلّة). وكثيرا ما استفاق الطفل فادي على أصوات ضحكات هذه الشلّة أو حواراتها.

كان فادي قطعة صغيرة بحجم مخدة. كانت حصته من غرفة السبع طوالع سريراً من حبال صنعته أمه بعد أن ربطت حبلين بعمود من أعمدة السقف.

فادي كان نائماً في السرير. استيقظ. فهزّت أمّه الحبل فعاد للنوم. بيوت حي العمارة مثل بيوت ضيع الشام. السقوف من خشب وفوق الخشب طين. وحيطان من لِبْنٍ وخشب وفوق الخشب واللبْن طين.

الفكرة خطرت لأم حامد. فلماذا لا تصنع سريراً لفادي من الحبال وتبقى فدوى وحامد على فراش واحد بالقرب من فرشتها. نفّذ لها أبو حامد الفكرة. عندما جلس فادي أول مرة في السرير تصورته وكأنه في طابق ثانٍ. هزّت السرير، فضحك فادي. بانت أسنان طفل عمره نحو سنتين. قالت أم حامد:

- أسنان فادي حلوين لازم يطلع معلم مدرسة مثل أبيه!

ضحك أبو حامد وهو يتذكر تفاصيل وجزئيات حياته وبيته وهو يمشي في الطريق، ثم انتابته موجة تفكير بما يجري من أحداث، فقال في نفسه:

«الشام قايمة قاعدة. ماحدا لحدا. القصة ومافيها أن البلاد تعيش مرحلة جديدة. مرحلة من الشعور القومي...»

يتوقف أبو حامد عن التفكير. ماذا لو كان طلابه في المدرسة قد سألوه ما معنى الشعور. قال لنفسه صحيح ما معنى الشعور. ضحك في الطريق وأجاب نفسه: «مثل الشعور بالجوع!»...

سمع صوت الترامواي: طرك. طرك. طرك. عندما يأتي الترامواي في طريقه إلى المرجة عن طريق حي العمارة تختلط الأشياء ببعضها البعض. البائع يختلط بالشاري. الماشي يختلط بالواقف. الباصات الضخمة لاتجد ممراً

في الازدحام فتختلط بالترامواي. والترامواي: طرك. طرك. طرك. حمار من حديد يمشي على خطين متوازيين. نسي أبو حامد قصة الشعور. صار بقصة المصالح. فمصلحة البلدين هي في الوحدة. لكن لماذا قال صديقه الأستاذ حسين، في اجتماع الشلّة الأخير إن المصالح متناقضة. في الشام حركة وبركة وشغل مابيخلص. في مصر ملايين تريد الطعام والتعليم والجيش.

جاءت (الشلة). لم يكن فادي نائماً وقتها. أصدقاء أبيه صاروا يتبادلون الزيارات أسبوعياً. كان الدور عند أبو حامد. جلسوا يتحدثون عن عبد الناصر. قال أبو حامد البلد يغلي مثل قادوس الماء على النار. والناس تصفق لعبد الناصر. ورد الأستاذ حسين هؤلاء مجانين. يصفقون لعبد الناصر، ولا يعرفون أن المصريين سيبتلعون الشام. قال أبو محمد عبد الرحمن شو بدنا بالحكي الناس فرحانة والله يا أستاذ حسين ونحنا مع عبد الناصر. وقال أبو سعيد عبد الغفار كلام الأستاذ حسين جديد. كيف يمكن أن تبتلع مصر الشام. نحنا بالتأكيد مع عبد الناصر. والله بروحنا بنفديه.

لم يرد الأستاذ حسين. أضاف فكرة جديدة أن الضباط البعثيين هم من أرغم عبد الناصر على الوحدة وهناك قوى تتضرر من الوحدة. وسألهم هل نسيتم رحلة الضباط السوريين مع عفيف البزري إلى مصر. أعطوا عبد الناصر مذكرة باسم الضباط تطالب بالوحدة. قال أبو حامد لكن الضباط المعارضين للوحدة كانوا خارج الجيش. رد الأستاذ حسين هؤلاء سيتحركون. لن يصمتوا. ثم قال الإخوان المسلمون في سورية بالتأكيد سيتذكرون ما فعله عبد الناصر بالإخوان المسلمين في مصر. قاطعه أبو حامد. أنا شاهدت أشخاصاً أعرفهم من الإخوان المسلمين تخرج مع مظاهرات تأييد الوحدة. فرد الأستاذ حسين عندها بعبارة ملغومة. قال الله يجيرنا من الأعظم.

بعد أقل من شهرين على قيام الوحدة، صدرت قرارات الإصلاح الزراعي في سورية. كان قرار عبد الناصر يرسم ملامح الصورة بوضوح. خربت بيوت ملاك الأراضي. فكيف يحدد سقف ما يملكه الإنسان في وطنه، كما قال أبو محمد عبد الرحمن وسأل أيضاً معقول أنا أملك خمسين دونماً بالغوطة... هوب... طاروا صاروا خمسة عشر. رد عليه أبو حامد سقف الملكية يحسب بالهكتار وكل أراضيكم ما بتطلع خمسين دونماً. قال نواف الزرزور أنا لا أصدق أنه إذا كان عند ابن اللاذقية أرض مساحتها أربعون هكتاراً يطير نصفها. وراحت الحسابات تزيد وتنقص وتحسب على أساس قرارات التأميم وما تفعله بالأراضي. لكن الفلاحين ظلوا مع عبد الناصر.

لم تهدأ الشام. الشهور تمضي والتناقضات تتسع. الفلاحون مع عبد الناصر. الملاكون ضد عبد الناصر. البعثيون قالوا هذا عدل. جماعة أكرم الحوراني صفقوا. الإخوان المسلمون صاروا مع الملاكين العقاريين وملاك الأراضي الكبار. الشيوعيون ضد حل الأحزاب. الشخصيات التي برزت في معركة الاستقلال حائرة للمرة الأولى تجد نفسها مكتّفة لاتجد إرادة واضحة ورؤية صائبة. وقال الأستاذ حسين جُنّ العالم ولم نر شيئاً بعد. ما إن زار عبد الناصر الشام حتى جنوا وجننوه وسيجننون البلد أيضا!

كان دور (الشلّة) في بيت أبو سعيد عبد الغفار بالقنوات. أحس أبو سعيد أن عليه أن يتحدث أكثر من غيره. لف سيكارة دخان عربي. هزّ رأسه وقال لا تؤاخذوني أنا بالسياسة مثل حسابات وحّود العلي بالقناطر. كان وحّود يُعّمر قناطر بيته الجديد ووقت ينشفوا يخلع الدف من تحت كل قنطرة فتسقط حجارتها على الأرض. ضحكوا. ضحك أبو حامد طويلاً قال أبو سعيد: ياجماعة كأن الناس ماعادت شافت. أنا أحس أن السوريين والمصريين دخلوا هوجة عرب، ومع ذلك كان يقول: أنا ناصري!

خرج أبو حامد من الجامع الأموي وهو يستعيد ما جرى في بيت أبو سعيد عبد الغفار. سكنه في السبع طوالع جعله يفضل الصلاة في الأموي. كان معه فادي. فادي يمشي ببطء. والناس مستعجلة. شاهد الأستاذ مدحت. سلم عليه. خير ما عم نشوفك. فتلعثم الأستاذ مدحت. لم يخطر ببال أبو حامد أن الأستاذ مدحت فارٌ من المخابرات. قال له خليها مستورة. مخابرات السراج تريد رأسنا. سأل أبو حامد. رأس من يا أستاذ مدحت. قال الأستاذ مدحت الشيوعي مطلوب رأسه لأنه رفض حل الحزب. تذكّر أبو حامد أن الأستاذ مدحت حكى له عن البلاشفة وثورة أكتوبر والروس. سأله هل الشيوعيون ضد الوحدة. خالد بكداش زعيمكم حيّا عبد الناصر بالبرلمان. قال الأستاذ مدحت. القصة ليست قصة وحدة. القصة قصة سورية. كل التراث الديمقراطي في سورية حرقوه. ديكتاتور يتحكم بالناس ويحرق البلد. سأل أبو حامد:

- من؟ فقال الأستاذ مدحت:

- عبد الناصر.

رد أبو حامد بسرعة:

- لا. لا. هذا كلام غير مقبول.

ومشى!

مشى الأستاذ مدحت أيضا. كان يرتدي نظارة سوداء ويضع يديه في جيبي بنطاله. مشى أبو حامد. كان فادي صغيراً في أول مشيه. يمشي ببطء والناس تمشي بسرعة. خطوات فادي قصيرة. خطوات الناس واسعة. وبسرعة اعتقلت مخابرات السراج الشيوعي فرج الله الحلو. قال الأستاذ حسين في اجتماع الشلّة بسرعة انكشفت الأمور. عبد الناصر وقع. الشيوعيون يقولون إن

مخابرات السراج التي قوّاها عبد الناصر في الشام قتلت فرج الله الحلو وذوبته بالأسيد ودفنوا ماتبقى من الجثة في الغوطة...

عند المساء. كانت أم حامد تهز سرير فادي. كان فادي نائماً. ينام فادي مثل الملاك. قالت أمه يا أبو حامد ما إن ينام بالصلاة على النبي حتى يستيقظ مذهولاً كأن جنيّاً قرصه وينظر إليّ مستنجداً... يضحك أبو حامد. يقول لأم حامد سأحكي لك حكاية. ويحكي لها. كان ياماكان ياقديم الزمان. كان في طفل صغير اسمه فادي. كان اسم أمه أم حامد. أمه قالت إن الجني يقرص فادي. كان فادي ينام متل الصلاة ع النبي. يفيق. عندما يفيق فادي تخاف أم حامد... يفيق الجني يقترب من أم حامد...

يقترب أبو حامد من أم حامد يحاول تقبيلها. تهرب منه. تقول له:

- فادي نايم عيب.

يقول لها. لاتخافي ع فادي خافي عليّ. يقول لها. غدا تأتي السنوات سنة وراء سنة. يكبر فادي. يدرس فادي في المدرسة. يصبح فادي بالجيش يصبح ضابطاً. مثل حسني الزعيم. لأ. لأ. مثل أديب الشيشكلي. لأ. لأ. مثل جماااال عبد الناصر. يخاف منه الإنس والجن. تغنج أم حامد. تقول له بدلال. يقطع حياة العسكرية. العسكر راسهن يابس متل الحطب. والعسكرية كلها مخاطر وغربة وشقاء ومناوبات.

وتضحك ثم تسأله وهي ترتمي على صدره: في أحلى من أن يكون الأب جنب الأم بآخر الليل؟

زغاريد أم مالك، وحكاية الرجل الجائع!

تعالتْ زغاريدٌ طويلةٌ من حارة المؤيّد!

منذ زمنٍ طويلٍ لم تسمع الحارة زغاريدَ من هذا النوع، وخاصة في ذلك الوقت بعد صلاة العشاء. لم يعرف سكانُ الحارة سببَ الزغاريد. حملتها نسمات الربيع الدافئة إلى البيوت المجاورة بسلاسة تشبه سلاسة موسيقا بعيدة تقتحم الأسماع...

كان من الصعب معرفة مصدر الصوت، فالنسوة في غرفهن، لم يخرجن بعد إلى باحات بيوتهن. وبقايا البرد التي تركها الشتاء القاسي الذي مر في تلك السنة، جعلَ الكثيرات يتخوفن من فتح نوافذهن باكراً. لذلك وصلت الزغاريدُ منخفضةً مجهولة المصدر، وكأنها من حارة مجاورة...

ذلك المساء كانت رائحة الياسمين والأزهار التي تفتحت، تتسلل بدورها من شقوق الأبواب، تبشّرُ بربيع جميل، وتحثُّ السكان على فتح النوافذ. غيّرت أم صلاح، المعروفة بدقة سمعها، جلستها، وسألت كنّتها رضوى الخرسا:

- الزغاريد بشارة خير. من أي بيت طلعت؟

ولأن بيت أبو صلاح في آخر الحارة، لم تستطع أم صلاح تخمين البيت الذي ظهرت منه. فتحت كنّتها النافذة على أرض الديار، فإذا روائح

الأزهار تدخل إلى غرفة الجلوس الشرقية، وتنشر عبقاً خفيفاً ساحراً. أحسّت به الأسرة مباشرة. استنشق أبو صلاح تلك الروائح، وردد:

- الله.

كان أبو صلاح مستلقياً على صوفا طرية، وقد غطى نصفَ جسده بعباءته. عرفت أم صلاح أن الزغاريد من أول الحارة. وفي أول الحارة عدة بيوت، فهل تتصاعد الزغاريد من بيت الإيتوني، أم من بيت عبد ربه، أم من بيت أغريبوز الفارغ؟

كانت الزغاريد تأتي من بيت عبد ربه...

في بيت عبد ربه، وقف أبو مالك في صدر الإيوان بقمبازه المخطط بخيوط سوداء وصفراء. بدا طويلاً ونحيلاً في آن واحد. جلس على صوفا الإيوان وقد وضع طربوشه جانباً، و تحفّز ليتابعَ تفاصيل قراراته. لكنه ضحك عندما سمع زغاريد أم مالك، وقال:

- معك حق. كنت أعتقد أنك ستزغردين عندما سأخبرك أني سأحجُّ ثانية هذا العام وستكونين إلى جانبي.

أطلقت أم مالك زغرودة جديدة:

- الله يعطينا خيراً دائماً قدّ خيرات هذه السنة!

وانتقل الخبر في حارة المؤيد يشرح تلك الزغاريد. فأبو مالك قرر إقامة زواج ابنه مالك وابنته ملك في الوقت نفسه. لكن أحداً لم يسأل (زواج مَنْ على مَنْ).،.!

قال ناظم الإيتوني لزوجته:

- ذكرتْني أخبار بيت أبو مالك بعرس ابنتنا شمس على ابن الراضي. كانت أيام سعيدة يا أم محمود!

ردت زوجته، وقد تلعثمت بكلامها:

- ع قبال فايزة. الله يشفيها..

فرض جواب أم محمود نوعاً من الكآبة والصمت!

* * *

عندما تعالتْ الزغاريد من بيتْ عبد ربه. دخل خربة قصر المؤيد من جهة الحارة رجلٌ فقيرٌ رثّ الثياب، يحمل كيساً صغيراً جمع فيه بعض الأرغفة. وقف الرجل للحظات حزيناً بين كومتين من الحجارة، وكأنه يقف عند قبر دفن فيه إنساناً عزيزاً عليه. ثم جلس على حجر أبيض من بقايا القصر، وأخرج رغيفاً حُشرت فيه قطعة من الحلاوة الطحينية، وشرع يلتهمها بفوضوية وفتافيت الخبز والحلاوة تتساقط على ملابسه.

سمع الرجل الزغاريد تتجدد من خلفه. لم يلتفت إلى الأمر، وعاد إلى طعامه يلتهمه، وكأنه عانى كثيراً من الجوع. كان ذلك الرجل يأتي بين أسبوع وآخر في وقت محدد، ويجلس في المكان نفسه، ثم يغادر الخربة حزيناً يحمل ما تبقى من كيسه بين يديه، ويغيب في عتمة الحارة المجاورة التي تتجه نحو الشرق...

دخل مالك عبد ربه الحارة في اللحظة نفسِها التي غاب فيها الرجل في الحارة الأخرى. استوقفه هذا الرجل الفقير الغريب. سأل نفسه عن هويته، فهل يمكن أن يكون متسولاً يطرق الأبواب؟!

وذهبت خواطرُه بعيداً، متوقعاً أن يكون لصاً من لصوص الليل جاء ليراقب بيوت الحارة، ويتعرف إلى نقاط الضعف فيها، لينقض على أحدها في وقت ما، فيسرقه؟!

طرد هواجسه، وشقَّ الطريق نحو بيته. عند باب بيت الإيتوني شاهد الشيخ عبده الخرسا يطرق الباب. حيّاه، فرد الشيخ:

- أنت أصيل ومؤدب يا أستاذ مالك.

- الله يخليك يا جار.

سأله الشيخ:

- مابال الزغاريد تتعالى من بيتكم؟!

فدُهش مالك. وسأله:

- من بيتنا؟! الله يبشرك بالخير ياشيخ عبده...

هزَّ الشيخُ رأسه وضحك، فيما فتح محمود الإيتوني البابَ يرحب بالضيف، ويدعوه إلى الدخول. على حين مشى مالك باتجاه بيته، مستعجلاً، يبحث عن جوابٍ لقصة الزغاريد التي حلّت محل نوبة غضب من أبيه واجهه فيها بعد العصر!

* * *

خرجت ملك من البيت بعد أن أخبرت أمها أنها ستزور خالتها في الميسات بعد أن تمر على السوق. كانت على موعد مع شوقي. التقته، وكان لقاءً غير كل اللقاءات التي تمت بينهما. غاب شوقي عنها أسبوعين كاملين، ثم التقيا بشوق وقلق في وقت واحد...

انساب مشوارهما تلقائياً إلى الحارات الضيقة التي تصل الجسر الأبيض بالميسات إلى أن وصلا إلى قبة الميسات على طريق ركن الدين. كانا صامتين طيلة الوقت. لا تعرف ملك ماذا تقول، ولا يعرف شوقي ماذا يقول. اتفقا على نقطة واحدة عند أول اللقاء: سنبقى معاً مهما حصل. وصمتا!

عند قبة الميسات. أمسك شوقي يدها. سألها بيأس:

- هل سينتهي كل شيء هكذا؟!

تلاقتْ عيناها مع عينيه. فاضتْ دمعات قليلة من عينيها. سحبت يدها بلطف من يده. كانت باردة. لأول مرة أحست ملك ببرودة يده. كانت تشعر بدفءٍ غريب فيها حتى لو كان الثلج يتهاطل فوقهما. تشاءمت. تذكرتْ ما كتبه لها على بياض علبة السكائر الفارغة في حديقة السبكي قبل شهرين:

- قدر العاشقين في بلادنا أن يتحولوا إلى قصائد! فسألته:

- شوقي. أتؤمن بالقضاء والقدر؟!

ابتسم. كان جوابه كاملاً مدروساً. رغم السرعة التي أجابها فيه:

- حتى لو لم نؤمن بالقضاء والقدر، فهو يرسم مصائرَنا!

بحزن شديد. سحبت الإيشارب ليغطي شعرها الذي انكشف خلال المشوار. ربطته جيداً، ثم همست له برغبتها في العودة. لوحت بيدها، وشرعت بالمشي مقهورة. وقف شوقي ينظر إليها بعينين حزينتين. التفتت إليه. تلاقت عيونهما من جديد، كانا يشعران أنه اللقاء الأخير. قالت له:

- سينتهي كل شيء!

- لا. قال شوقي.

عادت إلى المشي. تابعت السير بإرادة قوية وتغلب دمعة على تماسكها، فخرجت تتدحرج على خدها!

لم يطل المشوار. لوحت له قبل أن تخرج من آخر حارة تفصلها عن البناية الجديدة التي تسكن فيها خالتها. وفي بيت خالتها بقيتْ ملك إلى أن

رن جرس الهاتف بعد صلاة العشاء، لتسمع قصة الزغاريد في بيتها التي فاجأت مالك وفاجأتها أيضاً!

* * *

فوجئ ناظم الإيتوني بزيارة الشيخ عبده الخرسا، رحب به قائلاً:

- الشيخ عبده في زيارتنا. أشرقت أنوار الحارة والله.

وجلس قبالته، وهمّ بإشعال مدفأة الحطب الموجودة في المربع، فرفض الشيخ، وقال:

- لا. لن أطيل البقاء. أريد أن أقول لك إن ما جعلني أزورك الليلة هو الدكتور خالد المؤيد. نعم يا ناظم بيك. لقد أصبحت حاله حال. وعلينا أن نتحرك!

وافقه ناظم:

- نعم. لقد سمعت أخباراً عنه لا تسر أبداً. تفيد بأنه أصبح صوفياً يمشي في الشوارع جائعاً يأكل الخبز اليابس. ترك أمواله وأفكاره الفرنسية ونسيّ زوجته وابنه وقصره ونسبه. وراق له الجُنون!

كان الشيخ عبده يصغي بلا مبالاة، وكأنه يعرف هذه التفاصيل، ويريد أن يضيفَ عليها، فقال:

- ليس ذلك فحسب. رأيته وأنا عائد من صلاة العشاء يخرج من الحارة، وكان علينا أن نحضنه وندعوه للعودة!

اهتم ناظم بالمفاجأة:

- في بيت من كان؟ ماذا يفعل هنا؟! فرد الشيخ عبده:

- ذهبت أفكارك بعيداً. إنه لا يتعاطى مع أحد، ولا أحد يقدر على معرفته إن لم يدقق بملامحه، يبدو عليه البؤس وسوء الحال. يهتز جسده كمصاب بالفالج. يرتدي ثيابا عتيقة ممزقة. يمشي وبيده كيس لا أعرف ما فيه.

فقال ناظم:

- والله. هذه أخبار محزنة. ثيابه ممزقة وأمواله مكدسة؟!

- لا أحد يعرف السبب. هناك من يقول إنه وزعها على الفقراء.

- لو فعل ذلك لما بقي فقراء في الشيخ محي الدين...

- يبدو أن هناك سراً ما، أو أن أملاكه العقارية لا تزال كما هي...

- وأخته؟!

- لا أخفيك أنا سألت صهره وجيه القباني. أخبرني أنهم عجزوا عن اقناعه بسكن نظيف. قال صهره إنه يمضي أغلب النهار في جامع الشيخ محي الدين، وهناك يعطفون عليه. والغريب أنه يتعامل مع من يحدثه بعقل كامل، وفجأة تنهار ملكاته، ويفقد اتزانه!

تناول الشيخ عبده صحنا من الرز بحليب قدمه له محمود الإيتوني، ثم شرب الشاي بالقرفة، وغادر البيت، وبعد لحظات من خروجه عاد يطرق الباب، ويطلب من ناظم الإيتوني مرافقته لأن خالد المؤيد عاد ودخل الخربة.

خرج ناظم الايتوني، ومحمود ابنه واتجها معا إلى الخربة وكان معهما الشيخ عبده، وهناك التقوا الدكتور خالد وجها لوجه، فإذا بالدكتور خالد، يرتبك وكأنه شاهد شيئاً مرعباً، ثم راح يركض وهو يهتف بفزع:

- اهربوااااا.

حكاية

أول تلفزيون سوري!

خرج الشيخ عبده الخرسا من جامع الجسر الأبيض معبوطاً غاضباً. كان يتحرك بطريقة لا تليق بشخصيته المعروفة بالاتزان أمام المصلين. وخاصة أن كثيرين كانوا يتوقعون أن يصبح إماماً وخطيباً للجامع. كان يرتجف. ويهز رأسه. وتتحرك شفتاه كمن يقول شيئاً لا يُسمع!

تغيرتْ ملامحُ وجهه وكأن حدثاً ما طرأ فجأة خلال الصلاة. ارتفع صوتُه، فصار يحدّث نفسه بصوت مسموع. لفتَ إليه أنظار المارة. قطع مفرق الشيخ محي الدين، ثم انحدر باتجاه حارة المؤيد مستعجلاً، فكاد يصطدم بشجرة زنزلخت يابسة قبالة دكان أبو صلاح.

نسي الشيخ عبده أن يرمي التحية على جاره أبو صلاح الذي كان قد وصل لتوه من الجامع، وجلس في دكانه، فناداه من الداخل:

- نص الألف خمسمائة يا شيخ عبده... السلام لله!

انتبه الشيخ الخرسا إلى شروده، فحيّاه رافعاً عتبه:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا جار.

رد أبو صلاح السلام واستوقفه بسؤال:

- رأيتُك عند باب الجامع تتحدثُ بعصبية مع أبو مالك، فقلت في نفسي «اللهم اجعله خيراً»، وأنت تعرف غلاوتك عندنا... شو القصة؟

رد الشيخ الخرسا غاضباً:

- أبو مالك عبد ربه أجّرَ بيتين من بيوته للضباط المصريين. الناس بالشام تضررت مصالحها وخربت بيوتها بالوحدة وبعبد الناصر. هذا حرام. ألا يعرف أن عبد الناصر يلاحق رجال الدين في سورية ومصر ويضيّق عليهم!

فقال أبو صلاح يهون عليه:

- هؤلاء عرب على كل حال، سيعيشون بيننا ونعيش بينهم؟

وقال أبو صلاح أيضاً:

- هذه بسيطة بالنسبة لغيرها...

فسأله باستغراب:

- خير؟ ماذا فعلت حارة المؤيد أيضاً...؟

- بعد أيام سيدعونك لعرس واحدة من بيت الكعيكاتي على ضابط مصري...

- يعني ضباط عبد الحكيم عامر والسراج صاروا صهراتنا بحارة المؤيد!

ثم ردد الشيخ محتجاً:

- إصلاح زراعي ومخابرات وتأميم... ومصاهرة؟!

وأضاف بيأس:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

فعلق أبو صلاح:

- مهما كان العرب أخوة.

مضى الشيخ عبده منكس الرأس إلى الحارة، وقد كتم حركاته الانفعالية، فبدا مستسلماً لكل تلك الأخبار...

* * *

أقيم العرس فعلاً. وعلى مقربة من البيت الذي كان يسكن فيه القوتلي في جادة الرئيس ارتدى بناء جديد حلة من الزينة، وكانت تتجمع عند بوابته عراضة شامية...

حضر العرس أعدادٌ كثيرةٌ من جنود وضباط مصريين وسوريين، كذلك تجمعت أعدادٌ كبيرةٌ من الأطفال بين المدعوين راحوا يتدفقون إلى جادة الرئيس.

عندما خرج العروسان. ركبا على عربة يجرها حصان من الحارة. تعالت الزغاريد ورميت صرر الملبس الشامي فوق العروسين. فتحت نسوةٌ ربطن أطراف أغطية رؤوسهن بأفواههن نوافذَ الشرفات، ورحن يتفرجن على عرس بنت الكعيكاتي على الضابط المصري.

وجرى همس كثير على نمط العرس في الحارة، وراحت النسوة يتبادلن التعليقات عما حصل، فالعروس «مكشوفة الرأس»، و«المصريون لايعطون هذه المسألة أهمية شرعية»، و«العريس ضابط كبير»، و«لو لم يكن ضابطاً كبيراً لما تجمّع ذلك العدد من العسكريين»، و«البنت تخرجت في الجامعة وأسرتها لم تكن موافقة!»

لم ترض على شكل العرس وأجوائه سوى واحدة من حارة المؤيد هي أم مالك عبد ربه التي دُعيت إلى العرس مع أم محمود إيتوني، ورغم حديث

النسوة عن جماله وطريقته التي غيّرت الأجواء قليلاً عن عراضات الهتافات لعبد الناصر، فقد بالغن في انتقاده. أما أم مالك، فقالت:

- باختصار. الحياة بدها تمشي، مافي شي يتوقف مكانه...

في الجسر الأبيض اهتم السكان بحدثٍ مهم آخر لم يتوقع أحد حدوثه بهذه السرعة وسيظل زمناً طويلاً قي ذاكرة السكان، فقد نقل مالك عبد ربه عن صديقه عادل خياطة أن التلفزيون سيبدأ العمل خلال أيام لأول مرة في سورية، وأنهم سيضعون جهازا في الجسر الأبيض ليشاهد الناس اللحظات الأولى لبثه.

اشتعلت حارة المؤيد، بالخبر، ثم وصلت أصداؤه إلى كل بيوت الجسر الأبيض، فهل سيظهر التلفزيون فعلاً بالشام؟!

نسي السكان الكثير من المشاكل والخلافات التي أوجدتها ظروف الوحدة وانشغلوا بالحديث عن تصورات غير واقعية عن هذا الجهاز الذي سيأتي جمال عبد الناصر به إلى البلاد في عيد ثورة تموز.

لم يكن قد مضى على العرس وقت طويل عندما جاءت عند الظهر سيارة فوكس فاكن صالون وتوقفت قبالة جامع الجسر الأبيض، وأنزل العمال منها صندوقاً كبيراً. أدخلوه إلى المقهى المقابل للجامع من جهة شارع نوري باشا. وتمت الحركة دون أدنى اهتمام من المارة أو حتى من رواد المقهى.

مع حلول مساء ٢٣ تموز ١٩٦٠ كان صاحب المقهى قد أتم تركيب عشرات المصابيح المتوهجة في واجهة المقهى وشرع بتعليق حبال الزينة، وكانت صور عبد الناصر مرصوفة بعناية على حبال طويلة متشابهة مأخوذة عن صورة رسمية له وهو يضحك وقد رُسم خلفها بعض الغيوم.

عرف المارة أن الزينة تتعلق بذكرى ثورة عبد الناصر، وعندما توهجت المصابيح قبل صلاة المغرب بنحو ساعة، نقل الصندوق إلى مدخل المقهى ووضعه موظفون مختصون في مكان مرتفع وعُلِّقَ عليه سلكان قاسيان من الألمنيوم، وانتشر الخبر بسرعة فعلى من يريد مشاهدة افتتاح التلفزيون التوجه إلى مقهى الجسر الأبيض.

أخذ الناس يتجمعون لمشاهدة هذا الصندوق السحري الذي جاء به عبد الناصر للبلاد، وقد فاقت الجموع العدد المتوقع، وقدّر أبو صلاح البوشي العدد بثلاثمئة «وكانوا يندفعون بسرعة، وكأن الدولة حولت المقهى إلى مركز إعاشة!»...

حاول بعض الزبائن الاقتراب من جهاز التلفزيون، فتعالت أصوات تحذرهم، فهي تعرف أسرار هذا الجهاز:

- ابتعد عنه. إذا نقرت على زجاجه يمكن أن ينفجر في أي لحظة!!

- ابتعد عنه ففيه كهرباء تقتل جملاً من شدتها!

وضحك الموظف المختص، الذي يشرف على تركيبه، وقال:

- المهم أن نكون على بعد مترين منه!

اتفق مالك عبد ربه مع الصحفي فتحي المحايري على حضور افتتاح التلفزيون في المقهى. جاءا قبل وقت قصير من إخراج الصندوق، وجلسا على كرسي مناسب وطلبا كأسين من الشاي العجمي. كان هناك لغط كثير يجري في المقهى وبين الناس المتجمعين إلا أن مالكاً كان يحكي لصديقه عن عبد الناصر بهمس: «صحيح هذه الخطوة حضارية، لكن عبد الناصر يلهي السوريين عن مشاكل الوحدة ومشاكلهم بالفرجة على التلفزيون، ولا يعلم

أن الأيام التي مرت جعلت كثيرين يغيرون مواقفهم فهم لن ينسوا ما حل بالبلاد نتيجة الوحدة!».

ورد المحايري همساً:

- يارجل. مباحث عبد الناصر مفكرة أهل الشام إخوان مسلمين. الناس معهم الحق... عبد الحميد السراج وعبد الحكيم عامر كرّهوا الناس بالوحدة!

وعلّق مالك:

- إنه يخسر شعبيته!

قطعت ضجةٌ قامت في المكان همسَ الصديقين عندما صاح صوت على مقربة من مدرسة الهدى:

- هذا الصندوق فتنة اللهم أعنا عليها!

لم يردْ أحد عليه. ترامى بعض الضحك من المقهى...

في الوقت المحدد من ذلك المساء، وكان المصلون يتجهون إلى الجامع القريب، توهجت شاشة التلفزيون لأول مرة في تاريخ سورية، وظهر الدكتور صباح قباني ليعلن افتتاح التلفزيون العربي، ويشكر العاملين والفنيين والمهندسين الذين حققوا هذه (المعجزة)، وترامى صوته في فضاء المقهى وجواره:

- «كل هؤلاء نسوا أنفسهم في غمرة تحقيق المعجزة العظيمة. كانوا جميعاً يستلهمون إيمانهم من إيمان قائدنا جمال عبد الناصر الذي علمنا كيف نجعل من الأحلام حقائق، ومن المستحيل لا مستحيل».

وقال صباح قباني أيضا:

- «كان همنا الوحيد أن يدخل التلفزيون بيوتكم في موعده ليشيع المتعة الحلوة والثقافة الطيبة بين أفراد أسرتكم وجيرانكم، وأن يكون ثورة جديدة في

حياة وطننا وحياة وحدتنا العظيمة... فما أجمل أن يدخل إلى بيوتكم، من خلال الشاشة، أهلكم في جنوب الجمهورية وما أجمل أن تدخلوا إلى بيوتكم لتنشروا فرحة وحباً في القاهرة وطنطا والإسكندرية».

كان رواد المقهى يحدقون بصندوق الفرجة الجديد بدهشة مبالغ فيها. إلى الدرجة التي لم يصفقوا عند ذكر الدكتور صباح قباني اسم جمال عبد الناصر!

سحرت الشاشة الصغيرة عقولهم وأشعلت في أحياء الجسر الأبيض وحارة المؤيد أحاديث في الصباح والمساء حول التلفزيون الذي وصفه بعض السكان بأنه «راديو كبير يظهر فيه المذيع وهو يقرأ عبر نافذة زجاجية» وقد جذب الكثيرين إلى سحره.

بعد نصف ساعة توقف البث التلفزيوني الأول، وتواقت ذلك مع خروج المصلين من جامع الجسر الأبيض. انفرد أبو مالك عبد ربه عن جماعة كانت تمشي مجتمعة من بابه الشمالي، واتجه نحو المقهى. كان واثقاً أنه سيجد ابنه مالك هناك. نهض مالك عن كرسيه احتراماً لأبيه، ونهض معه فتحي المحايري. قال أبو مالك:

- صار كل شيء جاهزاً.

هز مالك رأسه، فابتسم أبوه وغادر بوابة المقهى التي كانا يجلسان فيها.

سأل فتحي:

ـ خير؟ ما الذي أصبح جاهزاً؟!

قال مالك:

- إسأله!

- لكنك وافقت على شيء ما؟!

- إنه عرسي. يريدني أن أتزوج قبل أن أتخرج في الجامعة!

- ألف مبروك.؟!

وقال مالك:

- كنت عائداً إلى الحارة ليلاً قبل أسابيع، فسألني الشيخ عبده الخرسا عن الزغاريد في بيتنا، ولم أكن أعرف سببها. وعندما عرفت كان الأمر يتعلق بي وبشقيقتي، فقد اتخذ الوالد قراراً حازماً وافق فيه على زواج شوقي من ملك، وزواج مالك محسوبك من قريبة لنا في حي المهاجرين!

ضحك فتحي المحايري، وقال:

- لو كنت أعرف الزغاريد لكُنتُ زغردت لأخبر كل سكان الجسر الأبيض، فتزيد أفراحهم بالتلفزيون فرحاً جديداً، فضحك مالك وقال:

- بإمكانك أن تزغرد، أما أنا فما يجري يشغلني أكثر مما تتوقع!

فسأله فتحي:

- وماذا يشغلك أكثر من موضوع زواجك؟!

رد مالك ببرود، وهو يبتسم:

- إنني غير موافق على الزواج، ورأسي مشغول بالجن!

ضحك فتحي المحايري، وأعاد السؤال:

- مشكلة الزواج بسيطة، ولكن الجن؟ معقول!!

فقال مالك:

- نعم يقولون إن بيت الرئيس القوتلي مليء بالجن، وأنت تعرف أن بيت القوتلي يجاورنا، وهذا سيدب الهلع في بيتنا!

حكاية

الجن في بيت القوتلي!

سرى همسٌ غريبٌ في حارة المؤيد يتعلق ببيت الرئيس شكري القوتلي المجاور لها. فالقوتلي غادر البيت بعد أن ظهرت له القطط السوداء، وليس لأنه تخلّى عن الحكم للرئيس عبد الناصر!

وقد أضحكت هذه الحكاية كثيرين وظنوها مُزاحاً، إلا أن الحكايات التي تناقلها الأطفال بخوف فيما بعد لاقت اهتماماً في أوساط الجسر الأبيض، ففي أحاديثهم أنهم شاهدوا الجن من نوافذ البيت الرئاسي المغلق، وتناقلوا قصصاً لا تصدق عن أشباح تتحرك في الصالون المواجه للباب الرئيسي، وخاصة عند المساء.

كان البيت خالياً تماماً. ألغيت الحراسة التي كانت على طرفي بوابته الملاصقة للشارع، وقيل إن القوتلي، الذي اعتزل العمل السياسي، مكتفياً باللقب الذي أعطي له، أي «المواطن العربي الأوّل»، سافر إلى القاهرة بعد أن لاحظ أن أشباحا تتحرك في بيته، ولم يبح بالسر لأحد!

وصلت القصص التي نُقلت عن الأطفال إلى بعض الأمهات، ومن الأمهات ترامت القصص إلى نساء الحارة، فتزايدت التفاصيل. اشتعلتْ هواجسُ جديدة تخشى أن يكون الجن الذي كان في قصر المؤيد في طريقه إلى كل بيوت الجسر الأبيض وحارة المؤيد وربما الشام كلها...

عادت مأساة الدكتور خالد المؤيد إلى الواجهة، وزادت قصصه القديمة مع الجن الذين دفعوه إلى تهديم القصر تفاصيل إضافية من بينها أن جنية كانت تحبه هي التي ظهرت لزوجته الفرنسية وجعلتها ترحل من الشام وتهجره، ثم دفعته إلى تهديم القصر، ثم جننته. وأن (الحكيم) تزوج الجنية التي كانت تظهر له وكأنها ملكة من ملكات الجمال، ثم هجرته، فجُن، وتابْ!

وسط كل هذه القصص، كانت أم مالك أكثر قوة في التعامل مع الحكايات. كانت تراودها بعض الوساوس، أي بدأ الخوف ينتابها. طلبت من مالك أن يأتي بالكهربجي أبو علي الريس، لتركيب نيونات في المطبخ ولمبات كبيرة في الحمام والأماكن المعتمة.

ضحك مالك، وسألها:

- هذه الإضاءة الزائدة تعني أنك بدأت الخوف؟! فردت بحزم:

- تركيب إضاءة قوية يجعلني أطمئن بأنكم لن تخافوا!

همّت أم مالك بالخروج، فسألها مالك:

- إلى أين؟!

- أخبرتُ أم أيمن العطري أنني سأزورها...

فضحك مالك، وقال لأمه:

- إسأليها. هل رأيها مثل رأي ابنها وزوجها من عبد الناصر...

ردت أم مالك وهي تخرج:

- هل تريدها أن تظن أنني من مخابرات الشعبة الثانية؟

وضحك مالك. وضحكت أمه، وخرجت!

* * *

يختلف بيت العطري عن بيوت الحارة بدوالي العنب التي تغطي أرض الديار، فهو الوحيد الذي زرع الدوالي على حساب أنواع الأشجار الأخرى، وكان سعيد العطري أحد سكان الحارة الذي يعي متى شرع سكانها ببناء بيوتها.

في أرض الديار الجميلة تلك ترسم دوالي العنب ظلالها على الأرض، يبدو النهار فيها رطباً منعشاً تحت الأغصان الوارفة التي انتشرت في مختلف زواياه. أما في الليل، فتتحول الرسومات التي يصنعها شعاع القمر في الليالي المقمرة على الأرض إلى لوحة متحركة مدهشة من الضوء والظل، لكن أم أيمن العطري قالت صراحة لجارتها:

- يا أم مالك. هذه اللوحة لم تعد جميلة كأيام زمان، صارت مفتاحاً للخوف الذي يسيطر على البيت ليلاً!

اختارت أم أيمن المشرقة كمكان تجلس فيه من الجناح الشمالي للبيت، وكان بإمكانها أن تطل من هناك على الحارة والبيت بآن واحد. وعندما سمعت طرقاً على الباب. لم يكن قد مضى وقت طويل على مغادرة أبو أيمن البيت متجهاً إلى السوق. نظرت من فوق، فشاهدت أم مالك على باب بيتها، فنادتها: «سأفتح الباب بالحبل. اصعدي فأنا في الغرف الشمالية فوق!

شدّتْ أم أيمن الحبل. انفتح الباب. دخلت أم مالك التي كانت تعرف تفاصيل البيت جيداً. قطعت الكريدور، ثم مرّت قرب البحرة. كانت البحرة تتدفق بمياه نظيفة، وكانت الشمس ترسم على الأرض لوحتها المعتادة لكنها لا تثير الخوف كما هي الحال ليلا مع ضوء القمر.

في منتصف الدرج الثاني، وهو درج خشبي يصل بين النصية والمشرقة شعرت أم مالك أن يداً تمسكها من ثوبها. ظنت أن الثوب علق في مسمار خرج من مكانه على الدرج. مدّت يدها إلى الثوب. لم تجد شيئاً. لا الثوب عالق في المسمار، ولا المسمار موجود أصلاً!

أسرعت بالصعود، وعندما وصلت إلى آخر الدرج، قالت بصوت مرتجف، وهي تخفي هاجس الخوف الذي انتابها:

- تعبت يا أم أيمن... لا أحب صعود أدراج الخشب...

وأضافت تبرر موقفها:

- جلسة البحرة أحلى...

دفعت هذه العبارة أم أيمن لتكشف أسرارها... لم تفكر طويلاً بما فعلته. أحست برغبة ما بالبوح بما ينتابها من مشاعر. تلقائياً حكتْ عن مخاوفها التي ستنتشر في حارة المؤيد، وتمتد إلى أماكن أخرى:

- يا أم مالك. بعد قصة بيت القوتلي. كل شيء صار يثير مخاوفي في هذا البيت!!

سألتها أم مالك:

-كيف؟!

فحكت لها:

- استيقظتُ في الليل على حركة في الحمام. نهضت لأرى مَنْ هناك فلم أجد أحداً، وعندما دخلتُ الحمام وأشعلت الضوء لاحظتُ شيئاً غريباً هناك...

كانت أم أيمن تبوح بما لديها بصوت منخفض يشبه نقل السر، وكأنها لا تريد لأحد غيرهما أن يسمع:

- أخفيتُ الأمرَ عن زوجي. نعم... خفتُ أن يقول إني مجنونة، لكن صدقيني كانت الصابونة مرمية في الأرض، وكأن شخصاً ما استحم بها لتوه، وكان جرن الماء مقلوباً على قفاه!

اقشعر بدن أم مالك. أصغت بانتباه كامل إلى التفاصيل، وهي تتصنع تفسيرات أخرى غير تلك التي توحي بها جارتها :

- ربما كان أحد ما في البيت قد تسبب بذلك، وغادر الحمام. ربما تكون قطة. أو جرذ!... فردت أم أيمن:

- لا. لا. أبداً. لا يمكن لهذه الأشياء أن تتسبب بذلك... كانت هناك حركة غريبة وليس هناك من يقوم بها!

تصنعت أم مالك تبريراً آخر:

- هل يعني هذا أن في الحارة لصوصا يدخلون ويستحمون!

فردت أم مالك باقتضاب وقد تجاوزت الهمس إلى الصراخ:

- لا. إنهم جن!

توهجت عينا أم مالك بلون أحمر، وصار خوفها معلناً، التفتت حولها بسرعة، ورددت:

- بسم الله الرحمن الرحيم...

همّت بالنهوض، وهي تطوي مخاوفها، ولا تريد أن تربطها بما كان حصل معها على الدرج:

- اقرأي المعوذتين. وانتبهي.

وقامت. وهي تبرر انسحابها:

- أبو مالك قد يعود الآن!

وخرجتْ.

* * *

لم يكن من الممكن إخفاء مثل هذه الحكايات. انتشرت تفاصيل إضافية غير متوقعة في حارة المؤيد، لكن أحداً لم يكن يبوح بما ينوي فعله نتيجة لما استجد على بيوت الحارة!

استلقى أبو مالك على الصوفا. مد يده يحرك مؤشر الراديو الكبير في المربع الغربي من البيت عندما دخلت أم مالك تحمل أدوات الشاي على صينية نحاسية، جلست بجواره، أحست أن عليها أن تخبره، فترددت. وجدت نفسها تنصت مثله إلى الأخبار التي تبثها إذاعة لندن...

كانت الأخبار تتحدث عن خبر سربته أوساط دبلوماسية من دمشق، وأفادت تلك الأوساط أن «حركة استياءٍ واسعة في صفوف الجيش السوري من الظروف التي وصلت إليها البلاد في ظل الوحدة...»

هز أبو مالك رأسه. وقال لزوجته باستسلام:

-ستعود البلاد إلى الانقلابات.

وأردف:

اللهم أحم البلاد والعباد!

غرفة العناية المشددة:
كيف ماتت فايزة؟!

حدث ذلك أثناء الدوام الرسمي. كانت جولة الأطباء قد بدأت. وكانت فدوى قد خرجت من غرفة العناية المشددة تراقب حركة المستشفى الصباحية. أما فادي عبد الرحمن فقد نام بعمق طوال الليل. كان هادئاً توحي حالته بالتحسن.

ارتفع صوته فجأة!

كان صوته موجعاً أكثر من كل المرات التي صرخ فيها في نوبات الحمى. الممرضات ركضن نحو غرفته. ثم دخل الطبيب يستفسر. جاءت فدوى من خارج الغرفة تصرخ أخي فادي... أخي فادي... ما الذي جرى؟!

لم يكن حامد موجوداً. ترك فدوى وخرج ولم يخبرها متى سيعود. أما مزنة فقد ذهبت إلى البيت لترتاح قليلاً بعد يوم صعب كانت فيه إلى جانب فادي في محنته. كان فادي وحيداً في غرفة العناية...

تضمن صراخ فادي شتماً مقذعاً للأمير الجزائري على غير العادة. صرخ فادي. رح أيها الأمير. رح. تركتموها تموت. وألح في صراخه:

رحْ. رحْ. رحْ. رحْ..

استمر الصراخ عشرين أو ثلاثين ثانية. الجميع يسألون من هي التي تموت. هزّت فدوى رأسها تنفي معرفتها وهي تبكي. قالتْ. هو يهذي. قال

الطبيب. هذا ليس هذياناً. هذه تداعيات من داخله. الهذيان يعني أنه يحكي كلاماً غير مفهوم.

كان الجميع ينظرون إلى الطبيب وهو يشرح معنى الهذيان. نتيجة الإصابة والالتهاب في الرأس. ترتفع الحرارة ونتيجة لذلك تتداخل موجات دماغية بعضُها ببعض، فتقوم بتحريض مراكز النطق على صياغة مفردات بلا معنى. أما التداعيات فهي أشياء مكبوتة باللاوعي يقوم بعض الأطباء بتحليلها. أحياناً يفهمها علم النفس. وأحياناً تضيع مع صحوة المريض أو شفائه.

كان فادي يهذي بحكاية قديمة حكتها له ديمة عن خالتها فايزة. كانا يجلسان في خربة المؤيد على صخرة. كانت ديمة تحمل بيدها صورة لفتاة جميلة مكشوفة الشعر. سألها فادي. صورة من هذه. فقالت ديمة إنها صورة فايزة خالتي. سألها. مسافرة. قالت لا. ماتت. زعل فادي. قال لها فايزة حلوة مثلك. كيف ماتت. قالت ديمة الجن قتلوها...

أم فادي قالت الجن لم يقتلوا فايزة. سألته حبيبي فادي من يحكي لك هذه القصص. لا تخف من الجن. الجن يخافون منا. فكيف يمكن لهم أن يقتلوا فايزة. هذه حكايات غريبة... القصة ليست بالجن.

كانت فايزة تركض صغيرة في حارة المؤيد. الذي يعرف فايزة يعرف جيداً كم تبدو جميلة ومثيرة عندما تركض. تلعب مع الأطفال بطابة ملونة اشترتها لتشكيل فريق لكرة القدم. دُهش الشيخ عبده الخرسا عندما شاهدها تلعب مع الصبيان. ما شاء الله. قال الشيخ عبده. هذه من كواعب الجنة. لا ينبغي أن تلعب بين الذكور. سألها. ابنة من أنت. ركض ابنه عبد الغني. قال له بابا هذه فايزة ابنة

الإيتوني. سألها الشيخ. أنت ابنة ناظم بيك يا ابنتي. هزت رأسها ضاحكة. بانت أسنانها وشفتاها الورديتان.

قال الشيخ. اذهبي إلى البيت. لا يجوز أن تلعبي بالطابة.

كان عبد الغني يحبها. عندما منعها أبوها من لعب الطابة بناء على طلب الشيخ. صار عبد الغني يدخل بيتها ويأتي معه بالطابة. كانا يلعبان. كانت فايزة تركض حول البحرة وهو يرمي بالكرة لتمسكها. بيت ناظم مثل قصر صغير يجنن كما قالت نجوى أغريبوز ذات يوم عندما زارته مع أمها، وكان يمكن لعبد الغني وفايزة أن يلعبا بالطابة...

كانت الطابة من جلد قوي. أبدى عبد الغني شطارته أمامها. نطح الطابة برأسه. وعندما جربت فايزة ونطحت الطابة وجعها رأسها. ركض نحوها. مسح إصبعه ببصاقه ووضعه على رأسها. قال لها باسم الشافي. سألته. يعني هذا دواء. قال. أبي يفعل ذلك عندما تصاب أمي بالصداع. وسألها هل ذهب الوجع. قالت له ذهب الوجع. وضحكا وعادا إلى اللعب بالطابة!

العلاقة بين عبد الغني وفايزة انتهت منذ وصلت إلى الصف الخامس. أمها منعتها من لقائه. قالت لها أمها. خلص ماما. عبد الغني شب. صحيح لا يزال في الصف الرابع لكن هذا النوع يكبر بسرعة. وقتها تذكرت فايزة ماذا قال لها عبد الغني ذات يوم. قال لها إنه عندما يكبر سيقول لأبيه إنه يريد الزواج منها. بعد عدة سنوات ضحكت من تلك الذكريات. لكن أمها أخطأت وحكت القصة للجيران. الجيران في حارة المؤيد لا ينسون. وضعوا للقصة (يدين ورجلين). صارت قصة فايزة وعبد الغني قصة وحكاية. قالت بعض النسوة. لو تزوجا سيكون عرسا للأطفال الصغار.

أمسك فادي صورة فايزة جيداً. وجدها تضحك. وفايزة عندما تضحك تشبه الممثلات الأجنبيات. ذات يوم صاح في سينما القاهرة وهو يرى فيلم ماشيستي. صاح بقوة هذه فايزة. كانت الممثلة التي تقف أمام ماشيستي تشبه فايزة. لم ينتبه إليه أحد في السينما. في السينما لا يعرفون فايزة رغم أنها أجمل من تلك التي رآها. الكل يندمجون في أحداث الفيلم. فادي اندمج مع صورة فايزة. شغلت فايزة خياله. وديمة تشبه فايزة. ديمة... مة.مة. مهْ...

جاء الأمير الجزائري. سمع فادي صوته. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. قال له فادي. أين فايزة. قال الأمير الجزائري.ماتت. قال له. قتلها الشيخ عبده. ضحك الأمير الجزائري. قال لفادي. أنت تعرف الشيخ عبده. رجل طيب. لا يمكن أن يقتل ذبابة. هو رجل طيب. اسأل عنه في السوق. هو أكبر تاجر عبي في الحميدية. سأله فادي. يعني عبه جي. ضحك الأمير. قال التجار بالشام أقوياء يافادي لأنهم صادقون. لو لم يكونوا صادقين ماربحوا وما وصلت شهرتهم إلى العالم. صرخ فادي. تركتموها تموت. قال الأمير الجزائري. كان ناظم بيك شريكاً للشيخ عبده بتجارة العبي المقصبة بخيوط الذهب الغالية فكيف نتركها تموت. ربما كان يريدها لابنه عبد الغني. لو صاهر الشيخ عبده ناظم بيك كانت الشام كلها حسدته على هذه المصاهرة، تماماً كما حسدته على الشراكة معه.

قال الأمير الجزائري. يا فادي يقولون في الحارة إن الجن ظهروا لفايزة. رأوها بالزلط. خلقة ألله. فعشقوها. هل تعرف معنى أن يعشق الجن فتاة مثل فايزة. يعني ستجن حتماً. عندما عشقها الجن. مرضت. ثم شحبت. ثم نحلت. ثم اصفر لونها. ثم ماتت. وقال الأمير الجزائري حارتكم صارت كلها جن والعياذ بالله!

قالت ديمة لفادي: الجن قتلوا خالتي فايزة. أم حامد نفت. فأم صلاح حكت القصة لأم حامد أن أم محمود الإيتوني حكت القصة لها. أم صلاح باحت بالسر. وديمة لا تعرف. لا تعرف ديما!!!!!!!!!!!

مدّت فدوى يدها إلى رأس فادي. قالت لا يوجد حرارة. وعندما جاءت مزنة. أخبرتها بالصراخ وندائه لديمة. غارت مزنة. قالت مزنة. ديمة معباية فيه مثل الجن. ضحكت فدوى. قالت خلينا بالإنس أريح!

قالت أم محمود الايتوني وهي تبكي. يا أم صلاح كل شيء بغرفة فايزة يشعل فيِّ نيراناً لا تنطفي. ملابسها. الشرشف. قنينة العطر. المراية الصغيرة. صورها وهي بالمدرسة. يعني ياربي نحن لم نفعل شيئاً لماذا أخذت فايزة. هدّأتْ أم صلاح من روعها. الله يرحمها. العمر مقسوم. وسمعتها تقول. روّحوا البنت متل شربة مي. بحجة الجن روّحوا فايزة يا حسرتي يا بنتي... وقالت أم حامد لفادي والله أعلم...

خرجت جنازة فايزة من الحارة. تقدم الجنازة أبوها ناظم بيك وأبو مالك والشيخ عبده ومشى أبو صلاح حزيناً مطأطئ الرأس كأن فايزة ابنته. مشى في الجنازة كل أهل الحارة ماعدا عبد الغني. ظل في البيت. عبد الغني لم يصدق أن فايزة ماتت. لم تتمكن سيارة دفن الموتى من دخول الحارة. حملها شباب الحارة. قال بعضهم. كان التابوت خفيفاً. كأن وزنها عشرة كيلوات. وقال آخرون كانت تفوح من التابوت رائحة مسك. وقالت فتيات من الحارة إنهن شاهدنها أثناء غسيل جسدها. كان جسدها أجمل من كل أجساد الصبايا. لكنها كانت فزعة. عيونها مغمضة لكنها كانت فزعة. واختلفت آراء الناس. منهم من قال إن الجن سرقوها من التابوت، ثم أعادوها إلى المقبرة كي تدفن هناك لأن الجن لا يحبون الموتى.

بقي السر مع فايزة. لا أحد يعرف إذا كان الجن هم من حركوا ستارة نافذتها عندما كانت عارية أَم أن عبد الغني نفسه هو من فعل ذلك. وقال أحد فتيان الجسر الأبيض لإحدى الفتيات اللواتي يتجمعن أمام مدارسهن عند الظهر. إن شاباً ارتدى قناعاً وأراد أن يرى جسدها الجميل، فظنته فايزة جنيا، و أهل الحارة تاهوا بين الجن والإنس!

* * *

كتب أبو صلاح على دفتره: «حزنتُ على فايزة. رحمة الله عليها. كسرتْ ظهر ناظم بيك جارنا، وشغّلت الحارة بقصص الجن والإنس من جديد. أبو أيمن العطري ناوي ينتقل من الحارة، ولا أحد يعرف السبب...».

وكتب التاريخ بطريقة جديدة:

٢٧ ربيع الأول ١٣٨١، الموافق ل ٩ أيلول ١٩٦١، ثم دوّن تحته ملاحظة أخرى:

«الضباط اختلفوا مع عبد الحكيم عامر. والأحداث تنبئ بالأسوأ.. »

سقوط الحمامة من المئذنة!

خفّتْ حركةُ الناس بشكلٍ ملحوظٍ في ساحة الجسر الأبيض، ظهر القلق في وجوه المارة القليلين، الذين يتحركون في مفارق الساحة وفي وسطها وفي زواريبها وحاراتها، وكأن الناس يتوقعون تداعيات خطيرة في البلاد نتيجة الخلافات بين المشير عبد الحكيم عامر وضباط من الجيش السوري التي تتكاثر الشائعات حولها وحول تداعياتها العسكرية.

كان بعض الضباط والجنود المصريين يمرون بسرعة، في أكثر من اتجاه، يبحثون عن شيء من الاطمئنان المفقود، وعند فرن خبز المرقد في بداية طريق الشيخ محي الدين، ثمة رتلٌ طويلٌ يوحي تجمعُّه بأزمة ما قادمة، وعندما تناثرتْ فوقهم حبات من المطر، ردد رجل عجوز:

- أيلول دنبو مبلول. الله يبعت الخير.

وجاءت بعض الأصوات: آمين. آمين يارب. آمين يارب.

كانت أم مالك تقف على المشرقة المطلة على خربة قصر المؤيد، تراقب المارة الذين يتحركون صعوداً ونزولاً، مستعجلين بلا هدف محدد. تحدق بالسيارات القليلة التي تضطر للانتظار خلف الباصات الكبيرة فتسير ببطء وتشغل الشارع عندما تتواجه مع حافلة التراموي.

نالت أم مالك حصتها من المطر الخفيف، ومع ذلك ظلّت في مكانها، ولم تدخل إلى الغرفة، ومن هناك سمعت صوت ابنها مالك. ناداها من أرض الديار:

- ماما. هل تريدين شيئاً من الجسر الأبيض؟

ردت عليه بصوت يكاد لا يسمعه:

- حبيبي سلامتك..انتبه.. الأوضاع مقلقلة بالبلد!

ضحك مالك، وخرج عبر الحارة، وهو يفكر بكلام أمه: «السياسة في بلادنا والخلافات حول المستقبل جعلت الأمهات يخفن على أبنائهن». وسأل نفسه:

«فعلاً ماذا سيحصل لو وقع الانفصال؟!».

كانت حارة المؤيد فارغة من الناس. الأبواب مغلقة، والستائر مرخاة على النوافذ، يترامى من واحدة منها أغنية «صافيني مرة» لعبد الحليم حافظ. أما أطفال الحارة فقد انكفأت حركتهم ذلك الصباح، فقد فتحت المدارس أبوابها، وعادوا إلى الجد!

تذكر مالك فتاة أحلامه المهاجرة نجوى أغريبوز. شعر بالندم. «كنت أشعر أن الحارة جميلة لأن فيها نجوى...» وجاء صوتها من داخله: «ولكنك كنت تحب واحدة ثانية!». فسخر من نفسه: «هل هي عنترية، أم عقدة دون جوان؟»، واتهم نفسه:

«أقل ما يقال إنني لا أعرف ما أريد!». ثم اتخذ قراره بصوت عال:

- أقنعت أبي بتأجيل طلب يد سعاد دك الباب إلى مابعد عرس ملك. وهذه المرة سأقنعه بالسفر!

* * *

على المشرقة تراءتْ أرضُ خربة المؤيد أمام عيني أم مالك تخدش الصورة التي تحبها عن الجسر الأبيض. اشتعلت هواجسها التي كثيراً ما سعت إلى إخفائها. سألت نفسها:

«أتكون القطط السوداء من الجن فعلا؟ أيكون الجن انتشروا فعلاً في كل البيوت؟ وكيف سنعيش في هذه الحالة؟؟» وسألت نفسها من جديد: « وهل سنقيم عرس ملك هنا؟!».

ولم تجد أجوبة عن تلك الأسئلة!

حدّقت جيداً بأكوام الحجارة المتجمعة في الخربة. أخذتها التداعيات إلى أيام زمان. يوم زارهم عادل بيك المؤيد مع زوجته في البيت. ودعاهم إلى قصره متودداً لجيران حارته، وقال لها:

- أعرفُ جدّك جيداً. كان من وجهاء الشام. كان يقيم في رمضان موائد يومية للصائمين الفقراء. بيت سكر معروفون بكرمهم.

ترحمت عليه، فعادت الأسئلة تشغلها: «أيكون الجن قد غزوا بيته فعلا؟ ثم لماذا يأتي الجن ليشعلوا الخوف في حياة الناس؟ ولماذا يظهرون للبعض ولا يظهرون للبعض الأخر؟» ثم تذكرت شيئاً ما قالتُه أمُّها لها ذات يوم: «الجن والشياطين صورة الشر والفتنة في حياتنا!!»

ارتعش جسد أم مالك. أحست أنها تكتشف شيئاً ما يتحضّر لاستهداف استقرار حيوات الناس. فكرّت: «حتى الحارة بدأت تتغير!»، ثم همست تحدث نفسها: «إذاً هو الشر يقتحم حياتنا... يا رب تلطف بنا وبأولادنا!». وجاءها صوت فلك من الداخل:

- ماما، ألم تبردي بعدِ؟ المطر سيبللك!

صحت أم مالك من شرودها، وعادت إلى غرفتها تنفض حبات المطر القليلة عن رأسها. وركضت فلك نحوها تخلع إيشارب أمها وتغطي رأسها بمنشفة بيضاء.

* * *

اشترى ملك عبد ربه علبة سكائر وكبريته من كشك أبو جواد التخين، وهو الكشك الوحيد في الجسر الأبيض الذي يجاور جدار الجامع الغربي، وعندما همَّ بالابتعاد، هوت بالقرب منه حمامة بيضاء سقطت من مئذنة الجامع القريبة!

ارتطمت بالأرض، كحمامة أصابها الصياد وهي تطير عائدة إلى عشها في درابزين المئذنة الخشبي، أو كأن يداً رمتها من فوق وهي غير قادرة على الطيران!

انتفض مالك لصوت ارتطامها بالأرض، ونظر بسرعة ليعرف ما حصل بجواره. شاهدها وهي تلفظ أنفاسها، فقال:

- اللهم لا تجعلها نذير شؤم!

عندما أطلق هذه العبارة، سمعها أحد المارة فتفاعل معها:

- وهل هناك شؤم أكثر مما يحصل الآن!

اقترب فلاح يرتدي عقالاً وقمبازاً طويلاً وحملقَ بالحمامة، ثم دفعها بقدمه إلى حافة الرصيف، تدحرجت الحمامة نحو سكة الترامواي، واستقرت عليها. وبسرعة اندفع مالك نحوها، وسحبها من جناحها بعيداً عن السكة، وعلى مسافة قصيرة ترامى صوتُ الترامواي فكاد يصدمه:

طرك. طرك. طرك.

سمع صوتاً باللهجة المصرية:

- هو أنت خايف ع الحمام ومش خايف على روحك؟!

ابتسم مالك للشاب المصري. أشعل سيكارة من علبة الدخان التي اشتراها، ورمى عود الثقاب المطفأ في الشارع، ثم سحب من السيكارة بعمق

فتوهجت جمرتها، وفي صدره اشتعل قلق غريب في مشاعره الأولى التي كان يتشارك فيها مع الناس الذين يتوقعون حدثاً كبيراً يقع في البلاد.

ذلك اليوم. هو من الأيام الأخيرة في الوحدة القائمة بين سورية ومصر، ففي صباح اليوم التالي ترامى صوت المذيع من الراديو الموجود في دكان أبو صلاح يتلو البلاغ الأول:

«في صباح هذا اليوم قام جيشكم الذي كان دائماً وسيبقى أبداً، دعامة وطنية راسخة، قام للحفاظ على أرض الوطن وسلامته وحريته وكرامته، قام لإزالة الفساد والطغيان ورد الحقوق الشرعية للشعب...»

هز أبو صلاح رأسه، وقال:

ـ رجعنا للّت والعجن. يقوم السوري من طابوسة فيقع بطابوسة جديدة!

عرف أبو صلاح أن الانفصال وقع، وعندما سأله أحد الزبائن بفضول:

- شو قصة البلاغ اللي حكته الإذاعة. أنا ما فهمت شي؟

ضحك أبو صلاح بسخرية، وقال:

- يعني خلص... انفصلت سورية عن مصر!

تجمع الناس عند دكان أبو صلاح، فرفع صوت المذياع الذي تصدحُ منه الأناشيدُ الحماسية، وبين حينٍ وآخر يحول المؤشر إلى إذاعة لندن، ثم يعيده إلى إذاعة دمشق...

هذه الإذاعة بثت أكثر من تفصيل من بينها أن أكرم الحوراني وقّع على بيان الانفصال، وأن الأحداث تتدهور في سورية وأن المشير عبد الحكيم عامر محاصر وسط العاصمة دمشق وأنه سيحاسب على تدبير فرار اللواء

عبد الحميد السراج إلى القاهرة المسؤول عن ممارسات مخابرات الشعبة الثانية في التنكيل بالشعب السوري في خلال حكم الوحدة...

تلونت وجوه المتجمعين أمام الدكان باصفرار باهت تتوقع أحداثاً كبرى وصعبة. حاول أبو صلاح تغيير المؤشر إلى إذاعة صوت العرب، وعندما عجز عاد إلى إذاعة دمشق، فإذا هي تواصل بث الأناشيد العسكرية، فقال ساخراً:

- عدنا إلى أجواء الانقلابات!

عند مكتبة الحمصي، كان هناك جمهرة تقرأ عناوين الصحف، وقد كتب الصحفي فتحي المحايري ملاحظات عن تلك الفترة تناقض العناوين الحماسية المنشورة في الصحف، وجاء فيها: (كانت دمشق تغلي، فقد استعصت حلب على الانفصال وجاءت أخبار أن عبد الناصر سيرسل قوات مصرية إلى اللاذقية لتدافع عن دولة الوحدة، وسمع الناس صوت المذيع توفيق حسن وهو يعلن استمرار دولة الوحدة، وفي حارة المؤيد كانت ردود الأفعال غير ما كنت أتوقع، فالمودة التي كانت موجودة تكسرت، والحساسيات من المواقف السياسية تشتعل فجأة لتشكل أزمة بين أهلها...).

بعد أسبوعين فقط، نشرت الصحف بياناً أثار اهتمام الجميع أصدره الرئيس السابق شكري القوتلي نفسه الذي تنازل عن الحكم من أجل الوحدة، لكن بيان القوتلي كان دقيقاً في صياغة عباراته التي وجهها إلى السوريين: «يشهد الله أنكم أقبلتم على قيادتكم العربية، في ظل الوحدة، بكل شعور مطمئن ونفس راضية، مهما عرف عنكم من تبصر وحذر إزاء الحكم والحكام، ومهما عرفتم به من حذر وتشكك نحو ما يبذل بين أيديكم من عهود ووعود. وإن يكن الوطن في واقعه اليومي الذي لا مفر منه، ولا سبيل إلى الإشاحة عنه، مجموعة مصالح ومجتمع أفراد، فقد كنتم يوم الوحدة، كما كنتم في أيام مشهودة من تاريخ

جهادكم، ترتفعون فوق مستوى الاعتبارات المصلحية لأن عاطفتكم القومية كانت دائماً نداءً واستجابة للنداء، وعطاءً واستعداداً للعطاء».

سمع الشيخ عبده الخرسا تفاصيل البيان وهو يهز رأسه ساخراً:

- الله يرحم أيامك يا شكري بيك.. الآن صدقت وآمنت بما قلناه!

وكان فتحي المحايري واقفاً، فقال:

- القوتلي كان خائفاً من الأحلاف، ومن تجريد سورية من استقلالها، معه حق في ذلك، فهو جاهد بعناد من أجل جلاء الفرنسيين عن بلادنا. ولكن تخليه عن الحكم أضر بموقفه... هذه حقيقة.

وقال أبو صلاح البوشي:

- تخليه عن الحكم لعبد الناصر كان خطأ كبيراً، فمن يضبط السوريين الآن بعد الانفصال، ستعود الانقلابات كما كانت بعد انقلاب الزعيم.

وقال أبو مالك، وكأنه لم يسمع تعليق أبو صلاح:

- القوتلي يعتبر أن المربح معه في التخلي عن الحكم لأنه يعرف طبيعة الشعب السوري... هل نسيتم قوله إن ثلاثة أرباع الشعب السوري يريدون الزعامة؟

فرد فتحي المحايري:

- الحقيقة أن رجلا نزيهاً وطنياً كالقوتلي لايمكن إلاّ أن يبتعد عن الحكم و ذاكرته مليئة كذاكرة الناس مع السفرجل. كل عضة بغصة!

كان الشيخ عبده شبه شامت. يعلو صوته كلما حاول أحد من الحضور تبرير مواقف عبد الناصر، أو شكري القوتلي، ثم قال وكأنه لا يريد أن يفتح حواراً مع أبو مالك:

- وقع الانفصال، وصلى الله وبارك. خلصنا.

قال أبو مالك، وهو يعيد الحوار إلى أصله:

- الآن، حق الحق وصار ينبغي أن نعرف رأي القوتلي...

فهز الشيخ عبده رأسه، وقال:

- يا حسرة. أين هو الآن. أعطى عبد الناصر البلاد ومشي روّح البلاد وروّح حاله؟!

حرك أبو مالك طربوشه بيده وهو يتحدث:

- أنا ما سألت رأيك يا شيخ عبده. خليني كمّل. خليني كمّل.

لم يكن أبو مالك يريد الدفاع عن القوتلي، «فقد كان جارنا» كما قال. كان أبو مالك يتحزب لرأي غريب، ولم ينتبه أحد إلى أهميته في ذلك الوقت. ردده أكثر من مرة، وهاهو يعيده الآن:

- نحن من يجب أن نقيم الوحدة، وليس العسكر. العسكر يحصرون كل شيء بمصلحتهم وبشخصهم، الزعامة تقتلهم وتقتل البلاد.

في تلك الجلسة، أعاد أبو مالك فكرته، وهو يتحاشى الشيخ عبده:

- صحيح الانفصال وقع. لكن يجب أن ننتبه إلى الدرس. نحن معنيون الآن بمشروع الوحدة.

فرد الشيخ الخرسا مغتاظاً وقد ظن أن الكلام موجه له:

- الدرس للقوتلي، وليس لنا. نحن نعرف قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...**﴾ صدق الله العظيم. وأَنت تريد الآن أن تذكر الناس بأنني كنت مع الشيشكلي، فهذا الكلام

الذي تقوله لي سبق وقلته لي بعد سفر الشيشكلي لكي لا يعمل بلبلة ويعلق الناس ببعضها البعض.

رد أبو مالك:

- معاذ الله. أنا لا أريد الإساءة لأحد!

وتدخل مالك، الذي وصل قبل قليل:

- يا شيخ. خلصنا بقا. الرأي رأي حتى لو كان ضد الشيشكلي أو ضد عبد الناصر. بلادنا لا يمكن أن تستمر بأصالتها بالانقلابات وتهميش الناس والفعاليات التي تسيّر البلد. البلد يحتاج إلى عقل ووطنية. الحماسة تخرب لا تعمر!

اغتاظ الشيخ عبده، فعلا صوته:

- قرأت كم كتاب وتريد أن تعلمنا السياسة...

ومشى الشيخ عبده محتجاً وهو يتمتم:

- مالك يؤستذ علينا.

راقب أبو مالك ما يجري بصمت، وقال:

- ابني لم يقل شيئاً يقلل من قيمة جيراننا. مالك مربى!

هز أبو صلاح رأسه، وقال:

لا حول ولا قوة إلا بالله!

كتب أبو صلاح على دفتره في ذلك اليوم:

السياسة فتنت حارة المؤيد،والأيام القادمة صعبة!

انقسام حارة المؤيد!

خرج أبو صلاح من بيته متأخراً على غير العادة، وقبل أن يفتح دكانه، وقف في ساحة الجسر الأبيض يراقب ما يجري من حوله. نزل باتجاه مكتبة جاره أبو أنس الحمصي، فوجده داخل المكتبة يحدّق أمامه شارداً.

رمى التحية عليه:

- صباح الخير أبو أنس. كيف الوضع. هل ستتدحرج الأمور أم ستهدأ!

ضحك أبو أنس، وقال:

- الأمان بالله يا أبو صلاح. الأخبار مخربطة صحيح. واليوم تأخرت الجرايد، والله أعلم.

عاد أبو صلاح باتجاه دكانه، وشرع يرفع الغلق وهو يردد:

- يافتاح. يارزاق. ياكريم.

وقال بصوت عال:

- الحمصي معه حق. الأمان بالله.

دخل أبو صلاح إلى دكانه. جلس على كرسي القش، فترامت أصوات هتافات قوية قادمة من العفيف. مدّ رأسه من واجهة دكانه يستطلع الأمر. رأى مشهداً أثاره، فعشرات الطلاب والتلاميذ خرجوا في مظاهرة تأييد للرئيس عبد الناصر، واتجهوا نحو الطلياني وعرنوس... ارتفعت هتافات الطلاب:

لا دراسة ولا تدريس... إلا بعودة الرئيس...

سيطر عليه فضول غريب. خرج من الدكان وأغلق الباب الزجاجي للواجهة، وراح يتابعهم وهم يتوجهون نزولا وتزداد أعدادهم...

التقت مجموعات من المؤيدين لعبد الناصر في مفارق ساحة عرنوس. ضاق المكان عليهم. مفارق طرق لا يمكن أن تتسع لهذا الحشد، فازدحم المكان بالناس وتصاعدت الهتافات المدوية مع الوحدة:

- (بكداش خبّر موسكو سورية عربية...)

كان مالك عبد ربه يراقب الحشود مع صديقه الصحفي فتحي المحايري، شاهدا مجموعات من الناس تتجمع وتزداد. من شارع الشهداء اندفعت مجموعة من العمال والموظفين والطلاب وقد علت هتافاتها باسم الرئيس جمال عبد الناصر:

- ناصر. ناصر. ناصر.

ونزولاً من جهة جامع دك الباب تدفقت مجموعات من العمال والموظفين يهتفون للوحدة. ومن جهة حديقة السبكي اندفعت موجة متظاهرين يهتفون ضد عبد الناصر. اتضح جلياً أنّ الأمور تتجه نحو التدهور والتصادم بين مجموعات متعارضة في الموقف.

قال فتحي المحايري:

- هذه الأيام تاريخية... لو أن عبد الناصر يتصور هذه اللحظة كان غيّر الكثير من الأشياء...

وعلّق مالك، وهو يهز رأسه:

- أما قرأت ما كتبه نصوح بابيل...

رد فتحي:

- نعم كتب أن عبد الناصر لم يفهم الشعب الذي أحبه.

أضاف مالك بتلقائية:

- كتب نصوح بابيل الأهم أن السوريين لا يمشون بالعصا!

اقتربت موجة من المتظاهرين المعارضين لعبد الناصر فراقباها وهي تصل مكان التجمع في عرنوس لتصطدم بالمجموعات الأخرى. وفجأة اندلعت مواجهات دامية بالأيدي والعصي والأحزمة. اختلط المتظاهرون. لم يعد أحد يعرف الآخر. ثم تفرقوا، تقهقرت المجموعة المناهضة لعبد الناصر، وسقط كثيرون على الأرض وقد دميت وجوههم، لكن مناهضي عبد الناصر تماسكوا ودافعوا عن أماكنهم وشعاراتهم ..

افتقد فتحي المحايري صديقه مالك وسط فوضى وقعت بالقرب منهما، فلم يعد يراه. راح يبحث عنه بين الجموع، صاح يناديه: مالك. مالك. مالك... عمّت الفوضى المكان. ثم اتسعت التجمعات. غدت شوارع دمشق كلها ساحات صغيرة لصراع المظاهرات، وشوهد متدينون يواجهون الناصريين بعنف... وقيل إن الشيوعيين خرجوا مع الإخوان المسلمين لأول مرة في مظاهرات ضد عبد الناصر...

تناثرت في بعض المناطق صور جمال عبد الناصر وأوراق طُبع عليها اسم فرج الله الحلو ولافتات كتب عليها (الله أكبر). تدفقت الشرطة العسكرية إلى الساحات، وانتشر الناس يلهثون وهم يبحثون عن أولادهم في الشوارع، ويعلنون:

- هذه حرب أهلية. لعن الله السياسة، السياسة في بلادنا تخرب البيوت...

لم يترك فتحي المحايري ساحة عرنوس. وقف خلف عربة ترامواي قطعت التجمعات بإلحاح سائقها على استخدام التنبيه:

طرك. طرك. طرك... ظل فتحي يخوض بين المتجمعين، يبحث عن مالك، ويسأل نفسه:

«أين اختفى؟!».

وفجأة وجده. هاهو مالك في مأزق خطير، يرد الضربات عن جسده. وكان مضرجاً بالدم. تدخل فتحي. عرف أنهم ناصريون. صاح بهم:

- ياشباب... هذا ناصري... هذا ناصري..

توقف الضرب تلقائياً. وتفرق المتظاهرون عن مالك، وتركوه بحالة يرثى لها يئن من الوجع. سارع فتحي لمساعدته. فحمله ومسح عن وجهه الدم، وطلب منه الفرار لكن صوتاً ناداه:

- أستاذ فتحي... أستاذ فتحي...

التفت إلى مصدر الصوت، فإذا هو أحد الصحفيين يريد الحديث معه. أفلت مالك من يده. كان قد انتصب واقفاً يضع يديه على رأسه ليوقف الدم. وفجأة اندفعت نحوه مجموعة من الإخوان المسلمين:

- هذا ناصري. هذا ناصري.

وكأن أحداً ما أرشد إليه بعد أن سمع ما يدل بأنه ناصري. أيقن فتحي المحايري أن مالكاً هالك لا محالة. خاف من الاقتراب منه. هذا يعني أنه سيسقط بجواره. سمع صوتاً:

- إنه ناصري.

أحس أنه يعرف صاحب الصوت. لكن من يكون؟

دقق جيداً في الوجوه. اختلط عليه. كان حال مالك يشغله. وفجأة لاح أمامه شيخ يعرفه. ناداه:

- يا شيخ عمر. يا شيخ عمر...

التفت الشيخ عمر نحوه. وناداه وسط الصراخ:

- خير يافتحي. خير؟

فقال فتحي:

- دخيلك... شبابكم يضربون صديقي وهو ليس ناصرياً!

وأرشده إليه. ركض الشيخ وخلّصه منهم. تداعى مالك وكأنه جدار تهزه الأرض. حمله فتحي بعيداً وهو يشكر الشيخ عمر. ثم نقله إلى مستشفى الطلياني، وهناك سارع المسعفون لنجدته.

اتصل فتحي ببيت عبد ربه وأخبرهم بما حصل:

-نحن في مستشفى الطلياني، لكن مالك بخير لا تخافوا...

خرج أبو مالك من البيت على عجل. وراح أفراد الأسرة يبكون ويدعون الله أن تمر المسألة على خير...

رن جرس التلفون من جديد. ركضت ملك. ظنت أن شيئاً ما تطور في المستشفى. همست بخوف: يارب تنجيه... ولحقت بها أمها تجهش ببكاء مرير:

- يجب أن ننزل إلى المستشفى. يجب أن نعرف ما حصل له!

فإذا نجوى أغريبوز على الخط . تحكي وتبكي:

- يا ملك الوضع عندنا في حلب تعبان. الرصاص يطلق في الشوارع. كأننا في حرب!

واجهتها ملك بنوبة بكاء وكلمات متقطعة:

- مالك في المستشفى. ضربوه في المظاهرات، وذهب أبي لمعرفة ما الذي حصل!

أجهشت ملك بالبكاء، وشهقت نجوى بالدموع، ولم تعد كلتاهما تفهم على الأخرى ما تقول...

في ساحة الجسر الأبيض تحركت جموع الناس في شتى الاتجاهات. غصت الساحة بحركة واسعة تتصل بالحارات، وخاف ضباط مصريون كانوا يجمعون أمتعتهم ويتجمعون عند المفارق، لكن سكان الجسر الأبيض كان ينادونهم:

- لا تخافوا. أنتم مصريون ومن أهلنا. السوريون معكم. لا تخافوا... الانقلابات لا تمثل السوريين...

وكان هناك نساء مصريات يمسكن أطفالهن ويسألن الضبّاط عما يجري في الثكنات.

بعد ساعتين خرج مالك مع أبيه وصديقه فتحي من المستشفى. وصلوا إلى البيت يساعدون مالكاً الذي لفّ رأسه بضمادات بيضاء مصبوغة باللون الأحمر.

توافد كثيرون من سكان الحارة إلى بيت عبد ربه يستفسرون عن الأمر. ظل الباب مفتوحاً، والناس يدخلون ويخرجون. يسألون عن مالك ويعربون عن أسفهم لما يحصل. طارت حمامة بيضاء كانت ترقب المشهد على طرف الدالية. وتحت شجرة اليافوي جلس مالك عبد ربه على صوفا تشبه المرجوحة وبجواره أبوه وصديقه وناظم الإيتوني وبعض الجيران، ووصل أبو صلاح متأخراً...

جرى نوع من اللغط. لم تُفهم معانيه في البداية، فقد تداخلت الأصوات، ثم هدأت، كأن الجميع يريدون معرفة العبارة التي نطق فيها فتحي:

- نعم عبد الرزاق. جارنا عبد الرزاق الخرسا كان يرشد الإخوانجية عليّ!

هز أبو صلاح رأسه. فهو شاهدٌ آخر لا يريد أن يبوح بما حصل. وعرفت حارة المؤيد كلّها أن عبد الرزاق الخرسا كان بين المتظاهرين الذين شاركوا بضرب مالك. أقسم مالك أنه شاهده بعينيه، وقال فتحي إنه رأى أحداً ما من الحارة يحرضهم على مالك ولكنه لا يعرف اسمه، وتعالت الأصوات:

- عيب. عيب. أليس ابن حارته!

لم يكن الشيخ الخرسا موجوداً في تلك اللحظة، فإذا بصوت أم مالك يتعالى من الليوان:

- الحارة لم تعد تنسكن يا جماعة. كان مالك راح لولا لطف ألله!

بكى أبو صلاح وخرج من بيت أبو مالك مطأطئ الرأس، ولم يكتب شيئاً على دفتره ذلك اليوم!

اهربوا!!!

نهض مالك من فراشه صباحاً في غرفته في الطابق الثاني من البيت، ونزل ليجلس في الإيوان، بعد أن شعر بالقوة تعود إليه. كان يرتدي منامته ويلف رأسه بلفافات الشاش المصبوغة بدواء الميركيكروم الأحمر، وأمامه فنجان مذهب مليء بالقهوة، وعلبة تبغ مرمية على الصوفا، وعندما همَّ بإشعال سيجارة منها رن جرس البيت، فتذكر رغبة شقيقته في تغيير الجرس. ابتسم، وقرر في نفسه:

«عندما تتحسن حالتي سأغيره بالتأكيد!».

جاءت أمه. أخبرته أن سعاد دك الباب جاءت لتزوره. طلب أن تنتظره في المربع، فأطلت من خلفها، وهرعت نحوه:

- سلامتك يا روحي. فكرت حالي ضيفة...

صعدت درجة فأوصلتها إليه في الإيوان. قبّلت رأسه. أمسكت يده وضمتها إلى صدرها. بكت. قالت وهي تمسح دموعَها:

- طار عقلي وقت سمعت!

وسألته:

- كيف يضرب ابن الحارة ابن حارته؟!

طمأنها مالك بأن المسألة لا تزيد عن خدوش بسيطة في جسده ووجهه. وفي هذه الأثناء تركتهما أم مالك، واتجهت إلى المطبخ. وعند بابه ارتعش جسدها. أحست أن شيئا ما يتحرك في الداخل، فعادت.

طلبت من سعاد أن تأتي معها لتجديد القهوة لها ولمالك. ردت سعاد:

- بدي سلامتك. خليني شوف مالك.

وأضافت كأنها فهمت رسالة ما تريد أم مالك إيصالها إليها:

- اجلسي معنا. لا تتعبي حالك!

فاحت رائحة سعاد الجميلة. تراخى الإيشارب الزهري الذي ترتديه. وتمردت غرّتُها لترسم على وجهها أنوثة فياضة. همست:

- أمك خايفة عليّ منك!

لوح مالك بحركة من وجهه ينفي توقعها، وقال:

- لا. قد تكون بحاجة لتخبرك شيئاً ما!

أفلتت يده. ونهضتْ. رسمت له قبلة بشفتيها، وقالت:

- إذا هيك. لازم نشرب قهوة!

خرجت من الإيوان باتجاه باب المطبخ. فأسند مالك رأسه وتنفس الصعداء، وارتسمت أمامه صورة نجوى أغريبوز، فأغمض عينيه كأنه يريد أن يغيب في حلم كان يحلم به كثيراً.

* * *

عند المساء. جرى حديث آخر بين أبو مالك وزوجته. طرحت موضوعاً شغلها كثيراً كانت قد أخفته هو موضوع القطط السوداء. تمسكت أم مالك بحجتين دفعة واحدة. قصة ضرب ابنها وقصة بيت العطري. لم تعد تحتمل كتمان ما تعاني منه، وما تراه:

- قد لا تصدق يا أبو مالك. أنا لم أعد أحتمل البقاء في حارة المؤيد!

اتخذتْ القرار.

كانت تلك المرة الأولى التي تواجه فيها زوجها إلى الدرجة التي اشتعل غضبه عدة مرات، وهو يردد:

«خليني كمّل. خليني كمّل». فاجأتْهُ بقرارها، وبالقصص التي سردتها له:

- نعم يا أبو مالك. يجب أن نغادر البيت فوراً. الحارة صارت غير حارة. الناس غير ناس. والبيت مسكون. نعم مسكون. القطط السوداء مخيفة، وكأن القطط اشتروه منك ولم يعد من أملاكك، أو كأنهم دفعوا فروغه، أو أنك أجرته لهم، وعلينا أن نخرج!

لم يعتد أبو مالك على تلك اللهجة من زوجته، ولم يصدق هذا التغير بموقفها. نظر من النافذة، فوجد أضواء غرف أولاده وقد توهجت، فتأكد أنهم أصبحوا غير قادرين على سماع الحديث. قال لزوجته:

- هذه هي المرة الأولى التي أسمع منك كلاماً من هذا النوع. أنسيت كلامك عن العلم وعن ملك التي تتحدث لغتين وعن مالك الذي رأسه قد بلد. أنسيت يا أم مالك؟!

وردت بإصرار:

- لم أنسَ. ولن أنسى. ولكن ما حصل، حصل معي أنا، ولم يحصل مع غيري، وقبل أن تحصل معهم مفاجأة ما، ويَشْتُرُ الجنُّ حنكَ واحد منهم، وقبل أن يجن مالك كما جُن خالد المؤيد، علينا أن نغادر البيت.

وأضافت بحزم:

- لم تكن الحالة تستدعي من قبل، أما الآن فيجب أن نأخذ المسألة بجدية، ونرحل!

شرح أبو مالك ظروف البلد:

- يا أم مالك. البلد قايمة قاعدة. لا أحد يعلم ما الذي سيجري. عبد الحكيم عامر محاصر بالمرجة. وموفق عصاصة جاهز ليضرب بالطيران. والعسكر في الشوارع، والضباط المصريون ما زالوا مستأجرين في بيوتنا، فكيف سأخرج من البيت والبلد يفور مثل تنور الخبز... كيف سأترك البيت وأترك أهل الحارة. وماذا سيقولون عني؟!

قالت أم مالك:

- أبو نجوى ترك الحارة وما سأل. أهل مكة أدرى بشعابها.

فقال أبو مالك باستسلام:

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

في تلك الليلة. نام أبو مالك قلقاً. سيطرت عليه هواجس كثيرة، فقد فاجأه هذا الذي يحصل في بيته، وكان خوفه يزداد من صدام آخر بين ابنه وابن الخرسا!

أرقته الأسئلة والتخمينات والتداعيات التي راحت تفرض نفسها عليه. فكر بمسألة الانتقال إلى بيت آخر، فهي «ليست صعبة»، وخاصة أنه اشترى بيتاً حديثاً واسعاً في العفيف على مقربة من الجسر الأبيض، وهي ليست غريبة فكل الناس تغير بيوتها «ولكن كيف أترك الحارة التي أحبُّها، كيف أتخلى عن روائح الياسمين والفل وزهر البرتقال والحبق في بيتنا. كيف أتخلى عن الجيران الطيبين ناظم وسعيد وأبو صلاح...»

انتبه إلى أنه لم يذكر اسم الشيخ عبده. حاكى نفسه: «الله يسامحك يا شيخ عبده. الله يسامحك ويسامح ابنك!».

حلّت صورة «أبو نجوى» أمامه والدموع في عينيه وهو يعاتبه، وجاءت صورة مالك «العاشق الولهان، الذي أساء لأعراض الناس»، فأبو نجوى ترك الشام كلَّها بسبب حكي الناس وحفاظاً على سمعة ابنته...

بدأت الفكرة تنضج في رأسه. تقلّب أبو مالك في فراشه كثيراً، ثم غفا... كان نومه قلقاً كما كانت حالته قبل أن يغفو. استعاد في نومه قصص قصر المؤيد وصراخ جاره أبو عادل بيك المؤيد ليلة الضباب الشهيرة. ظهر أمامه وجه الدكتور خالد وبقايا القصر الذي تحول إلى خربة، ثم مصير الدكتور خالد في شوارع الشيخ محي الدين والجسر الأبيض والأطفال يتجمعون حوله يصفقون له ويهزؤون منه!

أيقظه صوتُ أذان الفجر. نهض من فراشه مسرعاً، فلابد أن يتوضأ، ويرتدي ثيابه ليصل إلى الجامع قبل إقامة الصلاة. نزل نحو أرض الديار، لم تكن تلك اللحظات ممتعة كما هي عادته كل يوم، كانت هذه المرة من نوع خاص، كانت تشبه دخول المريض إلى عملية جراحية.

على الدرج الخشبي الذي يصل العلّية بالنصّية تردد في نزوله. عند الدرجة الخامسة ترامى إليه أنين مسموع. أرعبه أن الأنين. كان واضحاً وفي زاوية الدرج شاهد فايزة ابنة ناظم تئن!

كانت فايزة قد ماتت وشبعت موتاً، فمن جاء بها إلى بيته؟ شاهد قططاً سوداءَ تدور حولها. لا حظ أن عيونها تستغيث وقد تلونت بالأبيض. بسمل. قرأ مايعرف من أدعية. ثم وجد نفسه يعود فيصعد إلى غرفته بخوف!

توضأ من مغسلة المشرقة، ثم شرع في صلاة الفجر في الصوفا، وبعد أن أنجز ركعتي الفرض قرأ المعوذتين ثلاث مرات وعندما أنهى الصلاة راح يردد:

- أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق... أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق...

* * *

زار أبو مالك جيرانه يخبرهم بنيته الانتقال إلى العفيف، قال لناظم الإيتوني:

- صدقني يا أبو محمود. المشكلة ليست مع الشيخ عبده فقط. لم أكن أصدق لو لم أشاهد بعيني، فقد تراءت لي المرحومة فايزة تئن ومن حولها تجمعت قطط سوداء عند درج النصية!

كان أبو محمود يصغي والدموع في عينيه. ثم قال:

- فتقت جروحي يا أبو مالك. أشعلت قلبي حزناً على فايزة.

تحول قرار أبو مالك في الانتقال من الحارة إلى نوع من الحدث، وجرت محاولات للصلح بين أبو مالك والشيخ عبده وبين مالك وعبد الرزاق ففشلت. توزعت القلوب. كل قلب راح باتجاه. وكانت عبارات أبو صلاح التي كتبها على دفتره في تلك الأيام معبرة فعلاً عن واقع الحال:

- حارة المؤيد تغيرت. أشم روائح جديدة لم تكن تظهر فيها!

في ذلك الصباح، الذي شرعت فيه سيارات البيك أب تنقل متاع بيت عبد ربه، تجمع أطفال كثيرون أمام الباب، كانوا يتفرجون على العمال وهم يحملون الأثاث إلى آخر الحارة. وكانت بعض النسوة تدخل إلى البيت وقد غطت وجهها من العمال، أو خرجت من البيت بعد أن ودعت أم مالك وابنتيها.

كان مالك آخر من خرج من البيت. أطبق الباب وأقفله، ثم لوح للمتجمعين، وفي نهاية حارة المؤيد، كانت سيارة البيك أب الأخيرة بانتظاره. ركب فيها بجانب السائق ولوح من النافذة بيده مودعاً أبو صلاح.

أخفض أبو صلاح رأسه بحزن. ولم يرد الوداع. لكن مفاجأة غريبة وقعت في هذه الأثناء. ففي آخر الحارة ظهر رجل رث الثياب طويل الشعر يراقب المشهد، وعندما أقلعت السيارة باتجاه العفيف تعالى صوته:

- اهربوااااا!

غرفة العناية المشددة:
ماريا الجاسوسة!

سمعتهم يتهامسون. يبدو أنهم تعبوا من هذياني فقرروا أن يتركوني. معهم حق. أتعبتهم. انشغل بي حامد عن حياته وأسرته. انشغلت فدوى عن زوجها وأسرتها. ومزنة تركت كل شيء من أجلي. أحسست أنهم يخرجون من الغرفة. بقيت وحيداً والحرارة تعود لتحرقني فماذا أفعل.

وجدت نفسي أخلع ملابسي. أتحول إلى طفل مشاغب. أتعرى كجني أزعر. أركض في باحة بيتنا القديم في حارة المؤيد. أرتمي في البحرة. أتخبط في مائها. ينبع الماء من جوفها ويفيض. أتطهر بالماء العذب. أغمر رأسي. أفتح عيني داخل الماء. أنظر إلى فوق. أرنو إلى سماء صافية رقراقة وأحلم. غداً يكبر جسدي. أصبح رجلاً عن حق وحقيق. ماذا يريد الرجل من حياته. سألتقي ديمة. سأقول لها هاقد أصبحتُ رجلاً. سنركب على بساط الريح. ونضيع في غيم هذا العالم. سآخذها إلى كل البلدان. سنضيع في شوارع لا تنتهي. سنبحث عن حارة تشبه حارة المؤيد. بين كل بلد وبلد سنكتب حكاية عن زمن جميل نريده ألّا يضيع. ستظل حارتنا العش الذي نعود إليه كلما ابتعدنا عنه، وستحكي لي ديمة عن أحلامها. تريد أن تصبح فتاة تشبه خالتها فايزة. تريد أن تتحلى أكثر من حلاوة طفولتها الرائعة. تريد أن تحضنني كفتاة كبيرة كما فعلت ذات يوم. جاءت ديمة. وجدتني رجلاً كهلاً خلع ملابسه فغدا كجني عجوز. ترتفع حرارته ويغلي. يمضي وقتاً في غرفة غادرها الآخرون. لا حاجة لأنادي أريد

ديمة. ها هي ديمة أمامي. قولي بربك ما الذي يجري؟ أخبريني هل أنا أحتضر؟ تنظر ديمة إليّ بعينين ضاحكتين. لا. لن تموت. أنت حارس الحلم الكبير الذي حلمنا به معا. أتذكر يا فادي بيت جدي ناظم. يا ألله ما أحلاه. فيه غرفة صغيرة باردة رطبة وضعت فيها جدتي أشياء تتعلق بخالتي فايزة وفيها شرشف تفوح منه رائحة جسد بض. يومها. نمنا على الشرشف. قلت لي نامي على يدي. نمت على يدك. لو شاهدنا جدي لمات خوفا عليّ. كيف تنام ديمة الصغيرة على يد فادي. وضحكنا. حكيت لها عن شجرة اليافاوي وعن غضب أبي. حكت لي عن خالتها فايزة وكيف كانت تخاف من القطط السوداء. سألتني لماذا لا تخاف أنت من القطط السوداء. قلت لها لأنها مجرد قطط. قالت جدتي إنها جن. وفايزة قالت إنها وحوش. قلت لها ربما ولكنها لم تؤذني...

نامت ديمة على يدي قرابة نصف ساعة. لم تتعب يدي. لكنها نهضت فجأة، وحذرتني. يجب أن تخرج من البيت كي لا يرانا أحد. وخرجت. وعند الباب همستْ تستعيدني أريد أن أبقى معك. وظلت عندي!

أحسست بحركة عند باب غرفة العناية المشددة. إنهم يعودون. قلت لديمة إنهم يعودون. قالت لا تهتم. قلت لن أهتم.

دخلوا من الباب. دخل حامد وفدوى. شاهداني عارياً. لم يشاهدا ديمة. ديمة طيفٌ. دُهشا من عريّي. خجلت فدوى. خفت أن تعرف مزنة أن ديمة معي في الغرفة. ركض حامد يغطيني بالشرشف. لماذا خلعت ملابسك. شرعت فدوى بجمع ملابسي. وأعطتها لحامد. يا عيني على حامد ألبسني ثيابي مثل أم. وسألني همساً لماذا فعلت ذلك. أخبرته أنني نزلت في البحرة. أي بحرة سألني. وأجبته أنني كنت في بيتنا القديم في حارة المؤيد وأن الحرارة أحرقت جسدي فغطست في الماء العذب.

ضحك حامد. وضع يده على رأسي. عبس. صرخ. فدوى أحضري الكمادات. جاءت الكمادات. جاءت الحمى. اجتاحتني مثل موجة كهربائية من نار فلم أعد أرى. انطفأ النور في عيني. تراءت صورة أشباح قديمة من حارتنا. أنا لا أخاف من الأشباح. أعرف أنها أشباح ولا أخاف منها. قلت أريد عازف العود. جاء عازف العود. رأيته يعزف بأصابعه، تصورته غجرياً يمشي في الحارات. سألته هل صحيح أن المباحث جاءت إلى البيت الأسود. قال نعم. سألته لماذا. قال لأنهم لا يحبون خالد بكداش. سألته هل يعزف خالد بكداش على العود. قال:

لا. ولكنه يحب سماع العود. خالد بكداش يفكر لقدام. يحلم بمستقبل سورية. يريدها حرة وقوية واشتراكية. اتهموه بالعداء لجمال عبد الناصر ولاحقته المباحث. لاحقته مخابرات عبد الحميد السراج. وعندما ذهب عبد الناصر وذهب السراج عاد خالد بكداش وعدنا للعمل.

قلت له رح أنت وخالد وبكداش والعود. عبد الناصر والوحدة أهم. راح عازف العود. بقي صوت العود في الليل والليل أسود والعتمة تسود المكان والحمى. قال والدي البكداشية ضد عبد الناصر والوحدة العربية. سألته وديمة. قال رح أنت وديمة إلعبا في الحارة. صرخت. أريد ديمة. ديمة. وصدى مه مه... ماااااا

قال حامد. كان يجب ألّا نتركه وحيداً في الغرفة فهذا يعني أن حالته قد تحمل مفاجآت كثيرة. من يدري فربما يخرج عارياً إلى ممر المستشفى ويتسبب بإحراج لنا وللأطباء والممرضات...

شاركته فدوى الرأي، وقالت كان يجب أن أبقى بقربه. مزنة تعبت واضطرت أن تذهب إلى بيتها ولو ليومين. قال حامد هذه المرأة لطيفة أرادت أن تبقى معنا في محنة فادي...

لماذا ذهبت مزنة. هل صحيح أنها تعبت. ربما لم تتعب. ربما يئست مني. معها حق أن تيأس مني. انتظرتني سنوات طويلة. وانتظرتها سنوات طويلة، وبين السنوات التي انتظرتها والسنوات التي انتظرتني نصف العمر أو ثلاثة أرباع العمر.

وسألت نفسي ماذا لو كانت مزنة بقربي وأنا أخلع ملابسي. هل كانت ستنزل معي إلى ماء البحرة. هل ستنظر إلى السماء الزرقاء الرقراقة من تحت الماء. وضحكت وأنا أتصور أننا صرنا سمكتين.

انخفضت حرارتي. الكمادات فعلت فعلها. تذكرت مزنة يوم زارتني في البيت لندرس معاً. كانت تجلس على الكرسي فتنكشف ساقاها. كانت مزنة لاتهتم لساقيها، أما أنا فكنت أهتم لجمالهما. قلت لها اجلسي بطريقة أخرى. فهمت أنني أتضايق من انكشاف ساقيها. وفي آخر مرة رفعتُ لها تنورتها. انكشف كل شيء. ملابسها الداخلية البيضاء انكشفت أيضاً. قلت لها انظري. هذا أفضل. خجلت مزنة وضمت ساقيها. انتبهتُ إلى أنها تبدو أجمل عندما تخجل وخاصة إذا كانت تنورتها مرفوعة. يومها حدثتني عن خالد بكداش. قالت لي إنه رضي بالمشاركة بالحكم، سحرته شخصية حافظ الأسد. وقالت كل الأحزاب سيشاركون حافظ الأسد في الحكم. سألتها والشيخ عبده الخرسا فضحكت.

كبرت مزنة. كبرنا معاً. ظلت إلى جانبي. لم تكن إلى جانبي عندما انتهى أخي من إعادة الملابس إلى جسدي. سألته عن مزنة. قال مزنة ذهبت إلى بيتها وأولادها. تعبت سترتاح قليلاً وتعود. صرخت في وجهه:

أريد مزنة. مزنة. وصدى مزنة. نة. نة... نااا.

لم تأت مزنة. تدخلت ديمة على عجل. طيفها لازمني لأول مرة في الحمى وقد كبرت. كانت امرأة ناضجة مثل حبة التوت. كانت ترتدي جنزاً أزرق وقميصاً سماوياً يكشف جزءا من صدرها. كانت تشبه سماءً واسعة صافية. رمقتني بغضب. أنا أعرف ديمة عندما تغضب. تزم شفتيها وتنظر إلى اليمين. زمّت شفتيها ونظرت إلى اليمين. لم تتحدث معي. امرأة حرون صارت. امرأة ساحرة حرون صارت.

فجأة غيّرت جلستها. وضعت يدها على رأسي. تغيّر وجهها. أنت نار قالت. ثم ابتسمت. قرّبت فمها من رأسي. قبّلت جبيني. قالت أنت في خطر. حزنتُ. رأت ديمة دموعاً على خدي. لاطفتني سأحكي لك حكاية. حكت لي عن آخر ما سمعته عن حارة المؤيد. هل تتذكر قصة ماريا الإفرنسية التي هربت من الجن وأخذت ابنها معها. وقبل أن تسمع جوابي. أتمت الحكاية. قالوا إنها جاسوسة. افتعلت حكاية الخوف وذهبت إلى باريس. لم أصدق. الأمير الجزائري لم يقل إنها جاسوسة. سألتها أين هي الآن. ضحكت ديمة. بانت أسنانها التي أحبها. امرأة من توت شامي. سألتني أتدري كم عمرها الآن. وأجابت هي قبل أن تسمع تخميناتي. عمر ماريا الآن ثمانون سنة. ماتت منذ عشرين سنة. صح النوم.

أنهى حامد ترتيب الغرفة. وكانت ديمة تذهب كطيف تشكل كغيمة في سماء زرقاء. فكّرت أنا لم أكن أعرف ماريا. ماريا جزء من حكايا حارة المؤيد. تراءت لي الحارة تراءت أسرار كثيرة فيها. شعرت بالحزن، وسمعت صوت عود حزين تحطم في قلب الحارة.

حكاية البيت الأسود!

حرّك أبو نجوى مؤشر الراديو الكبير يبحث عن أخبار الحكم الجديد الذي أطاح بالانفصال. دخلت أم نجوى تحمل ركوة قهوة وفنجانين على صينية نحاسية، وعندما ترامى إلى أذنيه صوت شارة الأخبار التي تبثها إذاعة لندن، جلس على الكنبة المجاورة للراديو يتابعها باهتمام.

تحدثت الإذاعة عن خبر سربته لها أوساط دبلوماسية من دمشق، «فقد أفادت تلك المصادر عن الاتجاه لتولية الفريق أمين الحافظ رئيسا للدولة السورية»...

أنتقل المذيع إلى خبر آخر يتعلق بتحويل مجرى نهر النيل عند السد العالي بحضور الرئيس المصري جمال عبد الناصر والزعيم الشيوعي نيكيتا خروتشوف...

أخفض أبو نجوى صوت المذياع، وقال:

- تغيرت البلاد وتغيّر العباد. صحيح نحن في حلب. ولكن الشام غير في هذه الأحداث.

ردت أم نجوى:

- صحيح ما تقوله يا أبو نجوى. حتى حارة المؤيد تغيرت. لقد اتصلت أم أيمن العطري من الشام وقالت لي إن الحارة تغص بالأطفال من الذين سكنوا وأن القطط السوداء عادت تظهر!

نهض أبو نجوى يسأل:

- خير إن شاء الله. حرام مايحصل في حارتنا؟!

التفتت إليه أم نجوى، وسألته باستغراب:

- تقول حارتنا؟ أتظن أنك ما زلت تعيش في حارة المؤيد؟! هل نسيت كيف رحلنا بين يوم وليلة؟

رد أبو نجوى بتلقائية واضحة:

- طبعا هي حارتنا. ألا تلاحظين أن الاتصال بيننا وبين الحارة في الشام لم ينقطع. وقبل أيام قام أبومالك بتأجير بيت شقيقتي في تلك الحارة بناء على طلبي...

- لماذا لم تبقهِ مغلقاً. هي اشترته لتبيعه فيما بعد...

- ربما نعود إلى بيتنا قريباً. من يدري. عندها أطلب من أختي أن تنتقل إلى البيت، فلماذا تبيعه؟

- وهل تفكر بالعودة إلي حارة المؤيد فعلا؟!

فرد أبو نجوى:

- حارة المؤيد جزء من حياتنا.

وأضاف، وكأنه لم ينس الشطر الثاني من كلامها:

- وبالنسبة إلى نجوى، أنت تعرفين رأيي. ماجرى قسمة ونصيب، و قدر نجوى لابد أن تعيشه، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

* * *

حارة المؤيد نائمة!

عندما تنام حارات الشام يسود صمتٌ جميلٌ فيها، يتخلله صوت تدفق المياه في البحرات الموصولة على القنوات والطوالع، ومع الزمن تحول هذا الصوت إلى إيقاع سحري مطمْئِن، فتهجع الطيور والعصافير والفراشات في أعشاشها آمنة ومطمئنة وهادئة، وجبل قاسيون هو الحرز الذي يحرس الشام ويحرس حارة المؤيد...

وتلك حكاية قديمة حكاها أبو محمود الإيتوني لأبي حامد عبد الرحمن ذات مساء عندما استأجر أبو حامد بيت عبد ربه. قال أبو محمود القصة تعود لفترة بعد الاستقلال بعدة أشهر، وكان شهرُ رمضان في ذلك الوقت حاراً، عانى الصائمون فيه كثيراً من العطش والحرّ...

دعا عادل المؤيد كبار الحارة وصغارها إلى مائدة الإفطار في قصره، وفور أذان المغرب شرع الصائمون بتناول الماء قبل تناول التمر، وبعد أن رووا عطشهم صلّوا، فأمَّهم في الصالون الكبير الشيخ عبده الخرسا، وعندما جلسوا لتناول الإفطار شرعوا بشرب الماء من جديد، فالعطش جعلهم ينسون الأطعمة الكثيرة التي اُعدت، وهناك من بالغ فقال إنهم شربوا ماءً بسعة البحرة المربعة التي تتوسط جامع الجسر الأبيض!

ربما وقع ذلك في اليوم الرابع أو الخامس من رمضان. وقع مشهدٌ مهولٌ لا تنساه الحارة أبداً، فقد تجمع في بيت المؤيد أكثر من ستين مدعواً من سكان الحارة، وفي كل الفراغات الممكنة فتحت موائد فرعية للفقراء والأطفال. أكلوا وشربوا وحمدوا الله. حكى الشيخ عبده عن الشام وحاراتها، «فلكل حارة في حاراتنا القديمة باب إلا حارة المؤيد»، وسأل كأنه يحتج:

- لماذا بُنيت الحاراتُ الجديدة بلا أبواب؟!

بدا سؤاله وكأنه لغز، جعل الآخرين يفكرون بحله، وجاءت أجوبة من الحضور:

الأمان بالله يا شيخ عبده... الشام الله حاميها... الحراسُ موجودون في كل مكان من الجسر الأبيض... وعندما اقترب موعد الذهاب إلى الجامع لصلاة العشاء والتراويح، حسم عادل المؤيد لُعبةَ الأسئلة والأجوبة قائلاً:

- قاسيون هو من يحمي حارة المؤيد. أنسيتم أنه جبل الصالحين؟!

وهز الشيخ عبده رأسه موافقاً، وابتسم بسعادة، وابتسم آخرون معه يؤيدون جواباً من هذا النوع!

* * *

حارة بلا حراس، وجبل قاسيون يتراءى بأضوائه على مسافة ذراع منها. أضواؤه شاحبة خافتة تنبعث من البيوت التي تسلقته صعوداً عند الحرش ومقبرة الأيوبية وشرقاً باتجاه ساحة شمدين وحارة الأكراد حيث يتوقف امتداد البيوت عند مستشفى ابن النفيس.

حارة المؤيد نائمة. وفي تلك الليلة نزل خالد المؤيد من قاسيون (جبل الصالحين) إلى حارته القديمة، لم يكن يغيب عنها كثيراً. يظنُّ كثيرون أنه مجنون، ويظن هو أنه حارسُها وحارسُ خربة قصره القديم الذي هدّمه، وترك الثراء والطب إلى العزلة، التي زاد منها انقطاع أخبار زوجته الفرنسية وابنه...

عندما مدخل الحارة ترامت إلى أذن الحكيم خالد نغمات حزينة من عزف عميق يأتي من أحد بيوتها. أنصت الحكيم جيداً، يريد أن يعرف مصدر الصوت، فإذا العزف يترامى من نوافذ البيت الأسود التي فُتحت على غير العادة...

يقع البيت الأسود في مدخل الحارة، هو بيت مهجور وليس مسكوناً، وقيل إن شقيقة أبو نجوى أغريبوز اشترته عندما قرر أصحابه السفر إلى السعودية، فاقترح أبو نجوى عليها شراءه لتكون قريبة منه فيما لو عادت من حلب ذات يوم. وصار البيت قسمين، أحدهما مخزن لتنك الزيت، وله بابان:

الباب الأساسي على الشارع العام، والباب الداخلي مغلق داخل الحارة.

قرفص الدكتور خالد عند نافذة البيت، وأخذ ينصت إلى العزف ويبكي، فمن يعزف هذا اللحن الحزين؟

تسللت خيوط النور الشاحبة من الداخل كذبالة قنديل نضب الزيت منه، فراح نوره يعلو وينخفض وكأنه يلفظ أنفاسه. اتضحت له طبيعة النغمات، نغمات لعودٍ يحاول صاحُبه مواساة نفسه في هدأة الليل، فجلس بدوره يستعيد صورة ابنه الذي غادر الشام رضيعاً، ولم يعد يراه. وسأل نفسه بحزن: «ترى هل كبر، وهل تحكي له أمه عني؟!». ارتفع آذان الفجر من جامع الجسر الأبيض وغادر الحكيم حارة المؤيد، وتوقف عازف العود عن العزف!

* * *

لم يكن سكان حارة المؤيد يعتبرون هذا البيت جزءاً من الحارة، فالحركة الأساسية فيه تجري من جهة الشارع العام بجوار مكتبة الحمصي، يبدو كمستودع قليل الاستخدام، اتسخ بابُه الصغير المطل على الحارة، فسماه الأطفال البيت الأسود، وشاع الاسم، لكن قصصه كانت طي الكتمان، ولم يكن أحد يتصور أن تتوالد هذه القصص في قادم الأيام!

في اليوم التالي سمع الأطفال العزف نفسه. حصل ذلك قبل غياب الشمس بقليل، كان الجو كئيبا يميل إلى العتمة، وكانت برودة قليلة قد

كسرت وهج النهار الصيفي، تجرأ الأطفال واقتربوا من بابه. الباب نفسه مغلق منذ سنوات. تكدست الأتربة والأوساخ على أطرافه، ونبت عشب طفيلي عند حافته، فخافوا!

قال واحد منهم:

- إنهم الجن!

تلوّنت الوجوه بلون الخوف. تراكض الأطفال إلى قلب الحارة. وكعادة الأخبار الشبيهة تبدأ بواحد أو اثنين، ثم تنتشر، فعبارة (الجن في البيت الأسود) قادرة على إثارة الهلع في كل البيوت، والحكاية لم تعد عزفاً على العود، صارت حكاية جنية تسكن فيه تغني طيلة الليل وتنام في النهار وهي نفسها الجنية التي جننت الدكتور خالد المؤيد قبل سنوات وجعلته يهجر قصره وحارته!

وصلت الحكاية إلى أبو أنس الحمصي، فضحك. حكى لهم عن تلك الجنية التي تعزف في البيت باستهزاء، وقال:

- أنا أعرفها. جنيّة لها شاربان وعينان سوداوان مثل عيوننا!

وعند الظهر، عرف محمود الإيتوني سر هذا العزف وهذا العازف من صاحب المكتبة:

- إنه مستأجر البيت عاد إلى الشام بعد الانفصال. كانت تلاحقه مباحث السراج، فرتب البيت ونظفه وسكن فيه، رجل يحب العزف على العود، وأحيانا يدندن بعض أغنيات أسمهان وأم كلثوم!

أذاع محمود الإيتوني الخبر في الحارة، وتأكدت وقائعه عندما قام الرجل العازف، فأتى بعمال نظفوا الباب المطل على الحارة، وفتحه، لكنه لم يستخدمه إلا بعد فترة، فأثار فتحه حكايات جديدة!

لم يرق الخبر للشيخ عبده الخرسا، قال معلقاً:

- دخول العود إلى الحارة يشبه دخول التلفزيون الذي جاء به عبد الناصر!

وقال أيضا:

- صحيح خسرنا أبو مالك لكن الفلاحين سكنوا في بيته وهم جماعة مستورون. أما عازف العود فيذكرني بمَثلٍ نعرفه بالشام يقول أول الرقص حنجلة، فمن يدري ما الذي سيحصل مع عزف العود فيما بعد؟!

لم يأخذ رأي الشيخ عبده صدى كبيراً، لأن عازف العود يعزف فقط خلال الليل، وجاء خبرٌ آخر أعاد حديث الشيخ عبده إلى الصدارة عندما فاحت من البيت رائحة يانسون قوية فسّرها سكان الحارة على أنها تفوح نتيجة شرب العرق داخل البيت خلال الليل، وقال بعضهم:

- الله أعلم بماذا يجري داخل البيت!

أخذت الحارة تراقب البيت الأسود، تدقق بمن يأتي إليه ومن يخرج منه، وانهالت الأسئلة على صاحب المكتبة، وكان يقول:

- كل شيء عادي. على العكس جارنا أبو وجدي ليس له أي سوسة إلا العزف على العود وقراءة بعض الصحف؟

سألوه:

- وتلك الروائح التي تفوح من بيته؟!

ضحك أبو أنس وسألهم ساخرا:

- تقصدون اليانسون؟!

وعندما هزّوا رؤوسهم قال:

- هناك جزء من البيت يستخدم كمخزن للزيت، وقد خزنت فيه كمية من أكياس اليانسون!

وقال أبو أنس:

- حرام. الرجل لا علاقة له بمخزن الزيت. مخزن الزيت مؤجر منذ كان أبو نجوى في الحارة!

غرفة العناية المشددة:
اختفاء الأمير الجزائري!

لم يأت الأمير الجزائري. ناديتُه. بُح صوتي. يا أمير أين أنت. الأمير لا يأتي. الأمير لا يرد. الحرارة جاءتْ. من يصدق أن الإنسان يغلي ولا يموت. لم تسمعني فدوى. يا حسرتي على فدوى. أمضت حياتها تنتظر. وكأنها حفظت الأغنية عن أمها، فهي تردد بين حين وآخر بصوت حنون وين الحبيب اللي وعدني وبقالو ساعة ولسّة ماجاش. تزوجت من رجل لم تكن تعرفه. يسافر ويعود. كل حياتها انتظار بانتظار.

لم يرد حامد. يا حسرتي على حامد. أمضى حياته يحلم. هل الحياة جميلة عندما تشغل صاحبها الأحلام. أولاده كبروا وأحلامه الآن تتعلق بأولاده. ومزنة. يا عيني على مزنة. تراها شاردة دائماً. وهذه المرة شاردة هناك عند النافذة تسأل عن القادم.

والأمير لا يردْ...

قلتُ أذهبُ إلى جامع الجسر الأبيض. إذا لم يأتِ هو أذهب أنا إليه. تركتُ المستشفى. تركتُ جسدي فيها على السرير. تركته مثل حطبة متوهجة. رحت أركض إلى الجسر الأبيض. في الطريق وجدت كل شيء قد تغير هناك. مسحوا صور جمال عبد الناصر عن الجدران. لم يعد جمال عبد الناصر يلوح بيديه للناس. مسحوا الكلمات الحلوة عن الوحدة وعن مصر وسورية والشعب الواحد. سألت المارة هل شاهدتم جمال عبد الناصر. هل

شاهدتم عبد الحكيم عامر. هل شاهدتم شكري القوتلي. لم يردوا عليّ. مثل الأمير الجزائري لم يردوا عليّ. رأيت صوراً على الجدران وعلى كل صورة عبارة انتخبوا. الصور ليست جديدة. غيرت الشمس ألوانها. رأيت صور خالد العظم وعصام العطار وصبري العسلي وسهيل خوري...

رأيت صوراً لأكرم الحوراني، ولم أجد صوراً لخالد بكداش. رأيت صوراً لسعيد الغزي. رأيت وجوهاً ضاحكة. ووجوهاً مكشرة. سألت نفسي من هؤلاء. لماذا يعلقون صورهم على الجدران. شغلتني الصور عن الأمير الجزائري وأنا أمشي وأخي حامد يسمع صوتي في المستشفى...

وصلت إلى الجسر الأبيض. تراءت مئذنة الجامع المربعة. ارتفع صوتي: أريد الأمير الجزائري... أريد الأمير الجزائري. والأمير لا يردْ.

دخلت الجامع. كان بارداً رطباً. رأيت البحرة المربعة. لم تكن المياه تتدفق فيها. كانت راكدة. ناديت. لم يأتني رد. قلت لابد إنه فوق. صعدت إلى فوق. فوق مثل أيام زمان واسع ومعتم ولا يوجد فيه إلا ضوء واحد خافت. أين أنت يا أمير. وشعرتُ بخوف ورهبة. أيكون الأمير صعد إلى المئذنة. كيف يصعد الأمير إلى المئذنة والمئذنة تلف وتدور وترتفع درجاتها صعوداً حتى تظن أنك في رأس جبل قاسيون. كيف يصعد وهو لا يستطيع المشي إلا بعكّاز.

وقلتُ باستسلام: الأمير الجزائري اختفى.

ارتفعت حرارتي. الأمير لا يأتي. فدوى لاترد. مزنة شاردة عند النافذة. تسمع مزنة أصواتاً من زمن قادم يرسم فيه الحبيب قلوباً على الزجاج والجدران وكفي يديه.

* * *

جاء حامد. قال لي حامد أنت ساخن. أنت تغلي مثل إبريق شاي. ضحكتُ. تذكرتُ إبريق الشاي والأمير الجزائري. كان في كل مجلس من مجالس الصلاة على النبي يوزع الشاي بإبريق كبير مثل الجرة. كنت أقول لنفسي إن الإبريق يتسع لجسد أخي الصغير أسامة. كان يصب الشاي بكاسات ويوزعها على الأطفال. الإبريق يكفي عشرات الأطفال. كاسات الشاي أكرك عجم مع سكاكر مطعمة طيبة.

دخلت إلى المئذنة. ارتعش جسدي. لا يمكن أن يحصل هذا. صعدت إليها مرات كثيرة ولم أكن أرتعش. فما الذي حصل هذه المرة. لماذا أرتعش. ماذا يحصل في المئذنة؟

سمعت لهاث الأمير الجزائري ولم أره. لهاثه أعرفه. عندما يتحدث يلهث، وعندما يلهث يحس به كل من يسمعه. ارتبكت حركتي. أين يكون إذاً. هل اختبأ في طيات الحصر والسجاد الكثيرة في الجامع. قلت سأختبئ وأنتظر. اختبأت. انتظرت. وظل لهاثه يملأ المكان...

نزلتُ من فوق. وأنا أنزل شعرتُ أن يداً أطفأت الضوء الشاحب. قلت من أطفأ الضوء. هل هو الأمير. ناديت أين أنت يا أمير. لا تختبئ. قل لي. أريد أن أحكي معك. لم يردْ. تابعت نزولي. وأنا أتابع نزولي شعرت أن يداً أشعلت الضوء الشاحب. سألت من أشعل الضوء. من يعبث بضوء المسجد. هل هو الأمير. ناديت أين أنت يا أمير. لا تختبئ.

سمعت صوتاً. مجموعة أصوات كانت تتداخل، لا أعرف شيئاً من معانيها. قالوا الأمير الجزائري، وقالوا فرج الله الحلو. شيخ بطربوش أحمر وشيوعي براية حمراء. قال صوت منها إنه السرّاج. قال آخر إنها الشعبة

الثانية. قال كثيرون مخابرات عبد الناصر. عبد الناصر يعرف ولا يعرف. قتلوه. قال آخر اختفى في المئذنة. قال واحد بصوت متهدج ذوبوه بالأسيد. قال الرابع ربما يكون الأمير حياً ولابد سيظهر. قد يكون اختبأ في مكان ما. ما. ما.ما ااااا...

أخفيت روحي خلف الجدار.. ورحت أسمع..

ظل جسدي هناك في غرفة العناية المشددة في المستشفى. كانت حرارة روحي مثل حرارة جسدي ولا أحد يطفئها. سمعتُ أخي حامد يقول يجب ألا نوقف الكمّادات حتى لو تحسنت حالة فادي. قالت روحي كلُّ كمادات العالم لا تطفئ النيران المشتعلة.

عادت روحي إلى جسدي. عادت روحي مستسلمة حزينة مثل طفل صغير ضاع في سوق يكتظ بالناس. تسللت الروح إلى جسدي. سمعتُ صوتي يئن. صوتي مثل صوت الأمير الجزائري لكنه مكسور محطم تشتعل فيه النيران ولا تنطفئ...

أنهت مزنة شرودها. قالت الأمير الجزائري كان مسلماً. كان يقول الوطن والأرض يحرسهما الله ونحن. مزنة تعرف الأمير الجزائري. ديمة حكت لها عنه. جسد مزنة كان ممشوقاً تشعر أنك بحاجة لتلتهمه. قالت لي مرة كل الناس يحبون اللحم. من لا يحب اللحم. قلت أنا أحب اللحم نيئاً. قالت بتقزز كيف. قلتُ أحبُّ أن ألتهم اللحم التهاماً هكذا...

التهمتها. كنت ألتهمها وكانت تضحك. كانت مزنة طيبة مثل اللحم.

* * *

ركضتْ نحوي...

ضربتْ كفاً بكف. حبيبي نسيتُك. ها أنا جئت. سأملأ الكمادات بالماء. سأجعلك تغرق في مياه باردة. وسالتْ مياه على رأسي. تذكرت المياه التي سالت عندما التهمتها. أعطتني الكّمادات راحة كبيرة. أشعرتني أن ثمة فرصة لأعود فأبحث عن الأمير الجزائري. تدخلت مزنة تدعوني أن أهدأ. أن أنام. قالت الأطباء طمأنونا. أنت تخيفنا. نم حبيبي فادي. لا تفكر بشيء.

جاء صوت ناظم الإيتوني. سمعتُ كلمة جدو. أحلى كلمة يقولها ناظم بيك هي جدّو. لأنه كان يقولها لديمة. يخاطب ديمة فيقول اسمعي جدو هل تذكرين الأمير الجزائري الذي طلب منك أن ترتدي غطاءً لرأسك قبل أن تدخلي جامع الجسر. قالت ديمة نعم. الأمير يحب فادي، وفادي يحب الأمير.

وقبل أن يتم ناظم الإيتوني كلامه. سمعت صوت أبو صلاح وهو يكتب على دفتره السميك ويقرأ ما يكتبه بصوت مسموع:

اكتشفوا أن مخابرات السراج قتلت فرج الله الحلو وأخفت جسده. وأنهم جاؤوا إلى جامع الجسر وأخذوا الأمير الجزائري مكبل اليدين. شجّوا رأسه بعكازته ولم يعد أبداً...

قال ناظم الا يتوني لأميرتي ديمة:

- الأمير الجزائري يا جدو مات. مات. مااااااا. ت. تْ.

حكاية

فتيات البيت الأسود!

هدأت الحركة في البيت الأسود، فما أن انطفأت قصة رائحة اليانسون والعرق، وأثارت الضحك في حارة المؤيد، حتى تحول البيت إلى ركن هادئ من أركان الحارة تتوهج أنوار غرفة واحدة فيه عند المساء، وهي الغرفة التي تترامى من نافذتها أصوات العزف على العود.

ظل هذا العزف يثير الانتباه لفترة من الوقت، طمأنت رقته وعذوبته والأخبار المطمئنة التي بثها أبو أنس عن ساكنه سكان الحارة، فاعتاد الناس عليها، ولم تثر الحركة الاعتيادية في البيت كثيراً من التساؤلات!

الأطفال هم من غيروا انطباعات سكان الحارة عن البيت الأسود، فقد شاهد بعضُهم من الذين لم يذهبوا إلى المدرسة عدة نساء يدخلن إلى البيت ويخرجن منه بعد ساعة أو ساعتين وقال هؤلاء الأطفال إن واحدة منهن دخلت مكشوفة الشعر، وقد قصته مثل الشباب.

نقل عبد الغني الخرسا الخبر إلى أبيه على نحو آخر، فقال له همساً:

ـ يبدو أن البيت محل عمومي!

انتفض الشيخ عبده. زلزل هذا الكلام كيانَه كلّه، وجاء ردُ فعلِه غريباً غيرَ متوقع: استغفر الله يا ولد. ماذا تقول؟!

نهض من مكانه مرتجفاً. راح يتمتم:

- «هذا الذي جنيناه من عبد الناصر. راح عبد الناصر وهذه بقاياه!

خاف عبد الغني، فهو يعرف جيداً معنى أن يغضب أبيه. سيرتجف جسده وكأنه أصيب بالبردية وتتوارد جملٌ كثيرة على شفتيه تحمل ملامح غضبٍ كبيرْ، وربما يرتفع ضغطه، أو السكر في الدم!!

راقب حركة أبيه الذي شرع بارتداء جبّته ولفته بسرعة وخرج إلى الحارة في أول رد فعل. وقف عند باب بيته وهو يجهل إلى أين يتجه، وإذا به يطرق باب أبو صلاح المواجه لباب بيته. طرق الباب بيدين متوترتين أربكت أم صلاح التي نادت من الداخل:

- مين؟! وأضافت:

- طول بالك يا أخي... خير إن شاء الله؟!

بردت حماسة الشيخ عبده، وجاء رده خجولاً وكأنه يعتذر:

- أختي أم صلاح أنا الشيخ عبده... ما في شي... ما في شي...

- أهلين وسهلين يا شيخنا لا تواخذني ما توقعت أنك الشيخ عبده...

- أبو صلاح موجود؟!

- قبل قليل خرج إلى الدكان.

جدَّ السير نحو دكان أبو صلاح، وهناك حكى ما سمع من ابنه بخوف شديد، وكأنه يستنجد بأبو صلاح:

- القصة لا يمكن السكوت عليها يا أبو صلاح. أنت تعلم ماذا يعني هذا في حارة المؤيد. فضيحة بجلاجل في الشام. ينبغي ألا نسكت!

- نعم. لا ينبغي السكوت عليها!

- وماذا سنفعل؟ هل سنكسر الباب وندخل؟!

- لا. هذه ليست شغلتنا. سأسأل ناظم بيك ونقترح أن نخبّر الشرطة، فهذا مخالف لشرع الله!

وفكر قليلاً، ثم أضاف:

- قبل ذلك يا شيخ عبده. علينا أن نستفسر عن الحقيقة من أبو أنس، فهو يعرف ما يجري. ألا تذكر قصة اليانسون والعرق؟!

- خير البر عاجله. تعال معي.

خرج أبو صلاح من دكانه، وتركها مفتوحة، واتجها معاً إلى مكتبة الحمصي، وظلا يتابعان الحديث عندما وصلا إلى المكتبة. رحب بهما أبو أنس، فطرحا عليه سؤالاً يتعلق بزائرات يأتين إلى البيت، فأجابهما بحذر:

- ما إن وقع الانفصال حتى جاء هذا الرجل إلى البيت وكما عرفت كان مطلوبا. أنا شاهدتُه يدخل ويخرج من هنا ومعه عود. أما الباب الآخر، فلا علم لي به. الله أعلم. هذا شيء لا أضعه في ذمتي. لكن المخزن، وهو مفصول عن البيت موجود كما هو، ولا حركة فيه...

عاد أبو صلاح والشيخ عبده، وقد ازدادا حيرة، وذهبا إلى ناظم الإيتوني لمشاورته في إبلاغ الشرطة، فقلب شفته، وهو يقول:

- لازم يرسلون (تحرّي) لمعرفة ما يحصل.

* * *

رابطت الشرطة في الحارة إلى أن جاءت امرأتان وقرعتا الباب ثم انسلتا إلى الداخل. طوقت الشرطة الباب المطل على حارة المؤيد، والباب المطل على الجسر الأبيض، ثم طرق رئيس الدورية الباب من جهة الحارة، وطلب الإذن بدخول البيت لتفتيشه...

خرج عازف العود. رحب بهم. دفعوه بقوة إلى الداخل، دخل رجال الشرطة إلى البيت وفتشوه، وأخذوا هويات النساء!

ظل التفتيش في البيت نحو ربع ساعة، وخلالها تجمع سكان حارة المؤيد، الأطفال والشباب والكهول. وشاهدوا رجال الشرطة يخرجون، ثم تأتي دورية مباحث وتدخل البيت ثم تخرج. الحارة ارتبكت. الشرطة ارتبكت، أما المباحث فلم ترتبك!

ذهبت الحارة بأفكارها بعيداً، فما الذي يجري في البيت الأسود؟ كثرت الأقاويل عن الشرطة والمباحث، فمخابرات السراج لم تعد موجودة، فماذا يعني أن تأتي المباحث، بعد أن تخرج الشرطة؟!

حسم محمود الإيتوني المسألة. قال:

- سأذهب إلى مالك عبد ربه لأعرف ما حصل.

التقى مالك عبد ربه في العفيف وطلب منه أن يستفسر عن التفاصيل من أبيه الذي قام بتأجير البيت للرجل، فرد مالك:

- المسألة بسيطة. ليس هناك ما يقلق الحارة.

- كيف؟ سأله محمود.

أخبره بأن الشيوعيين عادوا إلى النشاط بعد الانفصال، فقد منعوا من النشاط خلال الوحدة، وخاصة بعد حل الأحزاب. ودفعوا ثمنا كبيراً لأنهم لوحقوا وطاردتهم المخابرات.

ثم أعطاه صحيفة فيها تفاصيل أخرى سارع محمود لقراءتها، وفيها نص قرار الاتهام الذي أصدره قاضي التحقيق العسكري لدى المجلس العدلي أحمد زهير عدي في قضية مقتل فرج الله الحلو، وهو من زعماء الشيوعيين في سورية ولبنان.

قرأ محمود قرار الاتهام بدهشة وخوف، ففي هذا القرار تفاصيل كاملة عن وقائع اعتقال فرج الله الحلو وتعذيبه من قبل عبد الوهاب الخطيب ووفاته وإخفاء جثته ثم إذابتها بالأسيد...

سأله محمود:

- هل كانوا يقتلون الناس على هذا النحو؟

- المباحث والسراج أساؤوا لسمعة عبد الناصر وشعبيته...

استرد محمود شيئاً من شرود بسيط وسأله:

- وماعلاقة هذه التفاصيل بالبيت؟!

- المباحث اكتشفت أنه بيت للحزب الشيوعي، يرابط فيه عازف العود ويجتمعون فيه.

- هل سيسجنون الرجل؟!

- لا... هذا لا يتم الآن. هم يريدون التأكد من أن البيت ليس لأتباع عبد الناصر.

- يعني قلبت القلابة؟!

* * *

عاد محمود إلى الحارة بعد الظهر، وكان يحمل بيده صحيفة مطوية ظهر اسم (صوت العرب) من أحد طرفيها، وجرى سؤال واحد على شفاه كل من كان شاهده من الشباب:

- شو القصة يا محمود؟! ماذا قال مالك؟

ضحك محمود. محمود له ضحكة جميلة ذكرت الجميع بشقيقته فايزة. كانت النسوة يقلن:

خلق الله ضحكة فايزة وكسر القالب.

ضحك محمود. أحس الجميع أن في الجواب كلاماً مطمئناً، وإلاً ما ضحك محمود. قال لهم:

- القصة ما فيها. أن المباحث اكتشفت أن البيت الأسود لم يعد أسود. صار أحمر!

تضايق عبد الغني من ضحكته:

- لماذا الضحك. شو فزورة؟ احكَ وخلصنا!

هز محمود رأسه، وأخبرهم بما قاله له مالك:

- هذا البيت هو مكتب لجماعة خالد بكداش زعيم الشيوعية في سورية ولبنان!

تغّيرت وجوه الجميع. راحت تبحث عن تفصيل جديد يحمل المعنى، لكن التفصيل جاء على لسان محمود الإيتوني:

- الشيوعيون استأجروا مكتب في حارة المؤيد. وبين فترة وأخرى سيعود خالد بكداش من روسيا إلى الشام.

ارتفع صوت عبد الغني:

- يعني الكفّار؟ خلصنا من عبد الناصر فجاء خالد بكداش!

ثم طرح سؤالاً مفاجئاً، وكأنه تذكر شيئاً:

ــ وماذا تفعل النساء مع العوّاد الذي يصرعنا خلال الليل بالعزف؟!

همس محمود:

ــ رفيقات!

وضحك.

غرفة العناية المشددة:
المدينة لحظة منع التجول!

خرج فادي إلى الحارة صباحاً، فلم يجد أحداً فيها. حركة الناس في حارة المؤيد معدومة، تشبه الحركة في صباحات أيام الجمعة التي مرت بعد أن سكنوا فيها. عاد محبطاً إلى البيت، ليسأل أمه:

- اليوم جمعة شي؟!

فأجابته، وهي تنشغل عن إعداد الإفطار:

- لا. اليوم ثلاثاء. لن يذهب أحد إلى عمله. الدنيا قايمة قاعدة. لا تخرج. الشرطة يمنعون الناس من الحركة.

طرحت عيونه أسئلة كثيرة جعلتها تحاول إشغاله بالطعام. سألته:

- هل أنت جائع؟

لم يرد. سألها:

- هل سيأتي الشرطة إلى الحارة؟!

مضت تشرح له:

- لا تخف. هؤلاء يحبون النظام ولا يؤذون الأطفال. من الأفضل أن تظل في البيت. في البيت الأمان أكثر... فقاطعها:

- أريد أن أرى ديمة.

حسمت الأم الموضوع:

- لا. بيت ديمة في نوري باشا. يعني قريب من بيت أمين الحافظ رئيس الدولة. والجيش يهاجم بيته... ابق الآن... عندما تهدأ الأمور سنخرج معا إلى هناك، وتشاهد ديمة!

لم تقنعه نصائح الأم المشغولة عنه. وقبل أن تنصرف لتتابع عملها قالت:

- خليك هون.

تركته، فقرر الخروج...!

دائماً تحذره أمه من الشرطة، والشرطة ضربت الأمير الجزائري بالعكازة، فصار يكره الشرطة، صار يكره حتى الملابس التي يرتديها عمه الشرطي!

وقف عند بحرة البيت شارداً. شاهد فراشة صغيرة. راحت الفراشة تطوف فوق سطح الماء تريد أن تشرب. أمسكها. جمع شيئاً من ماء البحرة ليسقيها، فلم تشرب. فتح يده، فطارت. لحق بها، وجدها تعلو نحو المشرقة ثم تضيع...

تسلل فادي من البيت. عادت نظراته تستكشف الحارة الهادئة الصامتة الفارغة من الناس. اقترب من بيت الإيتوني. أنصت إلى الحركة خلف الباب. لم يسمع شيئاً. فكّر بغيظ:

«أعرف. هم الشرطة. لا يريدون أن تأتي ديمة!»

واتخذ قراراً غريباً:

- سأضربهم بالحجر!

قفز إلى خربة قصر المؤيد. جمع أحجاراً صغيرة، واندفع مسرعاً خارج الحارة!

كان الجسر الأبيض ساحة خرساء. لا ناس فيها ولا سيارات. لا كبار ولا صغار. لا صوت ولا حركة سوى قعقعة سلاح من جهة نوري باشا. ثمة مصفحة تقف قرب المقهى المغلق، وعلى متنها جندي يرتدي خوذة عسكرية، ويتأهب خلف رشاشه، وكأنه جاهز للقتال.

قطع فادي الساحة نحو المصفحة. لم يكن خائفاً. قال في نفسه: «الشرطة لا يريدون أن تأتي ديمة إلى بيت جدها. أكرههم!».

اقترب من المصفحة. ناداه العسكري:

- عد إلى بيتك يا ولد! عَلا صوت فادي:

- لن أعود.

وسأله بسرعة:

- هل أنت شرطي؟!

ضحك العسكري. قال له:

- الشرطة في الكركون، ليست هنا...

وأضاف يسخر من فادي:

- أنا جندي سيدي. ماذا تأمر أيضاً؟

وعاد الجندي إلى صرامته:

- هيا عد إلى البيت!

رد فادي بصوت عالٍ:

- لا. أنت شرطي.

وقذفه بالحجر، فلم يصبه.

خرج من خلف المصفحة جندي آخر. وصاح:

- ماذا يجري هنا؟!

رد الجندي المتمترس خلف الرشاش:

- تفضل. الأستاذ لا يهمه منع التجول. يضربني بالحجر. وربما يكون من حراس الفريق أمين الحافظ!

وجه العسكري سؤالاً إلى فادي:

- ما اسمك ياولد؟!

- فادي.

- ما اسم أبوك؟

- أبو حامد...

فقهقه العسكريان، وظل فادي واقفاً!

* * *

- الحق على الأمير الجزائري.

هذا ما سيقوله أبو حامد فيما بعد. عندما ظهر الأمير الجزائري بعد غيابه لعدة أشهر، وكشف الناس أنه كان معتقلاً بتهمة التحريض ضد عبد الناصر والوحدة، قال إن الشرطة أخذوه وضربوه...

نعم الأمير الجزائري هو الذي جعل فادي يكره الشرطة. أخبره أن الشرطة هي التي «أخذتني إلى السجن وضربتني بالعكاز على رأسي». لم يقل له إنهم المباحث، ففادي الذي سمع بالقصة من الأمير الجزائري، لم يكن يعرف معنى كلمة «مباحث» ولا كلمة «سرّاج». كان يسأل الأمير ماذا تعني

كلمة سرّاج، وماذا تعني كلمة مباحث؟! فيرد الأمير: تعني شرطة. بوليس. فيعقب فادي:

أنا أكره الشرطة. أنا أكره البوليس. أنا أكره سرّاج. أنا أحب ديمة!

بعد سنوات انتبهت المعلمة إلى عقدة فادي من الشرطة، فشرحت له أنهم يلاحقون اللصوص ويحموننا ونحن نيام، فقال فادي:

- يعني ليسوا مباحث وسرّاج!

فضحكت المعلمة، وهمست:

- اسكت بقا يا ولد!

* * *

افتقدت أم حامد ابنها، فلم تجده.

كان الرصاص قد تراجع كثيراً مع ساعات الصباح، ومع ذلك اشتعل قلبها بالخوف. صاحت تنادي حامد وفدوى لعلهما شاهداه. تراكض الجميع يبحثون عنه. فهو غير موجود. وفي الحارة لا يبدو له أي أثر. قال حامد:

- سأذهب إلى الجسر الأبيض لأبحث عنه!

اعترضت أم حامد:

- لا. ممنوع التجول. أنا سأذهب.

صاح أبو حامد:

- أنتم مجانين. ابقوا هنا. سيأتي بعد قليل.

بكتْ أم حامد. شاركتها فدوى البكاء:

- يا حبيبي يا فادي. ماذا لو أمسكوه.

وفجأة رن جرس البيت. لم يعد الزائرون يطرقون الباب بالسقاطة، فقد لبى أبو مالك طلب ملك قبل انتقالهم من البيت، وطلب من أبو عماد الكهربجي تركيب جرس كرمال عيون ملك...

ركضوا جميعاً نحو الباب. أم حامد أولاً، ثم أبو حامد، ثم حامد وفدوى. فتحت أم حامد الباب. فإذا بالجندي يمسك يد فادي ويرمي التحية:

- صباح الخير يا جماعة.

أفلت فادي منه وركض باتجاه أمه. فقال الجندي:

- فادي هاجمنا بالحجارة لأننا شرطة!

وضحك. ثم قال:

- انتبهوا. التجول ممنوع. الوضع مقلقل في هذين اليومين!

غرفة العناية المشددة:

فادي والقطة الصغيرة السوداء!

الحرارةُ نفسها تذهب وتعود...

هذيانُه غريبٌ عجيبٌ يأخذه إلى كل الأزمنة والأماكنَ والأحداثِ. خزان كبير من التفاصيل الصغيرة والكبيرة تحطم فجأة، وتدفقت منه الحكايات التي مرّت وظن أنها ضاعت في زحمة الأيام. انفجرت ذاكرته وتناثرت محتوياتها كأطياف قوس قزح كل طيف منها يأخذه على أجنحة من نور إلى زمن يحبه ويشتهيه. عندما تنفجر ذاكرته تتراءى أشكالاً وألواناً تسحر قلبه. وفي نوبة الحمى تلك تناثرت أشياء لا تخطرُ على بال وكلها تشتعل بأحلامه الجميلة...

سمعت مزنة عناوين الهذيان:

«قطة سوداء جميلة. عيونها تضيء. حرام. اتركوها. الجن. البشر. الجسر الأبيض..».!

عناوين تصلح لحكاية تجدل وقائعها جدّة من جدّات الزمن القديم. وبالنسبة إلى مزنة هي إشارات حول مشاعر فادي تفيض من روحه فتغيظها أحيانا، وفي أحيان أخرى تجعلها امرأة مصابة بالدهشة وكأنها تقف أمام مرآة...

ابتسمت مزنة. قالت تهمس بصوتٍ يكاد يكون مسموعاً:

- المهم ألا يذكرها.

وكانت تقصد ديمة. وديمة في طيات الذاكرة صورةُ حلمِهِ الأبدي. لم ينشغل في حياتِهِ كلِّها بأحد كما انشغل بديمة. وديمة كما قال لأمه ذات يوم «أحلى واحدة في العالم». ضحكت أمّهُ. ضحكتْ أم فادي. «يقبرني فادي». وقالت بسعادة بالغة:

- فادي لم يفقس من البيضة وعشقان!

حَنَتْ ظهرَها نحو الورد المتفتح في البيت الجديد في حارة المؤيد. شمت عطراً لم تكن شمّت مثله في بيت السبع طوالع، ولا في القرية التي جاءت منها. غنّت بعدها أغنية لأسمهان تزهر في الروح كما يزهر القرنفل في أحواض البيت:

يابدع الورد يا جمال الورد

من سحر الوصف قالوا عالخد

الورد الورد يا جماله

وديمة مثل بدع الورد. كانت هناك... في حارة المؤيد. ديمة وهج ذاكرته المشتعل. صور قديمة جميلة تروح وتجيء. عبق من روح المكان الذي أحبه ولم ينسَهُ!

خرجَ فادي من بيتهم الجديدْ في الجسر الأبيض. أخبرتُه أمُّه أن عليه أن يدخل المدرسة هذا العام. قالت: صرت شاباً يا فادي. صار لازم تتعلم. اشترتْ له بنطالاً جديداً لأن أولادها «ينبغي أن يظهروا بمظهر جيّد في الحارة الجديدة»، وكذلك اشترت ثوباً وردياً لفدوى وقميصاً لحامد، وطلبت من زوجها أن تتم عملية النقل إلى الجسر الأبيض يوم الخميس لأن على الجميع أن يتعاونوا في ترتيب البيت وغرفه يوم الجمعة...

وقفَ فادي وهو يرفعُ حزامَ بنطاله القصير الجديد في منتصف حارة المؤيد، فأمه أخبرته أنه صار شاباً. كان يحمل فطيرةً من الجبن البلدي. أعدّت أمه الفطائر خلال الليل: فطائر جبن وكشك وبطاطا مع البصل، وفادي يحب فطائر الجبن...

نظر في جهات الحارة الأربع، فلم يجد أحداً:

الحارة تمتدُّ من جهة الشرق كمستطيل معتم عميق. تتسللُ الشمسُ من بين الفراغات القليلة الباقية بين الجدران، فجدران بيوت حارة المؤيد تتآخى في حارات الشام. يسند بعضها بعضا. يستندُ الحائط الطيني لغرفة البيت الأول على الحائط الطيني للبيت الذي يقابله وكأنه يريد أن يتوحد معه، فلا تبقى فسحة كافية لدخول الشمس!

ظنّ فادي أن ذلك المستطيل المعتم طريقٌ يأخذهُ إلى نهاية العالم، فقد تعوّدَ أن الخروج من الحارة يحتاج إلى رفقة حامد أخيه أو إلى رفقة أبيه، وكان يغامر فيخرج منها ويعود دون أن يخبر أحداً...

ومن جهة الغرب تتجه الحارةُ إلى فضاءٍ مفتوحٍ على خراب قديم لقصر لم يسمع فادي قصصه بعد!

الحارة هادئة تماماً، ورائحة غريبة تأتي من عمقها هي مزيج بين رائحة الطين ورائحة الأزهار المتفتحة مع النهار الذي بدأ. ذلك الصباح هو اليوم الأول الذي يستيقظ فيه فادي على صوت نافورة المياه وزقزقة العصافير ونداء نسمات الصباح العليلة في البيت الجديد الذي أحبه منذ اللحظة الأولى، والذي أنساه سريره المربوط بالسقف في حارة السبع طوالع!

أحس أن الحارة الجديدة عالم جديد يتعرف إليه، وأن الفسحة الكبيرة في أرض الدار مفتاح المملكة التي أحبها وسيعيش فيها في هذا الحي، وسأل

نفسه: «مع من سألعب هنا؟!» وفي سؤاله مضمون آخر: كيف تبدأ الحياة هنا؟!

جاءه الرد على غير ما يتوقع. سمع فادي مواءً. أصغى إلى مصدر الصوت. وجدها. يا لهذه القطة السوداء الصغيرة ذات النظرات المخيفة «ما أجملها!»... تواجها: القطة تُحَدِّقُ به بعينين مخيفتين نافذتين تتحديان، وهو يرمقها بثقة وعفوية بعيني طفل سوداوين صارمتين لكنهما بريئتين...

فجأة. تغيرتْ مشاعرُ التحدي عند الطرفين. قطع فادي شيئاً من فطيرته وقدمها لها. اقتربتْ القطة السوداء منه. لم تتغير نظرات التحدي. أكلتْ القطةُ السوداء من فطيرة الجبن الأبيض، وشرعت تتغير. لاحظ سعادتها. قدم لها قطعة جديدة. التهمتها. قفز نحو خربة قصر المؤيد، فقفزت معه. أطعمها من جديد فأكلت بسعادة، ثم أعطاها الفطيرة، وهو يردد، وكأنه حردَ منها:

- خذي. كلي الفطيرة كلّها. لم يبقَ لي شيء!

أكلت القطة السوداء الفطيرة كلها. واندفعت نحوه تلعب. ركض فادي. ركضت القطة. توقف فادي عن الركض. فتوقفت القطة عن الركض. ضحك فاشرأب عنقها. ركض من جديد. ركضت من جديد. تعثّر بحجر صغير فوقع على الأرض. وقفت حزينة ترنو إليه وهو ينهض وقد تلوثت ركبتاه بالتراب وعلامات جرح!

كان فادي جائعاً، فقرر العودة إلى البيت. لحقت به القطة السوداء. كشف البنطال القصير الذي يرتديه عن جرح صغير أصاب ركبته وغطّاه التراب. شاهدته أمه. شاهدت القطة الصغيرة برفقته. صاحت به: ما إن خرجت حتى وقعتْ. جُرحت ركبتك واتسخ البنطال الجديد. بل وجئتني

بقطة سوداء منحوسة. وصاحت أم حامد محتجة: ألا تعرف أن القطط السوداء جنس من الشياطين؟!

ماءتْ القطة!

سمعتْ أم حامد مواءها. سألت نفسها:

«أتكون فهمتْ علي؟!» وتمتمت: «بسم الله الرحمن الرحيم»... لم تكن أمه قد سمعت بحكايات الجن والقطط السوداء في حارة المؤيد. تدّخل فادي يشرح حال القطة السوداء. جوعانة. أكلت الفطيرة كلها. وتابع محتجاً. أنا لم آكل شيئاً بعدْ... أمسكته أمه بيده، وهمست:

- تعال. أنا سأطعمها...

مسحت له ركبته المصابة، وقالت:

- اصعد إلى فوق. فدوى تريدك!

صعد فادي. وترك أمه والقطة الصغيرة السوداء. راقبته القطة وهو يصعد. كأنها عرفت معنى غضب أمه. بقيت في مكانها. تشكلت ساحة تحد جديدة. الأم من طرف والقطة السوداء من طرف آخر. صاحت الأم: بست... اطلعي برّة!

لم تخرج القطة. خاضت التحدي. شخرت في وجه أم حامد وتأهبت للهجوم. ارتعش جسد أم فادي. حاكت نفسها:

«هذه ليست قطة صغيرة. هذه شيطان!». وبهدوء شديد دخلت إلى المطبخ، وأحضرت لها قطعة من فطيرة جبن مقسومة، فرمتها أمامها، وانتظرت!

أخذت القطة السوداء حصتها من فطيرة الجبن، وخرجت من البيت تنط في حارة لم يكن قد خرج إلى اللعب فيها بعد أحد من الأطفال، فراحت تذهب وتعود في المستطيل المعتم، وكأنها تنتظر فادي!

نسي فادي القطة السوداء. في الحارة لا يوجد من يلعب معه. اكتشف معنى أن يسكن في بيت كبير. راح يتجول في زوايا الجناح الذي سكن فيه مع أسرته. كان الجميع نياماً إلا هو وأمه التي شرعت بإعداد الإفطار لأسرة لم تستيقظ بعد.

نظر من النافذة. شاهد أرض الديار من فوق. طار عصفور صغير من شجرة اليافوي الوارفة التي تتوسط البيت. أحس أنه يريد أن يطير. أحس أنه يود لو يصعد أعلى غصن في الشجرة ليكتشف داخلها. تمعن في البحرة المدورة. الماء يتدفق فيها على مدار الوقت، ويفيض من أطرافها نظيفاً لماعاً.

على طرف البحرة يوجد حوض صغير تتسلق من أرضه داليتا عنب، واحدة تصل إلى مشرقة الشقة الغربية من البيت والأخرى تغطي جزءاً من بقعة تجاور المربع التحتاني الذي يجاور باب الدار.

استيقظت فدوى، وجاءت تتحرش به. ماذا تفعل. تتفرج على البيت. بيتنا صار حلواً. لم يعد ضيقاً. يشبه قصراً صغيراً. لم يلتفت فادي إليها. قبالة الجناح الجنوبي الذي تسكن فيه أسرة فادي هناك جناح آخر، ومشرقة، ونوافذ شبيهة بنوافذ الجناح الجنوبي، المشرقة مغطاة بدالية عنب تصعد إليها من تحت. فقد استأجر أبوه البيت لأسرتين أو ثلاثة، فالبيت أوسع بكثير من أن تسكن فيه أسرة صغيرة كانت تسكن غرفة في السبع طوالع. وبيت عمه لم ينتقلوا بعد إلى البيت، فقرر أن يذهب إلى هناك!

رافقته فدوى. نزلا من شقتهما على درج يهبط من جانب فيصعد إلى الجانب الآخر. قال لها. لا يوجد أحد في الحارة. فسخرت منه. نزلت إلى الحارة من بكير مثل الحرامية. طبعاً لن يكون هناك أحد فيها. أنسيت أن اليوم هو الجمعة؟!

عندما صعدا الدرج الآخر، واجهتهما نصية، وعند النصية سمعا صوت مواء. لم يخف فادي منها. خافت فدوى. قال فادي. واحدة منها أكلت فطيرة الجبن التي أعطتها لي أمي، وقد سمعت القطط بالفطيرة فجاءت تريد أن تأكل، وعندما نزل فادي وفدوى لم تكن القطط السوداء موجودة، وكان المواء لا يزال موجوداً!

بعد ساعة. دبت الحركة في البيت. ثم دبت الحركة في الحارة، ثم توجه الجميع إلى صلاة الجمعة، ولم يبق في البيت إلاّ فدوى وفادي وأمهما، خرجا إلى الحارة. وجدا طفلاً يلعب. وفجأة خرجت طفلة جميلة من بيت قريب تضحك. نظرت في كل الاتجاهات. وجدتهما. اقتربت من فدوى وفادي. لم تحك مع فدوى. سألت فادي، وكأنها تعرفه منذ زمن طويل:

- هل تلعب معي؟

هز فادي رأسه... سألها:

- شو اسمك؟

و كان اسمها ديمة !!!!!!

حيرة وقلق وبقلاوة!

شعر الشيخ عبده الخرسا أن الحياة تغيّرت في حارة المؤيد. راح يفكر كثيراً، ويحكي مع نفسه، وكأن المس أصابه:

«طار عبد الناصر. ليس له عندنا خبز. خليه يعمل وحدة مع السودان ويتركنا بحالنا. خلّيه يأخذ السرّاج معه... الانفصاليون خائفون من عبد الناصر. كل واحد يحط الحق على الثاني، وكأنهم نادمون على ماجرى. انقلاب النحلاوي متل الملح ع السكر. اعتقلوا الحكومة. اعتقلوا الرئيس ناظم القدسي نفسه وجعلوه يستقيل، ثم رجع القدسي وظلت المشاكل قائمة.. .».

شرد قليلاً، ثم سأل نفسه:

«والحارة؟!»، وقال بصوت مسموع:

- الحارة تغيرت. سافر الجيران. المستأجرون لا تعرف أصلهم من فصلهم. بيت عبد ربه سكنت فيه أسرتان، والبيوت الأخرى على الدور...

فكر في أن ينتقل إلى مكان آخر يسكن فيه، طرد الفكرة، فذلك يحتاج إلى مال كثير أو إلى بيع البيت الذي يسكنون فيه، وليس هناك ما يشير إلى بيت جميل يسر الخاطر كبيوت حارة المؤيد.

كان يمر كل صباح مطأطئ الرأس. يفكر ولا يحكي. يذهب إلى الصلاة ولا يجلس مع أحد. يفتقد هناك لكثيرين من أصحابه. وعندما يعود إلى البيت. يتذكر الأوضاع الخطرة في البلد، فيطلب من أولاده ألا يتشاكلوا مع أحد:

- اتركوا الناس بهمهم. اتركوهم أحسن!

هذا ما يقوله كل يوم. بل ويكرر أمام جاره وقريبه أبو صلاح بين فترة وأخرى، العبارة نفسها:

- صارت حارة المؤيد ساحة لأطفال يتزايدون ويلعبون، ولا يعرفون ما الذي تحمله الأيام.

لم يكن الشيخ عبده يرى في السكان الجدد بدائل عن أقرانه الذين عاش معهم عشرات السنين. اختلطت الوجوه في الحارة. لم تعد تلك الوجوه التي كانت تلتقي كل يوم، وتجتمع على موائد الإفطار. لم تعد موجودة.

كان بيت عبده الخرسا حارساً لها في صدرها وفي جواره بيت أبو صلاح البوشي، وعند بوابتها كانت دكان أبو صلاح حارساً من جهة الجسر الأبيض، وفي طرفها قبالة قصر المؤيد، كان بيت الإيتوني يشعل أضواء المربع التحتاني ليل نهار، أما بيت سعيد العطري فيقع في قلبها...

سكن مستأجرون بيت العطري. عرفت الحارة أنهم من بيت المطامير. قال الشيخ عبده يُعرّف بهم:

- هؤلاء ينتسبون إلى أسرة دمشقية كانت تشتغل في الفخار، ويصنعون المكامير التي يجمع فيها الأطفال المال فيها.

تذكر الشيخ عبده أنه قال هذه المعلومة لناظم الإيتوني، بعد نهاية الصلاة وهما يقفان عند باب الجامع، وضحكا، فرد أبو محمود معلقا: «الأيام القادمة تشير إلى أن المكامير ستكون للكبار كما هي للصغار لأن الفقر يزداد والحالة تتدهور بين الناس...»

* * *

خلال أسابيع حصل ما لم يكن يتوقعه الشيخ عبده. فقد اجتمع شمل الجيران وكأن الزمن عاد. عند باب الجامع شاهدهم:

وقف أبو مالك عبد ربه إلى جوار أبو حامد عبد الرحمن يقبض منه أجرة البيت. أمسك أبو حامد بيد فادي.

جاء أبو محمود من الجهة الأخرى:

- الله لم الشمل عند باب الجامع!

تجمعوا وتصافحوا. فهي المرة الأولى التي يجتمعون فيها على هذا النحو منذ أيام الوحدة. سأل الشيخ عبده عن مالك وملك. فتدخل أبو محمود:

- هذا هو الشيخ عبده. أصيل لا ينسى جيرانه. لا يحفظ الغل في صدره.

- أستغفر الله يا جار. أي غل، نحن أهل...

قال أبو مالك:

- مالك بصراحة غير مرتاح للوضع في البلاد. يتخوف من انقلاب جديد يغير كل الأمور، ويمضي أغلب وقته في بيروت. يكتب في الصحف.

سأله أبو محمود:

- وماذا بشأن زواجه؟

- يؤجله باستمرار...

غيّر أبو محمود الحديث فجأة، وقال:

- لن أفوّت هذه الجمعة الجميلة.

ثم قال بإصرار:

- هذه الجمعة لن تضيع، يجب أن نكملها عندي على صدر بقلاوة.

شعر الشيخ عبده بسعادة غامرة. كيف يحصل هذا وهو في قمة القلق والضياع والخوف مما يجري.

خرج أبو صلاح متأخراً من الجامع. كان معه الأمير الجزائري. فقال أبو حامد:

- كملت بنور الأمير... فقال ألأمير:

- سآتي معك لأودعكم، فأنا سأسافر إلى الجزائر فترة من الزمن...

وبالفعل: اصطحبوا الأمير الجزائري معهم. قطعوا ساحة الجسر باتجاه الحارة جماعة واحدة. علق أبو حامد:

- تفرقوا يا شباب. يمكن يفكرونا مظاهرة تأييد لأمين الحافظ...

ضحكوا، وفي مدخل الحارة، مشى يمسك بيد فادي، وراقبا الحديث الذي يجري بينهما عن المئذنة والعصافير والصلاة. قال فادي للأمير:

- ضربت الشرطة بالحجر لأنهم ضربوك.

ضحك الشيخ من قلبه. وقال لفادي:

- أنت يدي اليمين يا فادي.

فسأل الشيخ عبده:

- ما هي قصة الشرطة يا أبو حامد؟

قال أبو حامد:

- ترك البيت وخرج أثناء منع التجول، ثم جاء العسكري، وأخبرنا أنه ضرب المصفحة بالحجر، وأنه ظنهم من الشرطة.

وضحك الجميع، بينما مسح الأمير الجزائري على رأس فادي، وهو يخاطبه:

- الشرطة تطارد الحرامية والمجرمين.

وأضاف وقد وصلوا إلى بيت أبو محمود:

- الذين ضربوني سافروا. ولا يسمون شرطة.

فرد فادي غاضباً:

- أنت قلت لي إنهم شرطة!

وعاد الضحك إلى الجميع...

غرفة العناية المشددة:
الحرب والعصافير وأمين الحافظ.!

قلتُ لأمي خلينا ننتقل إلى نوري باشا. قالت عيني فادي بيت العربي أحسن فيه شجر وبحرة وزريعة ومي. قلت نوري باشا أحلى ماما. قدام فرن خبز المشروح. ردت أمي وهي تضحك فهمت عليك فهمت عليك ديمة ما. أقسمتُ لا والله العظيم. احتجت أمي وهي تعض على شفتها السفلى. لا تحلف بتصير كذاب أنا ما نسيت شجرة اليافاوي يوم ما هربت أنت وديمة بالزلط وأبوك ما ضربك لأني تشفعت لك!

سمعت طرق باب. جاء صوتي القديم. جاءت زقزقة عصافير وصدى هديل. ماما هنا بيت ديمة. فُتح الباب وخرجت أم هشام الراضي وهي تحمل على يدها هشام. صاحت أم هشام أهلاً. أهلاً يا أم حامد. يا مية أهلاً. تفضلي. تفضلي.

ودخلت أمي. رفعت الإيشارب الأسود عن رأسها وقبلت أم هشام التي قبلتها بدورها. ركضتُ أنا إلى داخل البيت لأشاهد ديمة لأول مرة في بيتها. شاهدتها في بيت جدها ناظم الإيتوني. لم أشاهدها هنا. كانت ديمة تأكل من عروسة الزيت والزعتر. فرحت وتأبطت ذراعي وأخذتني إلى الشرفة.

قالت فادي تعال تفرج على البلكون. سألتها شو يعني بلكون. ضحكت وقالت مثل المشرقة. تعال. تعال... رحتُ مع ديمة تهشمت الشرفة عن ذاكرة من أيام مضت. والذاكرة عن صوت. تعال فادي. تعال. ويومها قطعنا الجسر

الأبيض. ساحة من بشر وحركة دكاكين مفتوحة تبيع وتشتري وجدران مثل بحارة السندباد تحكي لبعضها البعض وشوشة وهمهمة وتاريخ...

مشينا بحذاء النهر بعد أن قطعنا الجنينة المدورة. رأينا أشجار الفلفل الأحمر تتوهج بقناديلها الصغيرة الكثيفة لتحمينا من حرارة الشمس ورأينا الأرصفة نظيفة جميلة والنهر الرقراق الفرات يتدفق بأغنية لفروع بردى وعلى ضفتيه المائلتين تتهادى الأعشاب الموشورية الخضراء زاحفة بثقلها نحو الماء. قفزنا على الأرصفة تفرجنا على الأبنية الجديدة التي تبنى على الجانبين. حاولنا النط إلى ضفة النهر فوق الحاجز المعدني فزجرنا الحارس من بعيد. رأيته فناديتها ديمة انظري كيف يغرف الماء من النهر...

نظرت ديمة. رأت الحارس يحمل قصبة طويلة وفي نهايتها ربطت علبة تنك يملؤها بالماء ويرشقها على الضفة. ابتعدنا. قطعنا مسافة طويلة وكان لطفولتنا عبق يفوح حولنا قرب الساحة الجديدة جرنا الفضول للحديث توقفنا عند حاجز النهر ننصت إلى تدفقه القوي وسألتني ديمة: فادي كيف المي بتدور فقلت: هي شاروقة[1] قالت:

شو يعني شاروقة فأجبتها:

يعني بتشرق المي إذا وقعنا فيها تسحبنا فنموت. مرة وقع فيها واحد فشرقته ضاع يا حرام.

شدت ديمة على يدي وقالت بخوف:

يا الله فادي نروح

---

(١) الشاروقة هي عبارة عن مأخذ فرعي للماء يسبب دورانه ، فيخاف منه الأطفال لأنه يسحب كل شيء مع الماء .

وكان جامع الروضة في جهة اليمين صعدنا نحوه في الشارع الطالع إلى شورى وشاهدنا بيت الرئيس أمين الحافظ كان الحرس يرتدون الكوفيات الحمراء يقفون متجهمي الوجوه... لم نخف منهم... نظروا إلينا بلامبالاة... تسلقنا البيت الواطئ وقطفنا من شجرة الأكي دنيا المطلة على السور. شاهدنا الحراس. لم يضربونا ولكنهم لم يضحكوا أيضاً. كان معنا ربع ليرة وفكرنا كيف سنصرفها اقترحت ديمة: نشتري فلافل فسألتها سندويش قالت:

إي سندويشتين كل سندويشة بقرص ويبقى فرنك!

اشترينا الفلافل الطيبة كان عليها كثير من السمسم الأبيض...

وقال لنا صاحب (فلافل فابيان):

البيع بالكيلو!

وضحكنا... قالت ديمة:

أريد سندويشتين كل واحدة بقرص!

ودفعت أنا الثمن...

عدنا. قطعنا ساحة الجسر الأبيض. نادانا أبو صلاح من دكانه وين كنتوا. أجبته بصوت عال ببيت أمين الحافظ... ليش... ثم دخلنا إلى حارتنا الضيقة وتسللنا إلى بيتنا كأن شيئاً لم يكن لعبنا في مياه البحرة تراشقنا قليلاً ثم جلسنا على حافة حوض الزريعة...

ابتلت ثياب ديمة. صعدنا على شجرة اليافاوي. لم يكن البرتقال قد أزهر بعد. الدثار الأخضر الكثيف صنع لنا بيتاً بلا أزهار. جلسنا كزهرتين على غصنين متجاورين. سألتها بردانه. نفت بحاجبيها ورأيت وجهها يتفتح بضياء غريب يشبه زهر البرتقال. قلت وأنا أنظر تحت ثوبها كل شيء مبلول. فتعرت

الوردة. أزهر اليافاوي. خلعت ثوبها الخارجي والداخلي ونشرتهما رأيتها عارية لأول مرة... كان جسدها أملس رقيقاً لا يختلف عن جسدي إلا بيدي المقشبتين. مددت يدي كمن يضعها فوق جمرة وصحت بصوت خائف ديمة. وبحثت بين ساقيها عنه لم أجد شيئاً. وجدت فماً صغيراً طولانياً بشفتين مكنوزتين مضمومتين لامستهما بيدي فجابهتني النعومة متسللة إلى جسدي بصوت يشبه الدبيب وجاء صوتها. فادي لأ. عيب...

سارعت يداي إلى بنطالي لتخرج العصفور الذي انبثق أمام جسد ديمة. كادت أكروبتنا الرائعة تنتهي بفجيعة وقوعنا من فوق الأغصان إثر سماع صوت أبي القادم من المشرقة:

والله لأكسر رأسك يا أزعر.

* * *

خفت على ديمة وقت الانقلاب. قلت لازم شوف ديمة. قالت أمي لا تذهب هناك انقلاب على أمين الحافظ. لا تذهب. لا تذهب.

فادي راح. الدبابات. العساكر. الموت. فادي راح والعساكر في آخر الشارع سيارات مصفحة ودبابات عمال يشطفون الدم بالماء. رحْ يا دم رحْ يا عسكر أمين الحافظ... أمين الحافظ عمل دم:

رحْ... رحْ يا دم أمين الحافظ يا أمين الحافظ عمل دم. ولم يجد فادي سقاطة على الباب وجد دماً. ضرب عليه بيده فانفتح الباب. ديمة هي التي فتحت الباب قالت:

فادي بسم الله الرحمن الرحيم. ارتجفت شفته السفلى. فادي لا يرتجف عندما يحكي. يرتجف عندما يكذب ويرتجف عندما يشاهد الدم. قال فادي هربت من الدم خليني اتخبا عندكم!

فوت. فوت. خلص الانقلاب. قالت ديمة. وسمعت ديمة رصاصاً في الليل وأصوات جنازير دبابات وعندما انتهى صوت الرصاص جاءت أصابع فادي على الباب!

قالت ديمة بهمس في استنفار بابا راح وماما ببيت الجيران وهشام نايم. دخل إلى غرفة الضيوف. مثل الضيف دخل فادي. جلس على كنبة قرب الباب تفرج على الحيطان رأى صورة أبيها المعلقة على الحائط كان أبوها يضحك فضحك فادي!

قالت ديمة لا تضحك تعال. اقترب منها أخرجت من عبها ثدياً صغيراً مثل سقاطة بيت فادي وقالت له يا الله. ارتعشت شفة فادي السفلى ثم ارتعشت شفته العليا.. فم فادي لا يرتجف عندما يحكي يرتجف عندما يرضع وأمه طيف قديم لإمرأة من ياقوت ترضع ابنها إلى أن يشبع ولا تفطمه ولا تضع له الصبر أو القهوة على ثديها كي يكف عن الحلبان وثدي ديمة ليس فيه حليب فيه قشعريرة طعمها مثل الحليب...

ارتجف فادي أكثر. سمع رصاص فتوقف عن الارتجاف. عشر سنوات من الفادي ترضع بنهم من أحد عشر عاماً من الديما.. ورصاص!

ضمته إلى صدرها أكثر. قالت له لا تخف. جاء صوت قلب... دبيب قلب تسرب عبر شفتيه فتذكر دبيب فم بالطول أملس ناعم وشجرة يافاوي وفجر.. في ذلك الفجر سمعت ديمة دبيباً شاهدت دبابات وجنازير دخلت الدبابات إلى البيت حراس بكوفيات حمراء صاروا بلون حمر مثل الدم بكوفيات حراس...اقتربت دبابة من السور ارتفعت مقدمة الدبابة مع المدفع ثم هبطت مع المدفع.. الجسر الأبيض كان يرى وينصت... يرى الدبابة مثل الدب ولكن بمدفع ارتفعت مؤخرتها ثم هبطت. مر الجنزير على السور على رجال متجهمي

الوجوه على كوفيات لا تبتسم لديمة. شاهدت شجرة الأكي دنيا الجنزير. شاهده الجسر الأبيض قالت شجرة الأكي دنيا. أنا شجرة. قال الجسر الأبيض: هذه شجرة. والجنزير لا يحكي لا يروح يمشي لم ترتفع مقدمة الدبابة مع المدفع لأن الجسر الأبيض قال هذه شجرة. مر الجنزير فوق الشجرة ارتفعت أغصان طرية مع أوراق. سمع الجسر الأبيض صوت عظام تتكسر هبطت أغصان يابسة بلا أوراق راحت شجرة الأكي دنيا ولم يرح الجنزير وفادي سمع صوت بكاء الأكي دنيا يا.... يا...... يا يا أزعر والله لأكسر رأسك. ك. ك..

وديمة. مة. مه. ماااااااا

حرام. حرام...
الجن خرّب الشام!

حطت طائرة إير فرانس على مدرج مطار المزة في دمشق، وما إن فُتح بابُ الطائرة حتى تدفق الركاب منها، وبين هؤلاء ظهر رجل مُسن يحمل عكازاً من الخيزران ويضع على رأسه طربوشاً أحمر تدلّت من الجهة الخلفية فيه خيطان صفراء تهتز مع حركته،وتتوقف عندما يتوقف.

كان الرجل متعباً. أنهكه السفر. وأكل الزمن نضارة عوده. ومع ذلك توهج وجهه مشرقاً في رحلة طويلة قادمة من الجزائر على متن طائرة الكرافيل ذات المحركات الأربعة.

قبل أن يضع صاحب الطربوش قدمه على أول درجات سلم الطائرة استنشق هواء المطار. أغمض عينيه كطفل صغير غفا على صدر أمه. ثم فتح عينيه فظهر كحمامة تطير فوق صحن الجامع الأموي في صباح ندي، رأى من فوق حكاية قديمة جمعته مع الشام...

تذكر قصراً له تركه في دمر عند ضفة بردى، تذكر خرير النهر ونسمات الصباح المنعشة التي كانت تطرق نوافذه طيلة النهار والليل. تذكر سنوات طويلة من الحب بينه وبين أهل مدينة، هذه المدينة التي وصفها مرة بعروس البساتين...

أعاد استنشاق الهواء. وكأنه يقول:

- ها قد عدت يا مدينة الحكايات!

ثم ردد بحب وصدق غريبين:

- لا يوجد أحلى من هواء الشام.

هرع شاب، كان خلفه، لمساعدته، ونزلاً معاً درجات السلّم، وكانت برفقتهما امرأة أجنبية كهلة، ربطت شعرها الأشقر إلى الخلف كطالبات المدارس. وضمت شفتيها وكأنها أعلنت صوماً عن الكلام.

في أسفل السلم، حيث لامست أقدامه الأرض، وقف صاحب الطربوش وقال يخاطب الشاب بلغة فرنسية:

- هذا هو وطنك الحقيقي يا عادل!

ابتسمت المرأة الفرنسية. كسرت ضحكتها ملامح السفر والتعب. كشفت ابتسامتها عن جمال قديم كانت تتمتع به، وقالت بلغة عربية ركية:

- آدل. سوري فرنسي.

- عادل سوري فرنسي. جميل أن ينتمي الإنسان إلى مكانين دفعة واحدة. العلاقة مع الأمكنة تشبه العلاقة مع النساء، لا يمكن أن يحب الرجل امرأتين دفعة واحدة بالمستوى نفسه من الحب، ولذلك قال الله تعالى ﴿**ولن تعدلوا**﴾!

لم يبال الشاب بهذه المجادلة غير المباشرة بين الطرفين، فهو لا يجيد فهم مثل هذه الأفكار باللغة العربية، وعند نافذة الأمن العام المخصصة للقادمين إلى سورية، قدّم جواز سفره الفرنسي، وساعد صاحب الطربوش على متابعة تسجيل أوراق سفره، ثم قال له بعربية ركيكة:

- تفدّل أمير.

* * *

لم يتوقع وجيه القباني وهدباء المؤيد واثنان من أبنائهما أن يكون الأمير الجزائري على متن الطائرة نفسها التي عادت فيها ماريا وابنها عادل. كان كل شيء مرتباً، فمن أين أتى الأمير الجزائري بطربوشه الأحمر. كانت هدباء قد حكت لزوجها، منذ زمن طويل، عن حارتها التي عاشت فيها طفولتها، وحكت عن أثر الأمير الجزائري في حارة المؤيد كلها. لم تكن تعرف أبداً أن لقاءً تم بينه وبين زوجة أخيها. وعندما شاهدته، سألت بالفرنسية:

Qui vous a amené à bord de cet avion?

من جمعكم على هذه الطائرة؟

فرد الأمير الجزائري بالعربية:

- جمعتنا الصدف في الجزائر، فقد تعرفت إلى الدكتورة ماريا هناك!

وعقبت ماريّا:

- صحيح. تعرفت إلى الأمير في مطار الجزائر...

وأضافت وكأنها تريد استكمال تفاصيل هذه المفاجأة:

- عندما عرف أنني قادمة إلى دمشق، طرح علي أسئلة كثيرة، فإذا به يعرف كل شيء عن خالد وقصتي معه.

ثم عقبت تريد أن تطريه:

- إنه يمتلك شخصية ساحرة، ويجيد الفرنسية بطلاقة.

* * *

قاد وجيه سيارة البويك التي جاء بها مع هدباء. جلس الأمير الجزائري بجواره، وجلست زوجته وماريا في الخلف، وركب عادل بينهما...

في الطريق بين مطار المزة ودمشق. لم يتكلم أحد إلا الأمير. قال:

- لم أستطع البقاء طويلاً في الجزائر. تركت جامع الجسر عندما قرروا نقل رفاة سيدي الأمير عبد القادر، قلت لابد أن أذهب معه. ذهبت قبلها إلى الجزائر لأشارك أهلي هناك بالاستقلال عام ١٩٦٢، وبقيت فترة وإذا بالشام تناديني، وهذه المرة اكتفيت بزيارة قصيرة...

كانوا ينصتون إليه، وعندما يصمت ينتظرون صمته، وعندما تنتظر صمت من يتحدث، يشعر أنك تناديه لمتابعة الحديث. قال الأمير من جديد:

- ها أنا أعود إلى الشام. أعود إلى جامع الجسر الأبيض وأمضي بقية عمري فيه إلى أن يأخذ الله أمانته.

ردت هدباء من المقعد الخلفي:

- العمر الطويل يا أمير...

خلال نصف ساعة فقط، وصلتْ السيارة إلى الجسر الأبيض. اختار وجيه القباني أن يكون الطريق إلى جامع الجسر من ساحة عرنوس لتمر ماريا بجوار خراب قصرها وقصر زوجها القديم...

عند خربة القصر، أوقف وجيه السيارة، فصاحت ماريّا:

- حرام. حرام. الجن خرّب الشام!

كانت هدباء تتواصل معها، وتخبرها بوقائع ما يجري خطوة خطوة. تدخل الأمير الجزائري يرد على تعليق ماريا:

- الشياطين لا تخرّب المدن يا أم عادل. لم يعطها الله هذه القدرة. الشياطين تخرّب الإنسان، لأن الله اختارها لامتحان إنسانيته وإيمانه، وهو، أي الإنسان، الذي يقوم بتخريب المدن!

عند جامع الجسر، نزل الأمير الجزائري من السيارة يساعده عادل المؤيد، وظل الباقون يراقبون ما يجري. كان المصلون قد أنهوا صلاة العصر. عرفوه فتجمع حوله عدد من المصلين، ثم زاد العدد. ترامى الخبر في حارة المؤيد والعفيف والجسر الأبيض:

- عاد الأمير الجزائري.

وقال بعض منهم:

- ظهر الأمير الجزائري. ظهر الأمير الجزائري !

وعندما سمع الأمير الجزائري العبارة، ضحك من قلبه، وقال:

- شو أنا المهدي؟!

أحداث قبل الفجر!

استيقظت أم حامد على حركة غريبة تأتي من خلف جدار غرفة النوم. سيطر عليها خوف شديد، فهذه الحركة تأتي من جهة لايسكن فيها أحد منذ سنوات، وسريعاً تذكّرت:

«إنه بيت أغريبوز!»

وبيت أغريبوز، كما سمعت عنه أم حامد بيت مهجور، غادر أصحابه إلى حلب على أمل أن يعودوا، ولم يعودوا بعد، فكيف تصدر تلك الأصوات في بيت مهجور؟!

وخطرت لها حكاية قديمة روتها لها أمها تقول إن الأرواح المظلومة أو أرواح القتلى تعود إلى المكان الذي قتلت فيه وتحوم حوله وربما تُحدث جلبة فيه، وأحياناً تصرخ أو تبكي أو ترفع شكواها إلى رب العالمين!

خافت.

أيقظت أبو حامد، بصوت مرتجف:

- قم. قم...

استيقظ أبو حامد:

- خير؟!

- هناك حركة غريبة خلف الجدار...

- أي جدار؟!

- بيت أغريبوز... تركه سكانه قبل أن نأتي للحارة بزمن طويل، وهو بيت مهجور...

جلس في فراشه، لم يصحُ جيداً بعد. سألته زوجته برعب:

- هل هم من القطط السوداء؟ هل هم الجن؟!

- جن؟!

ضحك أبو حامد. لم تر ضحكته في العتمة. سمعت أصواتاً إضافية تأتي من وراء الجدار، فنهضت وأشعلت ضوء الغرفة!

كانت السماء معتمة، ليس فيها إلا نجوم بعيدة خفيفة الضوء. وفادي نائم، يحلم بكرات كثيرة تتدحرج في أرض خضراء. يركض خلفها وتركض معه ديمة. تركض الكرات ويركض فادي وتركض ديمة ويركض كل أطفال العالم بفرح!

فدوى النائمة أيضاً. كانت ترى في نومها فادي وهو يعلم القطط السوداء أكروبات طفولته الجميلة ولا يخاف، وكان حامد يحلم بملابس جميلة سيشتريها له أبوه في موسم العيد...

تمالكت أم حامد نفسها، وخرجت من غرفة النوم. تحركت أغصان شجرة اليافاوي. راقبتها من فوق. خافت. أرادت أن تعود أدراجها، فلم تفعل. نزلت إلى أرض الديار:

روائح الليل في حارة المؤيد لا تشبه روائح النهار. روائح الليل منعشة، وهذه المرة مكسورة بهواجس الخوف التي اشتعلت!

أشعلت الضوء، ونزلت من غرفتها. جلست عند البحرة. استعانت بالقرآن الكريم:

- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾...

كررتها عشر مرات. ثم أصغت، فإذا بالحركة تزداد، حركة توحي بأن هناك تغييرات تجري في البيت المهجور. سألت نفسها من جديد:

«أهم الإنس أم الجن؟!».

ناداها أبو حامد من فوق:

- أين أنت؟

شاهدها عند البحرة، فنزل على الدرج يمسك حديد الدرابزين. كان هادئاً. توضأ في البحرة يتهيأ لصلاة الفجر، وقبل أن يتم وضوءه، تعالى صوت الرصاص. توقفت الحركة. شرع أذان الصبح يرتفع فيترامى في ساحة الجسر الأبيض، وفي كل البيوت استيقظ السكان، فما الذي يجري على مقربة منهم؟!

قال أبو حامد:

- الصوت يأتي من جهة شارع نوري باشا.

استيقظ شقيقه وأسرته من الجهة الأخرى في البيت. تجمعوا عند البحرة. توضؤوا مع بعض، ولم يخرجوا إلى الجامع. أدى إمام الجامع الصلاة تلك الليلة مع عدد قليل من المصلين، وكان صحيحاً ما توقعه أبو حامد في جهة شارع نوري باشا، فمن هناك يتجه الشارع عبر مئات الأمتار إلى بيت رئيس مجلس قيادة الثورة الفريق محمد أمين الحافظ...

- إنه انقلاب. والمعارك شديدة...

هذا ما توقعوه.

وعند الصباح قالت إذاعة لندن إن انقلاباً وقع في سورية، وأطاح بالفريق أمين الحافظ، ويرجح أن الشيوعيين السوفييت وراء الانقلاب، وأن توجهات الانقلابيين الجدد تتجه نحو اليسار.

أعلنت قيادة مجلس الثورة الجديد منع تجول في البلاد. ويبدأ هذا الحظر عند الغروب ويستمر إلى صلاة الفجر مع بدء الحركة إلى المساجد...

اكتظت الأسواق بحركة الناس لتخزين المواد الغذائية وشراء الخبز، وعلى الوجوه ارتسمت أسئلة كثيرة، فالانقلابات لا توحي بالخير والأمان وغالبا ما جاءت بأيام سوداء!

عند أول غروب بعد القرار العسكري بمنع التجول، أغلق أبو صلاح دكانه، وصلّى المغرب، ثم عاد يتأبط دفتره بحرص شديد. شعر أن هذا الدفتر قد أصبح جزءاً من حياته، فالبلاد على فوهة بركان، فمنذ وصول الانفصاليين لا يعرف أحد ما الذي ستحمله مفاجآت الأيام القادمة.

يفتح السوريون أجهزة الراديو على مدار ساعات النهار يتابعون ما يستجد ويتوقعون بلاغاً أو بياناً أو خبراً بين ساعة وأخرى، وعندما يتعالى صوت المذيع يشنفون آذانهم على القلق والخوف...

هل ستعود الانقلابات، وهل سيتدخل البريطانيون والفرنسيون والروس والأمريكان في مصير سورية التي تضعها التوقعات على مفارق الضياع والتيه وخاصة أنها تضعف يوما بعد يوم؟

فكر أبو صلاح كثيراً وهو يعبر الحارة باتجاه بيته. سأل نفسه عن المستقبل، فماذا سيحمل هذا المستقبل للشام ولحارة المؤيد التي يعيش فيها ويحبها؟!

«وما شأني بالسياسة؟» سأل أبو صلاح نفسه.

تذكر حديثاً جرى بينه وبين مالك عبد ربه قبل أن ينقل أبو مالك بيته إلى منطقة العفيف. كان لقاء جميلاً وصريحاً دخل في أجواء السياسة في البلد، وقال له مالك:

- عمو. اسمح لي أن أقول لك أنك تصلح للسياسة أكثر من التجارة!

والتفت إلى أبيه ليؤكد وجهة نظره:

- بابا تصور أنه يحفظ تواريخ الانقلابات وأصحابها، يعرف رجال الكتلة الوطنية وحزب الشعب وقادة الثورة السورية، إنه يجمع كدسة صحف في رأسه ويرتب أخبارها!

علق أبو مالك ضاحكاً، وهو يرفع الطربوش ويمسح رأسه بمحرمة بيضاء:

- ربما يقرأ الصحف أكثر منك!

أسعد هذا الرأي أبو صلاح، وجعلته يبتسم.

ويومها قال مالك يخاطب أبيه:

- لا أخفيك سألت أبو أنس الحمصي عما إذا كان أبو صلاح يشتري الصحف من المكتبة، فقال لي أبو صلاح لا يشتري الصحف أبدا!

وهنا تدخل أبو صلاح:

- إذا عندك راديو وتسمع إذاعة لندن وإذاعة صوت العرب، مع إذاعة الشام مافي داعي للصحف! فوافقه أبو مالك:

- صحيح هذا الكلام. أبو صلاح على حق!

وتجاوب أبو صلاح مع هذا الإطراء، وأخفى أي إشارة إلى هواياته في كتابة اليوميات، أو في الحديث عن دفتره الذي يشبه دفتر الحسابات...

وصل أبو صلاح إلى منتصف الحارة. لم ينتبه إلى الصمت المطبق عليها رغم كثرة السكان فيها وكثرة الأطفال الذين وفدو إليها. كان صمتاً غريباً ذلك المساء، وقال في نفسه:

«الصمت ليس وليد اليوم فقط. هذا الصمت يحصل منذ أكثر من سنة!»

غابت حيوية حارة المؤيد المعروفة، الصداقات تفككت، الجيران ليسوا هم الجيران. لم يكن أحدٌ يلتقي أحداً كما كان يحصل من قبل. بيوت الحارة مغلقة تجترُّ أفكاراً سوداء تحملها الأحداث والتوقعات وأخبار الصراعات التي تجري بين الكتل التي وصلت إلى السلطة.

سمع أبو صلاح صوتا يأتيه من جهة بيت أغريبوز:

- يا حاج... يا حاج... أما سمعت بمنع التجول؟!

انكسر الصمت. أحس أبو صلاح أن السؤال الذي وجه له يسخر منه ولا يحمل احترام الجار للجار. التفت أبو صلاح. فاجأه الوجه الغريب الذي أطل من باب بيت أغريبوز. ظن أنه تاه عن حارته ودخل في حارات لا يعرفها.

سأله أبو صلاح:

- هل أنتم مستأجرون؟!

خرج رجل آخر من البيت، ورد بفوقية وعنف:

- هذا ليس شأنك!

لم يحصل هذا من قبل. الصغير يحترم الكبير، والكبير يحترم الصغير. فلماذا هذه السطوة من هذا الغريب. دخل أبو صلاح إلى بيته يتأبط الدفتر بخوف مكسور الخاطر حزيناً يسترجع بقايا وعيه. ثم قال بصوت شبه مسموع:

- أخطأ مالك الظن. فأنا لا أفهم بالسياسة ولا بغيرها!

وعندما أخبر أم صلاح بما حصل معه، هزّت رأسها، وقالت تحادث نفسها:

«الآن فهمت معنى الحركات التي كنتُ أسمعها في بيت أغريبوز خلال الليل!»

أخبرت زوجها أنها أمضت الليل خائفة مما يجري في بيت أغريبوز تقرأ المعوذتين إلى أن أوقظته أصوات الرصاص!

المدينة عندما تغلي!

مرت غيوم قليلة فوق دمشق في ذلك المساء النيساني، وفادي عبد الرحمن يخاف من الغيوم عندما تطل في بدايات الشتاء، أو عندما تهاجر في أواخر الربيع لتفسح المجال لصيف ساخن...

أطلَّ فادي من النافذة الصغيرة التي فتحها أبوه في جدار الغرفة المطلة على خربة قصر المؤيد. راقب الغيمات القليلات المعلقات في جهة الغرب، فأحس بالوحشة، وديمة لم تأت إلى بيت جدها منذ أسبوعين.

كبر فادي. الانتقال من حارة السبع طوالع في دمشق القديمة إلى حارة المؤيد في منطقة الجسر الأبيض عند سفح جبل قاسيون، شكل عاملاً مهماً من حياته. تفتحت الدنيا أمامه كأنها شمس أشرقت في وسط غيم كثيف متلبد. كان طفلاً حروناً مثل قطٍ عنيدٍ. يتقدم ولا يتراجع. يكاسر ولا ينكسر، وعندما يُهزم يعود من جديد ليسترد ثأر هزيمته، وكأنه من فرسان عصور سحيقة.

أتعب فادي أمه وأباه لأنهما يخافان عليه، وكذلك شكّل هاجساً لأخته وأخيه لأنه يكسر الحواجز ويتركهم في قلق. وظل فادي محبوباً من أطفال حارته، ولذلك راح يحبها كما يحب فراشة ملونة تطير في محيط طفل يشعر بالسأم.

زاد طوله قليلاً، واكتنز جسده، ولاحظت أمه أنه يعتني بملابسه أكثر من قبل. نزل فادي إلى حارة المؤيد بعد أن ارتدى بنطالاً رمادياً مكوياً وقميصاً أبيضَ ناصعاً ومشّط شعرَه الناعم بمشط أمه الكبير، واشتعلت عيناه بفضول غريب وشوق مبهم...

سألته أمه:

- إلى أين؟ الشمس تغيب. ينبغي أن تبقى لتدرس فأنت لم تعد طفلاً، ويجب أن تكون شاطراً في مدرستك!!

ضحك فادي. سخر من تعاليم أمه. تمرد عليها، وخرج من البيت لا يعرف إلى أين تأخذه رجلاه. لم يلتفت إلى الأطفال وهم يلعبون. دفعه نضجه ليخرج من الحارة إلى عالم أوسع، وعند عتبة حارة المؤيد رآها. كانت ديمة برفقة أمها وأخيها هشام يدخلان الحارة بعد انقطاع عنها دام نحو أسبوعين.

أحست ديمة أن فادي غدا شاباً. ثم لم تعد هي طفلة لتترك أمها وتركض نحوه لتلعب. تمهلت، أو على الأقل تمالكت نفسها من الركض نحوه. وقف فادي قبالتهم مهذبا نظيفاً. أثارت أناقته أمها. قال بأسلوب فتى يحترم الآخرين:

- أهلا خالة! تفضلوا إلى بيتنا!

ابتسمت ديمة. استعادت ملامحه وهو يتشيطن في خربة المؤيد. تذكرت كيف احتضنها في بيت نوري باشا. كان أغبر الوجه أحرقت الشمس بشرة وجهه، لكنه كان دافئاً. ولم تكن تعرف معنى تلك المشاعر التي انتابتها...

قالت ديمة، بطريقة تحاكي طريقته:

- كيفك فادي؟ كيف دروسك؟!

- فحكت الأم مع نفسها:

«صارا كبيرين!»

تقدمت الأم وهي تمسك بيد هشام الصغير الذي شرع بالمشي، فتراجعت ديمة لتبقى مع فادي، خاف فادي من احتجاج الأم، لكنها لم تحتج. قالت ناصحة:

- ابقيا هنا. لا تبتعدا!

ثم وجهت رسالة سريعة إلى ديمة:

- يجب أن ترانا التيتة أولا...

لم تبال ديمة برسالة أمها، وما أن انقشعت ساحة الجسر الأبيض أمامهم وهما يخرجان من عتبة الحارة، حتى تعالت الجلبة من جهة مكتبة الحمصي، خرج أبو صلاح من دكانه وكذلك فعل أبو غياث بائع الحلاوة، وتجمع كثيرون، وضاع الحابل بالنابل..

راقب فادي المشهد، وراقبت ديمة ما يجري بفضول. وقفت سيارة البيجو عند المكتبة، ونزل منها شبان ثلاثة مدججون بالسلاح. دفعوا أبو أنس صاحب المكتبة خارجاً، وراحو يقذفون بالمجلات أرضا ويبحثون عن شيء محدد بينها، تدخل بعض المارة ليحلوا المشكلة. صاح بهم أبو أنس:

- ماذا تريدون؟ لماذا تفعلون ذلك؟

وجاءت أصوات من المارة:

- فوضى يعني. ماذا تريدون من الرجل؟!

رد واحد منهم بحزم:

- مهمة رسمية. أعطنا كل النسخ التي لديك!

فهم أبو أنس ماذا يقصدون. دخل من جديد إلى مكتبته، وأعطاهم ثلاثة نسخ من المجلة. سأله أحدهم بلؤم:

- كم نسخة بعت؟

- سبع نسخٍ.

- من اشتراهم؟

- الناس. وهل أبيع ممنوعات لا سمح الله؟!

عاد الشباب الثلاثة إلى سيارة البيجو، ومعهم نسخ المجلة، وانطلقت بهم السيارة باتجاه الطلياني. تجمع الناس عند باب المكتبة يسألون أبو أنس عما حصل، فأخبرهم أن المجلة مُنعت لأن فيها كفراً!

وترامت همسات إلى فادي وديمة اللذين اقتربا من المكتبة بحذر:

- المخابرات أخذوا المجلة.

- لماذا؟

- وماذا بها؟

- الكاتبة غادة السمان تسخر من الملائكة والرسل...

- يا لطيف... تلطف!

- ستحل اللعنات على المدينة!

- أليست المجلة للحكومة؟!

عاد فادي وديمة إلى الحارة. أراد أن يقوم بدور الرجل، فيشرح لها القصة، فيضيف إلى المعلومات التي سمعاها معاً:

- سمعت بابا يقول إن ما كتب في المجلة حرام وإن الله سيغضب على الشام!

خافت ديمة. قالت:

- أريد أن أعود إلى بيت جدي!

عادا معا. عند بيت ناظم الإيتوني تركته. دققت في نظرات عينيه، فرأته شاباً ستحلم به كثيراً فيما بعد. دخلتْ البيت، وقالت لأمها:

- الحرس القومي هجموا على مكتبة الحمصي!

لم تنم المدينة في الأيام التالية، تغيّرت ملامح دمشق بسرعةً، الأسواق مغلقة، والشوارع تكاد تكون فارغة، والأنظار تتجه إلى حي الميدان حيث غصّت تلك المنطقة بالغاضبين وبمظاهرات كثيرة خرجت بناء على دعوة الشيخ حسن حبنكة في صلاة الجمعة!

- من هو الذي يتطاول على الخالق سبحانه وتعالى؟!

قال أبو فادي، وقد سمع الخبر من صديق له، فرد صديقه:

- كاتبة اسمها غادة السمان تستهزئ بالخالق!

وتابع صديقه:

- لم تتوقف المسألة هنا. جاء صحفي وأيدها في مقال مطنطن!

- أستغفر الله العظيم!

ردد أبو فادي، وانضم إلى الجموع في حي الميدان، وتعالت الهتافات تندد بالمقال الكافر. فُتحت أبواب النوافذ، وتجمعت النسوة على الشرفات وقد غطين رؤوسهن، وأنصاف وجوههن، وراحت أصواتهن تختلط بأصوات الرجال، وتحولت الجموع إلى موجات بشرية كبيرة، وكأن سكان المدينة أطلقوا ثورة في حي الميدان.

حُوصرت الساحات. انتشرت دوريات الشرطة في الشوارع. راحت مجموعات من الحرس القومي تجول في الأسواق وتقوم بكسر أقفال المحلات المشاركة بالإضراب بمطارق كبيرة، وتفرض العودة إلى الحياة الطبيعية.

كان أفراد الحرس القومي يكسرون الأقفال، فيتدافع أصحاب المحلات التجارية نحو محلاتهم، يواجهون تحطيم الأقفال، كان بعضهم

يفتحون المحلات بإرادتهم، وما أن يغادر رجال الحرس القومي المكان حتى يعودوا إلى إغلاقها!

اشتعلت بعض الحرائق في عدة أماكن، وانتشرت أخبار عن هجمات على مراكز الشرطة، ومع غياب شمس اليوم الثالث عادت ساحات منطقة الميدان هادئة نتيجة أخبار عن محاكمة الصحفي الذي كتب العبارات المذكورة في المجلة.

أما ساحة الجسر الأبيض فكانت الحركة فيها قليلة، وقفت أم فادي تنتظر عودة زوجها وتلهج بالدعاء، وكان فادي يقف مع أخويه حامد وفدوى على الرصيف ينتظرون عودة أبيهم مع كل حافلة تأتي أو كل سيارة تتوقف.

وكان الخبر الذي أتاهم من حي الميدان يقول إن الشرطة ألقت القبض على أبو حامد لمشاركته في التظاهرات، وأن كثيرين شاهدوه وهو يضرب في سيارة بيجو ٤٠٤ مع شابين آخرين!

راقب أبو صلاح قلق الأطفال من دكانه الصغيرة، ثم كتب على دفتره معلومات عن أحداث الأيام الأخيرة:

«علمتُ أن الحرس القومي اعتقلوا جارنا أبو حامد عبد الرحمن وهو يشارك مع أبناء الميدان احتجاجهم على ما نشر عن الخالق سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله.

الشام تغلي، وهناك أخبار عن حجز الشيخ حسن الذي خطب في صلاة الجمعة وشتم الصحف...

الأحد في ٢٢ محرم ١٣٨٧ الموافق ٢ نيسان ١٩٦٧ ...»

وبعد يوم واحد كتب أيضاً:

«انتهت القصة، وأعلنوا أنهم حكموا على الكاتب بالسجن».

أنهى أبو صلاح المعلومات المقتضبة التي كتبها، فإذا بسيارة تقف أمام دكانه، وينزل منها أبو حامد. خرج أبو صلاح من الدكان يلاقيه، قال أبو حامد:

- فُرجت يا أبو صلاح.

وتعانقا. مشت السيارة، ومشى أبو حامد نحو بيته، فارتفع صوت أبو صلاح:

- ما يجري سيأتي بأشياء أعظم!

غرفة العناية المشددة:
سكان بيت أغريبوز!

دخلتُ بيت أغريبوز. رأيت أشجاره يابسة. بيت أغريبوز بيت شامي مزين بالأشجار والورد ودوالي العنب الديراني والمجنونة التي كانت تتسلق الجدران لتصل إلى بيت عبد ربه. تساقطت الأوراق فيه وتجمعت. العطش صنع خريفها. وخريفها كدس أوراقه على غير العادة. لم تعد أم نجوى موجودة لتروي الأحواض والأصص الموزعة في البيت وتجعل بلاطه لماعاً وزجاج غرفه شفافاً يكشف أناقة الغرف، ومن الغرف يكشف أناقة البيت ونباتاته. بيت شامي لكنه بطراز حلبي، فقد زين أبو نجوى الجدران المطلة على أرض الديار بحجارة بيضاء وبعض القناطر، وعلق أيات من القرآن الكريم في جهة الظل الذي ترسمه الدالية على الجهة الجنوبية المجاورة لبيت عبد ربه...

دخلتُ بيت أغريبوز. كانت مزنة معي عند الباب. قالت سأبقى خارجاً. فنحن لانعرف هؤلاء الذين سكنوه. بقيتْ في الحارة تنتظرني. أما أنا فدخلت. الباب مفتوح. لا يوجد حريم. شباب يرتبون البيت. قلت لهم. أنتم من بيت أغريبوز. ضحك واحد منهم. سخر مني وسألني حضرتك مختار الحارة. قلت لا أنا فادي عبد الرحمن نحن بيت جيرانكم. سألني مباشرة أبوك هو الذي كان في الحبس.

ما أدراه. ماذا يعني سؤاله. تذكرت أبي. يومها خيّم الحزن على البيت وكانت دمشق تغلي في تبعات مقال مكتوب في إحدى المجلات تم سحبه من

البائعين بعد يوم واحد من صدورها، وأبو حامد غائب لم يعد لليوم الثالث على التوالي...

وغياب الأب في أسرة فقيرة على هذا النحو جعل البؤس يخيم على البيت كغيوم سوداء لا أحبها. جاء الخبر أنه اعتقل في منطقة الميدان في دمشق...

هل سيستمر اعتقاله؟ هل سيموت؟ وماذا ستفعل أمي إذا مات؟ وماذا سيحصل لي ولفدوى وحامد؟!

كل من في البيت تقبّل الصدمة، وسلّم أمره إلى القدر إلاّ أنا فماذا يعني أن يختفي أبي لأنه كان ضد (الكفار)؟! لكن الأمير الجزائري نهاني أن أقول عن أحد إنه كافر، فما أدراك ما بقلبه يا فادي؟! الله أعلم! قال الأمير.

خفت. إذا الشرطة أخذوه وربما لا يعود. الشرطة تأخذ أبي هذه المرة، وربما لن تعيده سالماً كما كان. قالت أمي تطمئنني:

أبوك سيعود، فهل هو الذي قتل الزير سالم؟!

سألتها هل الزير سالم من الشرطة؟!

ضحكت رغم حزنها. أعادت شرحها الذي كررته كثيراً: الشرطة ليست عدواً. الشرطة تمسك اللصوص والمجرمين والذين يقتلون الأطفال. سألتها، والزير سالم؟! امتزجت مشاعرها بين الضحك والبكاء. ثم عادت مرة ثانية وطمأنتني. الزير لا علاقة له بالشرطة. وأبوك أخذته المباحث وسيعود. هم يفعلون ذلك كي يخيفوا الناس!

ومنذ ذلك اليوم صرت أطمئن إلى أن الشرطة لا تؤذي أحداً، صرت أشاهد الشرطي في الطريق فأقول له مرحبا عموّ.

قال الشاب وين سرحت. عدت من شرودي. طلب مني أن أساعدهم، فساعدتهم. قال الشاب لآخر أبوه من الأخوة. لم أفهم قصده. لكنه مازحني وأعطاني ملبس ملون ذا طعم طيب، فخرجت وأعطيت مزنة عدة حبات.

خلال أسابيع تغيرت أجواء الحارة مع الساكنين الجدد في بيت أغريبوز. أول الأمر سألني أحد الشباب هل يوجد كفار في الحارة يا فادي؟ قلت لاتقل كفار. هل أنت في قلوبهم. فأمسكني من يدي وقال تعال. تعال. من علمك هذا الكلام. أخبرته أن الأمير الجزائري قال لي ذلك. تغيرت تعابير وجهه. سألني أنت تذهب إلى جامع الجسر وتسمع أسامة الخاني والجزائري الكرنيب. سألته شو يعني كرنيب. قال يعني زنديق والعياذ بالله!

أحبهم أبي في البداية. زارهم عدة مرات. كانوا لا يذهبون إلى الجامع. قال لأمي يصلون جماعة في البيت. مع أن الجامع يبعد مئتي متر عن الحارة.

لم تفهم أمي قصده. سألته: كيف يعني. فأخبرها أنهم طلبوا منه أن ترتدي أمي ثياباً جديدة، وتغطي رأسها بجلباب بدل الإيشارب. وأن تغطي فدوى شعرها.

رأيت أمي بعد يومين تغني في البيت وين الحبيب اللي وعدني ولسّه ماجاش. لم ترتد جلباباً. خلعت الإيشارب وتركت شعرها الطويل ينسدل على كتفيها. ومرة رأيتها أمام المرآة تمشط شعرها كعروس وتستعيد أغنيتها المفضلة وين الحبيب.

شاع صيتهم في الحارة خلال أسابيع. قال الجيران الآخرون إنهم يتدخلون بالشاردة والواردة. وسرى همس يعتب على أبو نجوى على تأجير البيت لسكان ليسوا متسامحين.

آخر مرة دخلت بيت أغريبوز رأيتهم يدورون في حلقة ويهللون. الله. الله. الله. الله. إلى أن داخ أحدهم ووقع على الأرض. خفت. أنا أعرف الصلاة. هذه ليست صلاة. الصلاة تنتهي بسرعة ولا أحد يقع على الأرض. خرجت بسرعة من البيت. حكيت لأمي عن دورانهم. قالت لي ربما يستحضرون الجن. سألتها كيف. ردت وقد غيرت موضوع الحديث. أنا أمزح معك. هذه تهليلة. سألتها. ماما شو يعني تهليلة. قالت وقد نفد صبرها. يا ألله على أسئلتك.

حكيت لكل الحارة قصة دورانهم. سألتني مزنة لماذا يفعلون ذلك. قلت وكأنني أعرف السر هذه تهليلة. سألتني شو يعني تهليلة. فضحكت وقلت يا ألله على أسئلتك.

لم أعد أدخل بيت أغريبوز. استغرب واحد منهم وسألني لماذا لم تعد تزورنا يا شيخ فادي. لم أجبه. سألته شو يعني تهليلة.

قصر العفيف، وسعاد دك الباب!

ما إن تتجاوز السفارة الفرنسية في منطقة العفيف عند سفح قاسيون، وتنعطف نحو اليسار، حتى تطل من بناية كبيرة شرفة واسعة في الطابق الأرضي مطوقة بالحجر الأبيض المنحوت، ومنها تتساقط جدائل الياسمين على الشارع، يفوح منها عطر دمشقي خاص.

على تلك الشرفة منحوتتان كبيرتان من حجر يشبه حجر الصوان. كل واحدة بحجم سلة كبيرة. وضعت هاتان المنحوتتان في زاويتي الشرفة، وفي كل واحدة منهما زرعت باقة كبيرة من الورد الشامي.

تشبه تلك الشرفة في زينتها وحجرها الأبيض مدخل قصر المؤيد أيام زمان، ومن فوق تتساقط مجموعة أضواء من ثريا نحاسية كبيرة، توهجت مصابيحها، فأضفت على المكان زينة الضوء.

في الداخل، مخطط يشبه الطابق الأول في قصر المؤيد، الصالون واسع تتوزع من حوله غرف البيت ودهاليزه الجميلة المزينة بالفوانيس والفازات وأواني الكريستال، وكأن صاحب هذا البيت أرد أن يذكره بذاك القصر المسحور.

هذا البيت هو بيت أبو مالك عبد ربه، أراده بيتا يشبه القصر، لذلك عرض تصميم التغييرات على زوجته، وعندما شاهدت أم مالك التصور المرسوم على الورق، قالت مازحة:

- لم يبق إلا الجن!

وضحكا معاً. اهتز طربوش أبو مالك حتى كاد أن يقع، فتدخلت أم مالك، وهي تردد:

- قل أعوذ برب الفلق.

كانا زوجين متفاهمين، وكثيراً ما سعت إلى إقناعه بإلغاء الطربوش دون فائدة، كان يمزح فيقول:

- هذا مثل الريشة على رأسي. وأنت تعرفين إذا كان هناك رجل على رأسه ريشه، يهابه الآخرون!

* * *

في هذا البيت، تزوج مالك عبد ربه. وفي الليلة التي تم تحديد موعد زفافه، نام فأعاده النوم إلى حارة المؤيد وبيتهم القديم، سمع صوت نافورة الماء عند الصبح وهو يمتزج مع الأذان، وهاجمته رائحة الياسمين وزهر البرتقال اليافاوي والكولونيا، فإذا هي أمامه تحاسبه:

- إي... أنت خنتني يا مالك!

تقلب مالك في الفراش. من أين جاءت نجوى أغريبوز الحلبية لتحاسبه وقد قرر الزواج. قال لأبيه بعد أن تأجل زواجه كثيراً:

- ما رأيك أنني وافقت الآن على الزواج.

هز أبو مالك رأسه، وفتح عينيه فرحاً، قبل أن يسمع تتمة القرار التاريخي لابنه:

- سأتزوج سعاد دك الباب.

رد الأب:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

ووافق!

تراءت نجوى لمالك ترتدي فستاناً نيلياً، وكشفت شعرها كامرأة عصرية رمت تقاليدها القديمة جانباً. هزته بيد تشبه يد رجل، وقالت تؤنبه، وكأنها ضميره الذي صحا فجأة:

- كيف تلاحقني وتقول إنك تحبني، وتقطع طريقي إلى البيت بكل السبل لتغازلني، وكنت عاهدت سعاد على حب آخر، هيّا قل...!

تقلّب مالك في الفراش. وثمة سؤال يذهب ويعود، من أين جاءت نجوى أغريبوز لتحاسبني؟!

أمسك يدها. يدها باردة مثل يد طفل يقف على قارعة الطريق تحت مطر كثيف. ليست هذه اليد يد نجوى.. ونهض، وهو يردد:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

عندما أقيمت حفلة العرس المتواضعة في بيت العفيف، نظر مالك إلى سعاد الملاصقة له، واحتضنها بحب، وقال:

- نحن كنا ومازلنا حبيبين، ومن الضروري أن يتم الزواج قبل أن نصبح عجوزين!

ضحكت سعاد. تألق وجهها. جاء صوت أمها يدافع بثقة كبيرة عن جمالها:

- سعاد الآن أجمل بألف مرة منها أيام حارة المؤيد.

احمر وجه سعاد خجلاً. أمّا أم مالك، فراقبت المشهد بذكاء.

ارتدت أم مالك ثوباً من القماش الأسود المزين بشناشيل بيضاء، وجلست قرب أبو مالك الذي خلع الطربوش ووضعه جانباً، فبان رأسه لماعاً، وقد خلا الشعر منه. قال أبو مالك:

أم مالك زغردت عندما أعلنت تزويج مالك لسعاد وملك لشوقي، صارت ملك أمّاً منذ سنتين، وصار زوجها محامياً معروفاً، ولم تزغرد اليوم لعرس مالك الذي تأخر كثيراً!

قالت أم مالك:

- الحق على مالك. لحق الصحافة والسياسة، فتأخر زواجه!

لم يكن ثمة مدعوون. كانت حفلة صغيرة جمعت الأهل فقط، بناء على طلب من مالك. نعم لا أريد حفلة مطنطنة. سأحتفل أنا وسعاد في بيروت، أما أنتم فنطلب منكم الدعاء.

في زاوية الصالون قرب الشرفة جلست ملك مع زوجها شوقي. وكانت بنتاها ترتديان ثوبين أنيقين وتتحركان بين الحضور كلعبتين. تذكرت ملك أيام زمان. أرادت أن تخرج من الصالون إلى الشرفة لتستعيد السنوات التي مرت. أرادت أن تتنفس ملء رئتيها لتكسر الضيق الذي حاصرها مذ قال شقيقها إن من الضروري الزواج قبل أن يصبحا عجوزين...

لحق بها شوقي إلى الشرفة. لا أحد يعرف بما يفكر. أهي قصيدة جديدة عن الحب والزمن. أم فرصة ليستنشق الهواء لأنه يحس بما تحس به ملك حبيبته التي زينت حياته، كما كان يقول!

سألته:

- بماذا تفكر؟

وأضافت:

- شوقي ما الذي حصل؟!

- أشعر بأن الله أسعدني بك.

أمسكت يده. كانت نسمة هواء قد كسرت حدة الحرارة القليلة في أواخر شهر آيار، شد على يدها،وسألها:

- ما رأيك أن نذهب إلى شوارع الجسر الأبيض وحارة المؤيد؟!

- تريد أن نعود عاشقين؟!

هز شوقي رأسه. فغضبت:

- هذه بادرة شؤم!

- كيف؟!

- ألا تشعر بأننا عاشقان على مدار الساعة...

ومزحت معه، وهي تشده من يده لتعيده إلى الصالون:

- هيا، في الليل تكتب قصيدة جديدة حتى لو شغلتك المحاماة عن القصائد التي كنت تكتبها لي.

* * *

سافر مالك إلى بيروت ليلاً. ودّعته أمه وبكت. ومسح أبوه على رأسه وقال:

- الله يرضى عليك يا مالك. الله يسعدك.

خرج من البيت إلى السيارة المزينة. عادت ملك إلى الشرفة ولوحت له. انتبه إليها. لوح لها بالمثل، أما شوقي، فما إن تحركت السيارة حتى وجد نفسه يمشي في الشارع وحيداً، يستعيد زمناً مضى، فإذا هو ينزل من العفيف إلى الجسر الأبيض، وهناك ينعطف إلى منطقة الجبة، فذات يوم تعرف فيها إلى ملك، ولم يكن من السهل تصور أن تلك اللحظة سترسم شوطا سعيداً من حياته!

الحرب!

وقف أبو حامد على الرصيف الشرقي في ساحة الجسر الأبيض. ينصت إلى صوت الراديو الذي رفعه أبو صلاح من دكانه القريبة، والأخبار تتحدث عن طلب عبد الناصر رحيل القوات الدولية من مضائق ثيران.

حرّك أبو صلاح مؤشر الراديو إلى إذاعة أخرى تقدم تفاصيل إضافية. فكل الأخبار تتحدث عن إغلاق مضائق ثيران وعن التطورات المرتقبة. قال أبو حامد، وهو يقترب من الدكان:

- إنها الحرب يا أبو صلاح!

تغير وجه أبو صلاح، وسأل بخوف:

- هل ينجح عبد الناصر في الحرب بعد أن فشل في الوحدة، وماذا يحقق من نتائج بإغلاق مضائق ثيران؟!

رد أبو حامد بحماسة:

- سورية ستكون معه، وكل العرب...

- يعني ستكون الحرب عندنا أيضاً؟

- طبعا، فنحن في الدريئة وإسرائيل ستضربنا بين لحظة وأخرى.

- هل يقرر عبد الناصر الحرب عنا؟!

- هذا زعيم، والزعماء يتخذون القرارات الصائبة، وهو لن يقرر الحرب عنا، سيقرر الدفاع عنّا بشن الحرب على إسرائيل!

هز أبو صلاح رأسه، وسأل:

- وهل تضمن صحة قراراته بعد تجربة الوحدة؟!

وقبل أن يأتي جواب أبو حامد انتفض أبو صلاح في دكانه، وهو يصيح:

- أبو نجوى عندنا... أشرقت الشام يا أحلى جار.

رفع أبو صلاح حاجز الخشب الذي يفصله عن الزبائن، وخرج من دكانه يعانق جاره القديم، ويرحب به:

- أهلاً. أهلاً بجار الرضا.

ثم عرفه على أبو حامد:

- هذا جارنا الجديد أبو حامد، وقد سكن في بيت أبو مالك.

تصافح الرجلان، وقال أبو صلاح، وهو يغلق الدكان:

- إلى البيت. الغداء عندي اليوم.

لم يمض أبو نجوى وقتاً طويلاً، لكنه سمع أشياء لم يتوقعها عن ساكني بيته. وكثف أبو صلاح المسألة بأنهم أرادوا تأديب الحارة، وفرض قناعاتهم عليها، رغم أنهم لم يقوموا بزيارة أحد من سكانها، فاعتذر من جيرانه لأن المستأجرين جاؤوا عن طريق طرف ثالث من حماة، وأخبرهم أنه لم يكن يعرفهم من قبل، ووعدهم بأن يعمل على استعادة البيت منهم ويلغي عقد الإيجار، فقال أبو حامد: يجب أن ترفع دعوى إخلاء في القضاء...

خلال اليومين اللذين بقي فيهما أبو نجوى أغريبوز في دمشق، زار كل بيوتها محملاً بأكياس الزعتر الحلبي وصابون الغار. اطمأن على أهلها وتعرف إلى السكان المستأجرين. وقبل أن يقوم بزيارة بيته والتعرف إلى من شغل بيته، نصحه الشيخ عبده الخرسا بالتأني:

- لا. يا أبو نجوى. اتركهم، فالناس طبائع ولكنهم أصحاب دين...

غادر أبو نجوى الحارة إلى حلب، وقد غصّ بكلماته التي قالها عند دكان أبو صلاح:

- كنت أظن أن حارة المؤيد ستبقى كما أحببتها دائماً.

لوح بيده وسافر إلى حلب في صباح الخامس من حزيران. في ذلك الصباح وقعت الحرب. بدأت في مصر ثم انتقلت إلى سورية، وذهبت تفسيرات الناس إلى أن الحرب ستكون طويلة وصعبة وأكثرَ عنفاً من المتوقع...

* * *

رفع أبو صلاح صوت الراديو في دكانه. تحولت دكانه إلى مركز أخبار. بث الراديو أغنيات حماسية كثيرة، فما إن تنتهي واحدة حتى تبدأ الثانية، وبين فترة وأخرى يقوم المذيع بتكرار البلاغات العسكرية.

قال أبو حامد:

- أغاني مصر في حرب الست وخمسين أحلى وأكثر حماسة.

كذلك احتج الشيخ عبده على الأغنيات، دقق في كلماتها، فحفظها، وراح يشرح موقفه في الحارة:

- في حرب الست وخمسين الأغاني تردد الله أكبر فوق كيد المعتدي، واليوم الأغاني تقول الميغ تتحدى القدر. هل هذا يجوز؟!

ضحك أبو صلاح، وقال ساخراً:

- الشيخ عبده صار ناصرياً!

رد الشيخ عبده:

- أنا لا أحب عبد الناصر، ولكنه الآن يحارب عن كل العرب!

تعالت الأناشيد الوطنية والمرشات العسكرية من نوافذ بيوت حارة المؤيد، وقفت أم حامد على المشرقة الغربية. دققت في تفاصيل المشهد أمامها تبحث عن فادي. لم تجده. لم تعد إطلالتها اليومية على شارع الجسر الأبيض تشرح صدرها. فالحرب تنذر بأشياء لا يمكن توقعها!

كانت الجرذان تسرح وتمرح في خربة قصر المؤيد. بعض الفقراء يبحثون في الخربة عن أشياء صالحة للاستعمال، وفي زاوية منها ظهر فادي يملأ بعض الأكياس بالتراب وينقلها إلى جانب الرصيف المقابل. شغلتها حركته:

- فادي. فادي!

نادته، فلوح لها بيده ومضى. يريد أن يشارك في إقامة المتاريس التي يقيمها الجيش الشعبي من أكياس الرمل. وقال لها حامد:

- كبر فادي. اتركيه ليصنع نفسه!

وقفت حارة المؤيد وقفة واحدة، تباينت آراء سكانها، ومع ذلك كانت الفرحة تعلو الوجوه مع كل بيان عسكري يحكي عن إسقاط طائرات إسرائيلية، وكان الحزن عاما يشبه الفجيعة عندما عرفوا أن كل البلاغات كانت حبراً على ورق، وأن إسرائيل انتصرت بخمسة أيام!

وعندما جرى الحديث بين أم حامد وزوجها، أخفى أبو حامد عاطفته التي تفجرت فجأة، وتحولت إلى حزن كبير. شاهدته أم حامد وهو يبكي. تلك هي أول مرة يبكى زوجها أمامها. لا تعرف السبب الحقيقي لبكائه: هل هزيمة عبد الناصر؟ أم هزيمة سورية؟

اختلطت الأشياء بالنسبة إليها، «لماذا يبكي سوري من أجل عبد الناصر؟! فمن يبكي على السوري ذات يوم؟! وهل سيرد العرب على إسرائيل بحرب جديدة؟!»

كانت أسئلة أم حامد أبسط بكثير من أن تُسأل. وأحياناً كانت تتردد قبل السؤال، لأن زوجها كان يجيبها كطفلة صغيرة، وهذا ما كان يقلقها:

- نعم، يا أبو حامد. تأخذني على قد عقلي، وكأني غشيمة يعني!

يهز أبو حامد رأسه، ويجيبها:

- أنت ست الكل. وما تقولينه عين العقل.

اشترى أبو حامد مذياعاً جديداً. وقال لأم حامد:

- الراديو أهم من الخبز هذه الأيام. يمكن أن أبقى ثلاثة أيام أو أكثر صائماً عن الطعام، أما الأخبار هذا مستحيل!

مع الأجواء الكئيبة التي فرضتها حرب حزيران، تراجعت جلسات الشلة الأسبوعية. انقطعت أكثر من عشرين يوماً. وخلالها قوّيت علاقة أبو حامد مع أبو صلاح، فأخبره بجهاز الراديو الجديد الذي اشتراه، وأخبره بما يفعله فادي، وكان أبو صلاح يهز رأسه قائلا:

- أنا أرى كل شيء من دكاني!

بدأت العلاقة بينهما قبل الحرب، فعندما يصل أبو حامد في الساعة الثانية والربع إلى رأس الحارة كان هذا يعني بالنسبة إليه سماع نشرة أخبار الشام بمعية أبو صلاح على الواقف!

قال له ذات يوم:

- اسمع يا أبو صلاح. أنا لا احب التجارة، ومن ثم لا تخف من ترددي على هذه الدكان. أنا لا أطمع في أن أشاركك فيها. فقط أنا أريد أن أسمع الأخبار!

هز أبو صلاح رأسه ضاحكاً:

- أنا جاهز يا جار، ولكن عليك أن تكمل الشراكة وتحكي لي أخبار الجرائد التي تشتريها من مكتبة الحمصي.

بعد أيام من الحرب وصلت صحيفة الأهرام إلى دمشق، فأحضرها أبو حامد، وقرأ عناوينها أمام أبو صلاح:

- إسقاط أكثر من ١١ طائرة للعدو خلال هجماته الأولى، وأسر وقتل عدد من طياريه.

لم يستجب أبو صلاح لحماسة العنوان، قال بروح مكسورة:

- أخشى أن تكون أخبار إذاعة لندن صحيحة، وأن تكون طائرات مصر هي التي دمرت على الأرض!

التقت عيونهما. سألا معاً:

- أهي هزيمة؟!

* * *

تضاربت الأخبار القادمة من الجبهة السورية، فقد لاقت مصيراً مماثلاً للجبهة المصرية، وعندما أذيع البلاغ العسكري الذي أعلن سقوط القنيطرة. جمدت الدماء في شرايين سكان الحارة. المتشائمون أنفسهم لم يصدقوا الخبر. عمَّ الحزن الوجوه والقلوب معا، وساد اليأس كل التحليلات التي تقال.

وجوه الناس الرمادية عبّرت ببساطة عن واقع الحال، فكيف تصل الأمور إلى هذه الدرجة؟ وأين التهديدات التي أطلقها العرب برمي إسرائيل في البحر؟!

- آه يا بحر! كم يسخر منا ماؤه ومن الأيام السوداء القادمة...

قال أبو محمود الإيتوني ذلك، وهو يدخل على الخط في الحوار الجاري بجوار دكان أبو صلاح، ووافقه أبو حامد:

- الأيام القادمة سوداء!

راح الجيش الشعبي يحفر الخنادق في دمشق، ويقيم المتاريس على الأرصفة. فسخر أبو صلاح والشيخ عبده من هذه الإجراءات:

- متاريس؟ يخزي العين، هذا يعني أن إسرائيل ستصل إلى بيوتنا!.

وقال الشيخ عبده:

- ارقصي يا هلالة!

أوقف عبد الناصر كل مجادلات حارة المؤيد عن الحرب، فقد شهدت الحارة مأساتها التاريخية لحظة أعلن الرئيس عبد الناصر مسؤوليته عن الهزيمة، وقدم استقالته...

لم يصدق أحد من سكان حارة المؤيد أن عبد الناصر استقال. بكت الحارة صغارها وكبارها. أحس الجميع أنهم هزموا. إذا اعترف عبد الناصر بالهزيمة، فهذا يعني أن الجميع هزموا.

علّق كثيرون على صوت عبد الناصر:

- كان مكسورا!

- صوته فيه مرارة!

ومع صوت عبد الناصر، تدفقت مجموعة من الناس نحو ساحة الجسر الأبيض، كانوا من النازحين الذين يبحثون عن سكن لهم في طريق الشيخ محي الدين!

بعد أيام حتى هرع أبو أنس الحمصي نحو دكان أبو صلاح وهو يحمل جريدة لبنانية، وصاح:

- هاهو مقال مالك عبد ربه عن الحرب. إنه يقول:

نحن صنعنا الهزيمة، ولابد من تحرك كبير لكي نخرج منها!

واجتمع آخرون ليقرؤوا ما كتبه مالك، وكان أبو أنس الحمصي يقرأ، وهم ينصتون إلى كلماته، ويهزون رؤوسهم!

تحطيم عود أبو وجيه!

ذلك المساء لاح طرف من قمر الشام في مطلع ربيع الأول، لكنه لم يتمكن من كسر العتمة التي عمّت في المدينة. انخفضت الأضواء إلى حدها الأدنى، فقد أدت الحرب إلى طلاء النوافذ باللون الأزرق، وتوزعت ورشات عمل صغيرة تقوم بتوقيف السيارات في الشوارع، وطمس مصابيحها الأمامية بصبغة أقراص النيل التي تستخدمها الأمهات في غسيل الثياب، وكان فادي يعمل في إحدى هذه الورشات.

فرضت العتمة جوّا كئيباً على ساحات الشام وشوارعها وحاراتها وشرفات بيوتها، فخفت الحركة، واختفى الناس في غرفهم ينصتون إلى الأخبار القادمة من جبهات مصر والأردن وسورية، وتفاصيل مبهمة عما حصل فعلياً في أرض المعارك.

عمّ الصمت الحارات، وكذلك حارة المؤيد، اختفت فيها الحركة بعد صلاة العشاء مباشرة، وشرعت المحلات التجارية بإغلاق أبوابها، وهجع السكان إلى بيوتهم، ومن نوافذ البيت الأسود المفتوحة ترامى عزف عود حزين فراح يتسلل إلى النوافذ الأخرى بسلاسة.

وصل أبو حامد إلى بيته بعد صلاة العشاء، سأل عن فادي فلم يجده، فعاتب زوجته بخوف:

- كيف تسمحين له بالبقاء خارج البيت إلى هذه الساعة.

فردت أم حامد:

- لقد صار شاباً. أخبرني أنه يساعد الدفاع المدني بطلاء مصابيح السيارات باللون الأزرق.

امتعض أبو حامد من كلامها، وهمس معاتباً:

- الله يسامحك يا أم حامد. الدنيا حرب... وفادي يظل طفلاً.

ونادى على حامد:

- الله يرضى عليك. اذهب واطلب من فادي أن يعود إلى البيت.

وعندما همّ فادي بالخروج من البيت تعالى الصياح في حارة المؤيد. تغيّرت تعابير أبو فادي، وأنصت بقلق:

«ترى ما الذي حصل؟!»، «لعل شيئاً أصاب فادي!». وامتقع وجه أم حامد، وصرخت:

- حامد. استعجل وابحث عن أخيك.

خرج حامد، ولحق به أبوه، وكادت أم حامد وفدوى أن يلحقان بهما إلاّ أنهما وقفتا عند الباب الخارجي تحاولان التعرف إلى ما يجري. شاهدتا كثيرين من الحارة يخرجون من بيوتهم، ويتجهون نحو باب البيت الأسود، وهناك نشبت معركة بالأيدي بين اثنين من سكان بيت أغريبوز وساكن البيت الأسود. هجما على عازف العود، فأخرجا العود إلى الحارة وحطماه أمام الجميع وهما يشتمان ويلعنان هذا الكافر، الذي يسمى أبو وجيه الشيوعي!

لم يتدخل أحد من السكان بما يجري. فالأسئلة على الشفاه:

«ما الذي حصل؟!»، و«ماذا فعل ساكن البيت الأسود؟!» وكان المشهد غريباً، فقد دمي أنف أبو وجيه، وكذلك سالت الدماء من وجه أحد الشابين المهاجمين. وسُمعت أصوات:

- اطلبوا الشرطة. اتصلوا بمخفر الشرطة. يجب أن نعرف ما يجري في الحارة.

شاهد فادي الذي أنهى عمله في ورشة تعتيم مصابيح السيارات جزءاً من العراك الذي حصل. ركض نحو مكتبة الحمصي وطلب منه أن يتصل بالرقم ٩٣ لأن هناك خناقة في حارة المؤيد، لكن الشرطة لم تأت. وقال أحد زبائن المكتبة. يبدو أن الشرطة مشغولة بالحرب!

أبعد السكان الشابين عن المكان، وناشداهما بكف البلاء، فانكفأ تجمع الناس، وعاد أبو وجيه إلى البيت بلا عود، وظل حطامه مرمياً في أرض الحارة نحو نصف ساعة، إلى أن خرج من جديد وجمعه وأعاده إلى البيت.

كان فادي يعرف حقيقة ما جرى. فسكان بيت أغريبوز أعدوا العدة منذ فترة قصيرة، فهم لن يتركوا هذا الزنديق في الحارة، فهو بكداشي كافر كما قال أحدهم. وسمع فادي منهم أن ساكن البيت الأسود يجب أن يكف عن العزف، وعندما سألهم هل العزف حرام جاءه الجواب الحازم:

نعم إنه يصيب الحارة باللعنة، ولا يصح إلا استخدام الدفوف. وأخبره أن الدولة الاسلامية انهارت نتيجة الفسق والفجور في قصور السلاطين والعزف على العود لكي ترقص الجواري أمامهم.

سأله فادي:

- ماذا يعني جواري؟ فرد الشباب:

- نساء فاجرات والعياذ بالله!

ولم يفهم فادي معنى كلمة فاجرات. أخبر أباه بما حصل، وسأله عن معنى فاجرات، فرد أبو حامد:

- لو أن المسألة تتعلق بالنساء وملابسهن والجواري والغلمان، ما كان الله قد قال ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**﴾.

وقال أيضاً:

- إن لكل شيء حساباً.

لم يخفِ فادي المسألة عن ساكن البيت الأسود، فقد وجده عند الباب فسأله بفضول:

- عمو لماذا تعزف على العود؟!

أجابه الرجل ضاحكاً:

- ألم يعجبك صوت العود؟

- بلى، ولكن حرام...

- ومن قال لك إن العزف حرام. الحرام يا ابني هو ظلم الناس وأكل حقوقهم، والهروب إلى هذه المسائل يخفي حقيقة أن الإسلام كان دينا ثورياً!

تعقدت المسألة في رأس فادي، فقد تاهت المعاني التي تقال له في تحديد الحقيقة التي يراها، فعاد إلى السؤال:

- هل صحيح أنك كافر؟!

تجهم أبو وجيه. ترك السؤال معلقاً، ولم يجب فادي. أمسك العود الجديد الذي أتى به بدلا من عوده المحطم، وعاد إلى العزف، ظل فادي حائراً، وكانت أخبار سقوط القنيطرة قد تأكدت، ووصل إلى الحارة نازحون من هناك ليسكنوا فيها وكانت مزنة معهم، فانشغل بها!

حاول أبو صلاح التدخل لحل المشكلة بين سكان بيت أغريبوز وساكن البيت الأسود، فلم يستطع. قال له الشيخ عبده الخرسا لايتفق الماء مع النار، وسأله:

- هل تتوقع أن يتصالح الشيوعي مع شباب مؤمنين حريصين على دينهم وحارتهم؟!

قال أبو صلاح:

- أفهم من كلامك أنك توافق على هجومهم على بيته وضربه وتحطيم العود الذي يعزف عليه؟!

رد الشيخ عبده متأسفاً:

- معاذ الله. معاذ الله أنا لا يمكن أن أوافق على الاعتداء على الجار حتى لو كان كافراً.

وهنا رد أبو صلاح:

- هذا هو الإسلام.

أما أبو حامد فقد قاطع شباب البيت الأسود، لم يعد يرمي التحية عليهم، فكل واحد على دينه الله يعينه. وهمس بسر لأم حامد عندما قال:

- هل تعرفين؟ لقد طلب مني جيراننا الشباب أن أحضر حلقة ذكر معهم؟ وقال لي واحد منهم أن تشاركنا الاستغفار أفضل بكثير من قصصك عن جمال عبد الناصر...

فحذرته ام حامد:

- دخيلك لا نريد سياسة. بكفي الأيام السودا التي أخذوك فيها ع الكركون!

غرفة العناية المشددة:
عاشقا حديقة السبكي...!

دخلت مجموعة أطباء على الغرفة التي وُضعَ فيها فادي عبد الرحمن. كان معهم الدكتور رضوان المؤيد. لأول مرة يدخل فيها الدكتور المؤيد بعد الحادث. هرعوا بعفوية نحوه يهنئونه بالسلامة. شيء ما جمع مشاعرهم تجاهه. فرحتْ فدوى. فرح حامد أيضاً. ابتسمت مزنة له. وقالت الحمد لله ع السلامة شغلت بالنا. قطع الأطباء حديثهم. قال واحد منهم لا داعي لبقاء مريضكم في المستشفى، لقد تحسنت حاله كثيراً.

قال حامد ولكنه يهذي بلا انقطاع. تدخل الطبيب رضوان اتكلوا على الله يا جماعة. إذا كان يتذكر الجسر الأبيض ويحكي عن جدي فهو بخير. وابتسم.

سمعتُ اسم الجسر الأبيض. نهضّتُ من سريري. نزلتُ عنه. لم يكن الأطباء قد غادروا باب الغرفة التي خصّوني بها وقالوا إنها غرفة عناية مشددة. شعرت بضعف كبير. كان جسدي واهناً يشبه خرقة مبلولة. سألتهم ماذا يجري. رجعوا. رجع الدكتور رضوان. دققتُ في وجهه. كان وجههُ يحمل بقايا جروح. كان ثمة ضماد ملتصق برأسه من جهة الخلف. قال الدكتور رضوان أنت بخير. وضعك سيؤول إلى الشفاء. مطت الكلمة حروفها وأنا أحاول السيطرة على دوران الأرض بي... ستؤول... ؤول ؤووووووووووووولْ..

هويتُ. دوّار صعب حركني وكأني في أرجوحة تدور بسرعة. ثم رماني على الأرض. أحسست بجلبة وبأيد تحاول إعادتي إلى السرير. سمعت

أصواتاً قادمة من الجسر الأبيض. رأيت القطط السوداء تدور حولي وتصرخ في وجهي تريد مأوى. رأيت الجن يخاف مما يجري في الجسر الأبيض. كانت جرافات المحافظة تهدم جدران حارة المؤيد بوحشية، ثم تواجهني وأنا أقف على كومة تراب كبيرة مصاباً بالدهشة. كأن الجرافات تريد أن تأكلني. لاحت لي مئذنة جامع الجسر الأبيض ومن فوقها كان الأمير الجزائري يصيح بي اهدأ يافادي. اهدأ. وكانت ديمة ترتدي عباءة بيضاء وتغطي شعرها بإيشارب أسود. ناديتها ديمة. مه مه مهْ.

سمعت أن عبد الناصر مات. رأيت جنازته. جنازة كبيرة ومهولة. ومسيرات حزن في كل المدن العربية. بكى أبي. بكت أمي بكى جيراننا بكت الحارة كلها...

* * *

كان الورق الأخضر يتساقط على الأرصفة. يعني كان الخريف. أوراق المرجان والتمر حنه مرمية على ضفتي النهر على غير عادتها. سعلتْ أشجار الفلفل الأحمر كثيراً ثم بصقت حباتها على الارض وكأنها قطرات دم. كان النهر يتجه من حي الروضة إلى ساحة الجسر الأبيض هادئاً. قالت ديمة تعال نروح إلى حديقة السبكي. رحتُ معها إلى حديقة السبكي. حديقة السبكي مليئة بالأشجار والمراجيح والبط والإوز والأرانب. كان أبو فارس حارس الحديقة يُصفّر. يضع الصفارة على حافة فمه ويُصفّر. يُصفر أبو فارس فيفهم الأطفال أن عليهم عدم رمي أرتال البط والإوز بالحجارة. كان يقول حرام. ارموا لها الخبز. اتركوا الأرانب الخائفة. يُصفّر أبو فارس فيفهم الأطفال أن عليهم عدم المشي على المرج الأخضر الذي يغطي مساحات واسعة من الحديقة.

أنا وديمة لم يكن معنا خبز. أبو فارس لم يكن يصفر لنا من أجل الخبز. شاهدنا ونحن نمشي على المرج الأخضر. ظنت ديمة أنه يصفر لنا. ركضنا مثل أرنبين خائفين. ركضت ديما تلهث. ركضت أنا ألهث. لماذا يصفر لنا حارس الحديقة. هذا يعني أنه شاهدنا. أنا وديمة كنا خلف جدار الملجأ. لم يكن أبو فارس يرانا قلت لها أريد أن أرى صدرك. كشفت ديمة صدرها. تفتحت تفاحتان صغيرتان عند صدرها. قلتُ لها صدرك أصغر من صدر ماما. قالت لي اشرب حليب. حاولت. لم يخرج حليب. خرجت أصوات من فم ديمة لم أكن أسمعها من قبل. خفتُ. قلتُ لها ديمة شو في. قالت مافي شي اشرب حليب لا تخف.

فجأة أحسست بطعم الحليب. كان طعمه واضحاً في نوبة الارتجاف التي انتابت ديمة. ثم اللهاث الذي هاجمني وهاجمها وخاصة بعد أن ترامى صفير أبو فارس!

أحسست أني صرت كبيراً وأن ديمة أصبحت عروساً. مشى رتلٌ موحدٌ من البط والإوز عند رصيف البحرة البيضوية في قلب حديقة السبكي. تراكض أرنبان إلى وكرهما عند حافة التصريف. قالت ديمة البط حلو. قال فادي البط حلو. اتفقا أن يأتيا إلى حديقة السبكي كل يوم. كل يوم هه قالت ديمة. قال فادي كل يوم هه. كرر الحارس النفخ بصفارته، فركضت ديمة خائفة. ركض فادي خائفاً. اتجها نحو ساحة عرنوس. شاهدا المئات من الطلاب يركضون نحوهما.

قال طالب ألسنا بعثيين. قالت فتاة الجيش يرى أن الحزب على غلط. وسأل رجل عجوز ما الذي يجري. قال شاب يحمل جريدة بيده هناك حركة داخل حزب البعث تريد الأفضل. عبد الناصر مات والأسد سيرد على الهزيمة مة مة مهْ.

ارتفعت حرارتي من جديد. الحمى تأخذني إلى الماضي. شاهدت حافظ الأسد. أول مرة أشاهد حافظ الأسد شخصياً. في الصورة كان عابساً يرتدي ملابس ضباط طيارين. وعلى شرفة قصر الضيافة كان ضاحكاً متحمساً يرتدي طقماً. حملني سور قصر الضيافة على حديده الأسود. تذكرتْ جمال عبد الناصر وبطيخة صغيرة على كتفي أبيها في سوق الحميدية. قلتُ في نفسي صرت بطيخة كبيرة ليست على كتفي أبيها في سوق جمال عبد الناصر. كان حافظ الأسد يقف على شرفة القصر وإلى جانبه جمال الأتاسي زعيم الناصريين وخالد بكداش زعيم الشيوعيين. وعلى الشرفة اشتراكيون وبعثيون ووجوه كثيرة لا أعرفها. قلتُ سأنظر إليه ونظرتُ. حافظ الأسد يشبه جمال عبد الناصر وضجيج سوق الحميدية أيام البطيخة. قال حافظ الأسد: في مسيرتكم الضخمة... مه. مه. مهْ

وصدى وطنين وهتافات ثم صلى بالأموي وقال. مثل عبد الناصر قال الشعب. الانفتاح على الشعب على العرب على العالم. لوح بيديه. عبد الناصر لوح بيد واحدة مثل السيف. حافظ الأسد لوح بيديه الإثنتين مثل حمامتين طائرتين. لوح قصر الضيافة مثل جمال عبد الناصر. لوحت شرفة قصر الضيافة مثل حافظ الأسد. لوّح بشر وخلق كثيرون. وأنا فتى يحاول أن يعرف معنى ذلك. تركتُ سور قصر الضيافة. مشيت. وقلت رح. رح يا ستين عاماً يا أبو صلاح صلى عن حق وحقيق رح. رح يا جمال يا عبد الناصر يا حبيب الملايين...

جاءت وحوحة وتلتها أغطية ترتجف ثم غليان في جسدي. جاءت كمادات وصوت ماء ومزنة. قالت مزنة لحامد وضع فادي خطر ولايمكن إخراجه من المستشفى. الحرارة تسيطر على رأسه وأطرافه. قال حامد إن شاء الله خير.

جاء صوتي أريد حافظ الأسد. جاءني صوت الشيخ عبده الخرسا حافظ الأسد مثل عبد الناصر. ارتفع صوتي أريد حافظ ألأسد... وركض حامد. ركضت فدوى. ركضت مزنة. سألوا بصوت واحد خائف ماذا تريد. كل منهم أتى بكمادة ووضعها على رأسي ووجهي. ضاع وجهي. ضاع فمي... أحاول أن أريد، فلا أستطيع. وجدت يد مزنة تمسح شفتي بأصابعها وتقول ياحبيبي فادي... يا حبيبي جسدك مثل النار. مثل النار. وأنا أود أن أريد... فلا أستطيع. هزمتني مزنة بالكمادات وأصابعها الناعمة على شفتي...

أول مرة جربت مع مزنة كانت في يوم العيد. خرج أخوها وليد من الغرفة وتركنا معاً. كانت مزنة حلوة مثل ربيع انطاكية. قلت لها أنت حلوة. فردت بعفوية تسلم. اقتربت منها وخطفت قبلة. ضحكت من المفاجأة وسألتني بخبث وديمة.

قالت لي اشرب حليباً. شربتُ حليباً. حليب مزنة مثل حليب ديمة. صدرها طري. سمعت صوتها. وأحسست أنها تلهث. جاء الطبيب رآهم وهم يضعون الكمادات على وجهي. لم ير مزنة وهي تلهث. صاح بهم ابعدوا الكمادات عنه. أبعدوا الكمادات. سيختنق في هذه الحالة. ارتفع صوت أريد... صاح الطبيب أعيدوا الكمادات حرارته فوق الحد الطبيعي، وخرج.

أشعل حامد سيكارة. خرج دخان كثيف غامق. صار كل شيء أسود. قلتُ لحامد كل شيء أسود. لم يسمعني كانت الكمادات تحاصر فمي. سمعت أصوات غريبة تشبه أصوات الزي زي زي...

قلت لحامد أريد مزنة. قال هذه مزنة. قالت مزنة أنا مزنة. وقلت لمزنة نامي مزنة لينام الزي. زي. ونامت مزنة قالت لي شعّل القداحة. قلت لماذا

قالت ضاع الطوق. وقدحت النار. طلع شرار. ثم نار قالت مزنة طفّي القداحة لقيت الطوق. ولم أطفئ القداحة اقتربت القداحة وحدها من وجه مزنة سحبت القداحة يدي. لم يعد هناك زي زي رغم أنه ليل همست مزنة في شي. قلت وجهك. سألت باندهاش وجهي. قلت حلو. نفخت مزنة على القداحة زعلت القداحة وأغمضت عينيها. صار ليل. لم أشرب حليب ضممتها. أغمضتُ عيني على وجه شركسي. دخل صوتها من أجفاني ومن حلقي ومن شعري وقال الذي دخل مزنة أين ديمة مه مهْ.

كان وجه مزنة حلواً وهو حزين قال الحزين ديمة ضاعت. ومشى الحلو حزيناً. مشى الشركسي حلواً. مشت مزنة. ركبنا الباص وصلنا إلى بيت حلو مثل مزنة انتقلوا من الجسر الأبيض صاروا بالجبل بيت من أربع غرف ومشرقة. قدام المشرقة توجد الشام. والشام ككف مفتوحة قدام بيت مزنة. في البيت جلسنا في غرفة واحدة أنا ومزنة قالت مزنة هل تحبها إلى هذا الحد. قلت أحب مزنة والحليب يب يب ب بْ.

دفتر أبو صلاح!

هبّت نسمات الخريف على حارة المؤيد، وفي كل نسمة منها، تهتز الأغصان وترمي شيئاً من الأوراق الذابلة المعلقة بها!

تساقطت الأوراق الصفراء متهالكة على الأرض، سقطت من دون صراخ، لا تستطيع أوراق الخريف التعبير عن حزنها، تكتفي بأن تسلم نفسها للهواء، ثم تتهادى معه وكأنه يحملها على كفيه ويضعها في أرض البيت الواسعة!

عرفتْ أوراق الشجر أن الخريف قدرها، مثلما هو الربيع موسمها وشبابها، لذلك تتلون بصفار الموت، وتفك أياديها الضعيفة عن أمها الشجرة، وتهوي كغريق قُطعت أنفاسه فسلّم جسده لماء عميق يهوي فيه!

وكذلك فعلت دوالي العنب التي عرّشت على الجدران وتسلقتها لتخرج إلى الهواء الطلق، رمت الدوالي ماتبقى من أوراقها يابسة، فاختلطت مع أوراق الشجر الأخرى... تكدس ورق الشجر اليابس في بيوت الحارة ينتظر ربات البيوت أن يجمعنه ويرمينه في أحواض الزريعة لينمو من جديد، في لعبة الحياة والموت الأبدية.

لم تعرف أم حامد ما الذي دفعها في ذلك المساء إلى زيارة أم صلاح، شربت القهوة عندها قبل المغرب بنحو ساعة، حكت لها عن هواجسها مع الحياة، وعناية زوجها بقصة المدارس ومستقبل الأولاد، وأخبرتها أن زوجها يحترم أبو صلاح كثيراً، وقالت:

- صارا رفيقين بسرعة. يستمعان معا إلى الراديو منذ وقعت الحرب.

ردت أم صلاح:

- حتى في البيت يذكر أبو صلاح جارنا أبو حامد بالخير!

هزّت أم حامد رأسها، وكأنها تقول كذلك يفعل أبو حامد، ثم انتبهت إلى أن محيط البحرة الصغيرة مليء بالورق اليابس، وكأن زمناً طويلاً مرّ على تكدّسه، وعندما أحست أم صلاح بما رأت جارتها قالت تبرر لها هذه الحالة:

- ليس كسلاً يا أم حامد. تركت أوراق الشجر على الأرض لأن الخريف يخيفني. ينقبض صدري، ويضيق نفسي...

ثم تابعت بعد هنيهة من التفكير:

- عندما أجمع أوراق الشجر اليابس وأرميها، أشعر أني أقوم بعملية دفن لموتى.

ابتسمت أم حامد، همست وكأنها تكشف سرّها:

- أتعرفين من يجمع الأوراق في بيتنا؟!

وأضافت قبل أن تسمع الجواب:

- ابني فادي! لا أعرف ما الذي يدفعه لذلك. يقول لي يا ماما يجب أن ندفن الأوراق اليابسة في التراب. قالت المعلمة إن الأوراق اليابسة هي أوراق ميتة!

انقبض صدر أم صلاح أكثر، وهمست بحزن:

- فادي معه حق. الأوراق اليابسة مثلنا عندما نكبر، تموت، وينبغي أن تدفن!

سارعت أم حامد، تخرج أم صلاح من حزن سيطر عليها فجأة:

- العمر الطويل يا أم صلاح. سأقول لفادي أن يأتي ويجمع لك كل هذا الورق المكدس في باحة البيت!

* * *

في صباح اليوم التالي، لم يذهب أطفال الحارة إلى مدارسهم. خرجوا إلى اللعب بعد أن انتشر خبر المظاهرات في الشوارع قبل يومين. تواردت الأخبار عن تفاقم الخلاف على السلطة.

وبينما كان اللعب يستغرقهم سمعوا من صدر الحارة أصواتاً و ولاويل، ثم خمدّت، وخرج فادي عبد الرحمن من بيت أبو صلاح يصرخ:

- توفي أبو صلاح البوشي. توفي أبو صلاح البوشي...

ترامى الخبر في حارة المؤيد كأنه عصافير تناثرت باكية في كل الاتجاهات. الأطفال نقلوا الخبر عن فادي، وكانوا حزانى، والنساء نقلنه عن فادي وكنِّ حزانى، والرجال تلقوه كصدمة، وكانوا حزانى.

قال فادي:

- كنت أجمع أوراق الشجر لأم صلاح عندما صرخت.

بعد لحظات خمدت حماسة فادي، وبدا حزيناً، ثم قال:

- ظننته نائماً في الغرفة، فهو لم يذهب إلى الدكان!

كان الأطفال زبائن دائمين لدكانه، وكان أبو صلاح يخاف عليهم ويتدخل في حركاتهم إذا كانت تعرضهم للخطر.

بكى الشيخ عبده الخرسا، وركض أبو مالك عبد ربه من العفيف إلى حارة المؤيد ليشارك في الجنازة، وعندما سمع أبو نجوى بالخبر ارتدى ملابسه، واتجه إلى الشام قائلاً:

- كان أخي...

ترك أبو صلاح حارة المؤيد، مهزومة، مجروحة، لم تلتئم أحزانها بعد هزيمة حزيران، وبعد وفاة عبد الناصر. على العكس تماماً جاءت أخبار أخرى تقول إن المحافظة أمرت بهدمها لتزيد جروحها. كانت الأحلام شبه ميتة، وسكانها في دائرة حيرة لا تصدق!

وصل الخبر إلى أبو صلاح عن طريق مجموعة مهندسين جاؤوا إلى الجسر الأبيض، وشرع بعضهم بالحوار حول تفاصيل مستقبل الجسر الأبيض، دعاهم أبو صلاح إلى شرب الشاي، وسألهم، فقال واحد منهم:

- الحارات القديمة مآلها إلى التنظيم؟!

فسأله:

- كيف؟!

أجابه المهندس:

- ستسمع عما قريب!

مات أبو صلاح وحيداً. كان دفتره مطوياً إلى جوار السرير على طاولة صغيرة، وكأنه يعلن نهاية الحكاية. كتب فيه آخر ما استطاع كتابته عن روائح حارة المؤيد، ثم ارتخت يده، ولم تعد تستطيع استكمال الكتابة، عجز عقله عن التعبير، وعجزت روحه عن الصمود، فسلمها لبارئها.

كتب أبو صلاح على الدفتر آخر الكلمات:

«سيهدمون حارة المؤيد. إنهم يهدمون كلَّ شيء جميل في حياتنا. لا أعرف لماذا يفعلون ذلك. قال لي جارنا أبو حامد إن حريق ساحة عرنوس كان مقصوداً لأنهم أرادوا تهديم بيوتها، فهل سيحرقون حارة المؤيد؟... يالطيف تلطف».

آخر العبارات المكتوبة كانت:

«أشم رائحة قديمة جداً تشبه بخوراًهندياً كان يشعله أبي في أرض الديار!»

طغت رائحة البخور على كل روائح الأزهار التي حنت ظهرها فجأة في أركان بيته الجميل، ومع ذلك ظل الماء يتدفق في البحرة، وهدلت حمامة كانت تريد أن تنام في طرف السقف الخارجي للعلالي...

قبل أن يموت قرأ أبو صلاح عبارة كان قد كتبها قبل أشهر:

«تمكن جمال عبد الناصر من إقناعنا بالهزيمة وذلك لنبقى معه، وعندما قررالناس البقاء معه مات»

كانت خطوط الكلمات مهزوزة، لا تشبه الكلمات التي تملأ الصفحات السابقة، وكانت غير مؤرخة. وفي آخر الصفحات كتب عبارات مهمة، توحي بأنه نجح في أن يكتب على دفتره بعض الأحداث والوقائع، لكنه لم ينجح في أن يقدم كتاب يوميات يشبه كتاب البديري الحلاق عن وقائع الأحداث في مدينة دمشق التي يحبها...

عندما عاد أبو صلاح إلى البيت، دخل إلى غرفته، وجلس على طرف السرير وحيداً. وكانت المرة الأولى التي ينقل فيها الدفتر إلى البيت ليكتب تفاصيل الوقائع التي يراها مناسبة...

دخلت أم صلاح خلفه. سألته عن القلق المرسوم على وجهه. فلم يرد. طلبت منه الخروج لتناول العشاء مع الجميع، فهز رأسه، وعندما شاهدت الدفتر إلى جانبه على الطاولة الصغيرة واجهته بسؤال فضولي متوقع:

- هل هناك مشكلة في الحسابات؟ أم جئت لتكمل حسابات الدكان في البيت؟!

نظر إليها بوجه يحمل الكثير من العتب، فهي تعرف جيداً أن زمن التجارة الكبيرة ولّى منذ زمن طويل، وأن حسابات الدكان أقل من أن تحتاج إلى دفتر كبير كدفاتر التجار...

هزّ رأسه موافقاً، وكأنه لا يريد أن تعرف ما سيفعل. وبهدوء عاد إلى الدفتر، وراح يقلب أوراقه. استعاد أشياء قديمة مدونة فيه، وتوقف عن أشياء جديدة كتبها في الآونة الأخيرة، كان الدفتر بالنسبة إليه شريطاً قادراً على أن يحكي أشياء مهمة مما حصل:

«جماعة الانفصال لم يحلوا المشكلة فأسقطهم البعثيون. ظن السوريون أن الانفصاليين سيعيدون أيام القوتلي وهاشم بيك الأتاسي، فإذا هم في الانفصال يعيشون أجواء الانقلابات والبلاغ رقم واحد. بل يسجنون الرئيس ناظم القدسي نفسه...»

«البلاغات عادت، والانقلابات شغالة. والفرق أن ما يجري الآن وما كان يجري لا يتعلق بالشيشكلي ولا بالزعيم ولا بالحناوي. ما يجري شيء آخر، والعسكريون الذين قاموا بانقلابهم لم يتفقوا بعد على ما يريدون مع أنهم يسمون ما قاموا به ثورة آذار، في البداية أخرجوا الناصريين من الحكم، وبعدها أخرجوا أكرم الحوراني وصلاح البيطار، ثم أطاحوا بالفريق أمين الحافظ... واليوم اللهم يلطف».

«الله نجانا من آراء غادة السمان وفتنة متحف التاريخ. كاد البلد يشتعل بحريق لا ينتهي. الشيخ حسن حبنكة تسرع. الحكمة أفضل لوأد الفتن»

«عادل المؤيد، عاد من باريس مع أمه الإفرنسية، ثم أخذا الحكيم خالد معهما إلى باريس لعلاجه، والله هو الشافي».

وكتب أبو صلاح ملاحظة تقول:

«سكان الحارة المستأجرون فقراء، بينهم الشباب الذين جاؤوا إلى الشام لدراسة الشريعة وظنوا أن الشريعة هي حمل العصي على الناس. وبينهم شراكس نزحوا من القنيطرة. هناك موظفون، ولكنهم يرفعون صوتهم ولا يخافون. طلب اثنان منهم أن أفتح لكل منهما حسابا شهرياً... لاحول ولا قوة إلا بالله».

«أبو حامد جارنا يفهم كثيرا بالسياسة. يتوقع انقلابا بين البعثيين يقوده وزير الدفاع، ويقول إن سورية تحتاج إلى زعيم مثل عبد الناصر. أنا قلت له: تحتاج زعيم مثل القوتلي شريطة أن لا يتنازل عن الحكم لغيره، فرد علي: شكري بك وطني ع العين والراس...»

«يقولون إن وزير الدفاع حافظ الأسد سيستلم الحكم، ويبدأ بالانفتاح على الناس، وقيل إن أهم ما في رأيه أن عصر الانقلابات يجب أن ينتهي لأن المعركة مع إسرائيل هي الأهم. الشيخ عبده لم ترضه هذه الآراء. غضب وقال إن وزير الدفاع عسكري، وأبو محمود الإيتوني متخوف على مصالح البلد».

آخر لحظات حارة المؤيد!

«هذا يوم لا أنساه!»

بهذه الكلمات، عبّرت أم حامد عن مشاعرها، وهي تخرج مع الخارجين من حارة المؤيد في آخر النسمات التي هبت من روائح الأيام الحلوة في حارة شامية تعطرت بأزهار أبدية الرائحة...

لم تتردد أم حامد، وكانت آخر من غادر البيت، لم تتردد في سقاية شجرة الكولونيا التي تركتها وحيدة تفوح بعطر أخاذ يسحر الفؤاد، نظرت إلى البحرة وقد سبحت فيها ورقتان سقطتا من أغصان شجرة اليافوي. كان ماء البحرة نظيفاً رقراقاً يرتسم عليه بعضٌ من شعاع الشمس الذي تسرب إلى البيت في تلك اللحظات.

أغلقت الباب وخرجت. وكذلك فعلت أم صلاح التي قرأت سورة «الفاتحة» على روح زوجها وجالت على الجدران الحزينة في آخر نظرة على البيت الشهيد الذي ستتركه لخلود الذاكرة، ثم خرجت تحمل سلتها ودفتر الأيام الذي تركه لها ابو صلاح ومضي.

أما أم عبده الخرسا التي كانت لا تحب الاختلاط كثيراً مع نساء الحارة، وكانت تمضي أغلب وقتها في الصلاة وقراءة القرآن، فقد أجهشت في البكاء وهي تقترب خارجة من باب البيت واحتارت أتتركه مفتوحاً أم تغلقه خلفها كغطاء قبر فيه جزء كبير من حياتها، وأخيراً حسمت الأمر، وقرأت آية كريمة تقول: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**﴾، ثم خرجت.

كثيرات من النسوة خرجن وهنَّ لايبالين بالحدث الذي تشهده حارة المؤيد، وخاصة من المستأجرات اللواتي توقعن حارة جديدة أجمل، كان الخروج متواقتاً بين السكان مثل هجرة الطيور في مواسم البرد!

هاجر سكان الحارة في ذلك الصباح الحزين، وكأنهم اتفقوا على موعد واحد. كانت العربات والطنابر وسيارات البيك أب قد شرعت تنقل أثاث البيوت على مدار اليومين الماضيين إلى حيث وجد سكانها مكاناً جديداً يعيشون فيه في أطراف الشام...

لم يبق إلاّ أشياء قليلة مما خف حمله وغلا ثمنه وكبرت قيمتُه حَمَلها السكان وخرجوا في مشهد حزين سوف يحفر في ذاكرتهم وذاكرة سكان منطقة الجسر الأبيض طويلاً.

الشيخ عبده الخرسا مشى محني الظهر، وكأنه يتكئ على عكاز قصيرة، يغذ السير وقد سبقت خطواته خطوات زوجته وبناته. تلك أول مرة يمشي على هذا النحو، كان مكسوراً مثل غصن طوته يد قوية فانحنى مهزوماً تتطلع عيناه إلى حارة فارغة شرعت الجرافات بالاقتراب من جدرانها.

انتقل ناظم الإيتوني قبل يومين، ولم يترك في حارته سوى عبارة كتبها ابنه محمود على أحد جدران بيته الداخلية، وكأنها رسالة إلى الزمن يعاتبه فيها على رحيل فايزة. كتب محمود بقطعة طبشور حمراء:

إلى فايزة التي أخذها الزمن منّا... سامحينا!

ولم تشأ أم محمود إلا أن تأتي مع ديمة في صبيحة اليوم الأخير لتأخذ صورة فايزة بنفسها وبعض الأشياء الصغيرة، ولم يأت معها لا ابنها ولا زوجها، ظلا مع أم هشام في البيت الجديد قرب حديقة السبكي يرتبان غرفه وأثاثه.

مشت أم صلاح برفقة أحد أصهرتها الذي انتظرها عند باب البيت ثم مشي بجوارها يحمل سلة القصب، وتحت إبطه دفتر من دفاتر أبو صلاح، أوصته حماته أن يبقى هذا الدفتر محفوظاً أمانة تركها رجلٌ ميت!

خرج السكان المستأجرون فرادى وجماعات، وبينهم مشى أبو فادي يحذر الأطفال من الاقتراب من الجرافات التي بدأت جنازيرها تندفع بقوة نحو مكتبة الحمصي لتلتهم واجهتها وتفتح ثغرة في جدران الحارة تدخل من خلالها إلى بقية البيوت بعد أن فشلت في الدخول من خربة قصر المؤيد نتيجة أكوام الحجارة المكدسة...

انتبه أبو حامد إلى أن طفلاً ما همس بأذن فادي فانشق عنه وركض مسرعاً عائداً إلى البيت. صاح به:

- أين ذهبت؟ سيهدمون الحارة فوق رؤوسنا إن عدنا!

لم يلتفت فادي إلى نداء أبيه. ولا إلى صوت حامد الذي ناداه بخوف:

- فادي... فادي!

توقف خروج موكب المستأجرين من الحارة ليعرف ما الذي حصل، وكان الطفل قد همس في أذن فادي أن ديمة جاءت صباحاً مع جدتها إلى بيت جدّها.

ركض فادي مثل مجنون. عند أول منعطف وقع على الأرض متعثراً بأشياء مرمية في الطريق. نهض، نفض الأتربة عن ملابسه، وجدَّ السير، وجد الباب مفتوحاً، ناداها:

ديماا. ودخل إلى بيت الإيتوني.

واجهته ديمة عند جذع شجرة تجاور باب غرفة فايزة. خرجت جدّتها من البيت. شاهدته. شاهدتهما وهما ينظران بشغف إلى بعضهما البعض.

صمتت. أحست أن عليها أن تترك هذه اللحظات لقداستها وعفويتها. كانت ديمة الراضي تساعد جدتها أم محمود الإيتوني وقد حملت صورة فوتوغراف قام المصور بتلوينها لفايزة، فبانت ضحكة فايزة في الصورة كضحكة ممثلات هوليوود اللواتي لم تكن الحارة قد تعرفت إليهن بعد!

سمعته يقول لديمة:

- أريد أن أشاهد غرفة فايزة.

- تعال.

دخلا إلى غرفة فايزة. غرفة فارغة موحشة. نُقل أثاثها قبل يومين. بقيت صورتها معلقة على الجدار، فأنزلتها ديمة، نظرت ديمة إليه. أحست أنه يريد أن يتعرف إلى تفاصيل غرفة خالتها المتوفاة. أوحت إليه الغرفة الفارغة، أن ديمة كبرت، وصارت مثل فايزة تشبه تلك البطلة التي شاهدها في السينما...

اقترب فادي من النافذة، ورنا إلى الحارة، ثم انكفأ وكأنه لا يريد رؤية أحد. خرج أولاً ثم خرجت ديمة. التفت فرأى أم محمود وهي تغلق الباب وتدير المفتاح في القفل عدة مرات. ثم تمضي ممسكة بيد ديمة التي ظلت تنظر إليه...

سألها فادي:

- أين بيت جدتك الجديد؟! فأجابت ديمة:

- في السبكي... قرب حديقة السبكي. سأنام اليوم هناك...

وضحكت. لوحت له بيدها، وهمست:

- تذكّر أبو فارس. البناء الذي يواجه جدار الملجأ!

وشعر فادي أن قلبه يخفق بشدة!

لم ينم فادي في الليلة الأولى التي وصلوا فيها إلى بيتهم الجديد، أغاظته رائحة الإسمنت وهي تتسلل إلى أنفه من جدران البيت. استأجره أبوه على مقربة من دمشق فأجرة البيوت هناك أقل بكثير منها في الجسر الأبيض...

أرّقته هذه الرائحة. ما أن تدخل إلى الأنف حتى يضيق الصدر منها. دائما كان يقول لأمه «أنا أحب رائحة الطين»، فأي قدر ذاك الذي نقله إلى بيت من الاسمنت لم تجف رطوبته بعد؟!

نهض عند الصباح. ارتدى بنطاله الأسود وقميصه الأخضر، ومسح أثراً باقياً من غبار اليوم السابق، ثم ركب الباص وعاد إلى الجسر الأبيض. مرّ قبالة عتبة الحارة، فوجدها كما هي، واقترب من الجرافات، فإذا هي واقفة. نزل في الشارع نحو حديقة السبكي. جلس عند حافة الجدار الذي جمعه مع ديمة. نظر إلى الطرف الآخر، فإذا ديمة تقف على الشرفة، وكأنها تنتظره. لوّح لها بيده. لوحت له بيدها. ونهض. كانت حركة قليلة من السيارات تسيطر على الشارع النظيف. لم يكن هناك أولاد يلعبون في الشارع. لم يكن هناك حارة. كان هناك علب من الإسمنت مكدسة فوق بعضها البعض، فتحت بعض النوافذ فيها، وبرزت شرفات ضيقة منها، فلا يوجد أرض ديار ولا بحرة ولا دالية عنب زيني ولا شجرة يافاوي ولا حوض زريعة ولا نبتة محكمة!

تفتحت ديمة عند مدخل البناية مثل نبتة المحكمة. ركض نحوها. خافت عليه. نادته:

- على مهلك.

لم يتوقف. وصل إليها. أراد أن يحضنها قبل أن تخرج إلى فضاء الشارع، فصدّته:

- عيب.

خجل فادي. ومشى بجوارها منكس الرأس. سألته أين سنذهب، وقبل أن يجيبها قررت أن يعودا إلى الجسر الأبيض ليتفرجا على خراب الحارة.

لم تقم الجرافات التي تجمعت في الخربة إلاّ بتهديم مكتبة الحمصي وغرف البيت الأسود وجزء من جدار خربة قصر المؤيد وتوقفت بعد أن هدمت الجدران الداخلية للبيت الأسود...

كان أبو أنس الحمصي يتجادل مع سائق الجرافة:

- بدأتم الهدم من هنا. لماذا لم تدخلوا من خرابة قصر المؤيد، فيصبح كل شيء سهلاً!

رد السائق:

- لم تفرغ الحارة من سكانها بعد، ثم ألا ترى أكوام الحجارة التي تعيق حركة الجرافات!

كان فادي وديما يجاوران المكان، وينظران إلى الحارة هادئة تنتظر حتفها، والجرافات تنتظر شيئاً ما لم يعرفانه، ولم يعرفه أبو أنس الحمصي، إلا بعد حين عندما فتح باب بيت أغريبوز وشرع شاغلوه يرحلون منه!

غرفة العناية المشددة:
خروج سكان بيت أغريبوز!

سمع فادي صوت الجرافة. أيكون هناك أشخاص في البيوت التي ستهدم، من يمكنه التأكد من ذلك. كان فادي يكاد يلتصق بديمة عندما سمع صوت الجرافة. الجرافة لم تتحرك. ظلت في مكانها. ثم انطفأ محركها، ونزل منها السائق. بدأت حركة داخل الحارة. فادي وديمة لا يريان المشهد بوضوح. احتار فادي ماذا يفعل. أمسك بيدها قائلاً تعالي. تعالي ديمة. فسألته إلى أين. ومشت معه. عندما يمشي فادي وهو يمسك يد ديمة تمشي معه. مشت معه. كان هناك كومة تراب على مقربة من جانب البيت الأسود المهدم. صعد فادي. صعدت ديمة. شاهد فادي الحارة من الداخل. أحس بشوق عظيم إليها. شد على يدها. قال لها هذا بيتنا. قالت له هذا بيت جدي...

بين بيت عبد ربه الذي سكن فيه أبو حامد وأخوه مع أسرتيهما وبيت ناظم الإيتوني عدة أمتار. في هذه الأمتار نسج فادي حكايته الجميلة مع ديمة. ديمة!!!!!

الحرارة تنهش رأس فادي. وقال حامد:

- يجب أن نخرج من المستشفى كما طلب الأطباء.

صاح فادي من جديد. ديمة !!!!..

فُتح بيت أغريبوز. تذكر فادي أن أحداً لم يخرج من بيت أغريبوز صباح أمس. قال لديمة كلهم خرجوا أمس إلاّ سكان بيت أغريبوز. خرج

سكان بيت أغريبوز. حدّق فادي جيداً. حدّقت ديمة جيداً. رأتهم يرتدون ملابس بيضاء. ووضعت على رؤوسهم أكياس سوداء.

أمسك بيد ديمة. صعد إلى مكان أعلى في تلة التراب قرب البيت الأسود. تذكر سكان بيت أغريبوز. تذكر التهليلة. الله. الله. الله. تذكر الملبس الطيب الذي أعطوه له. وتذكر ليلة حطموا العود لساكن البيت الأسود. سمع غناءً قديماً لعازف عود كان يعزف خلال الليل.

تذكرت ديمة جدّها. قال لها جدّها ذات يوم اسمعي يا ديمة كانت الشام أحلى. لم تفهم ديمة ماذا يعني كلام جدها. سألت نفسها هل هناك أحلى من فادي.ي.ي.ي. يْ.

أخفى ناظم الإيتوني شيئا مهماً عن سكان حارته، فعندما قامت الوحدة أخذه ثلاثة رجال من مباحث السراج وأدخلوه في نفق، وبعد ساعة وضعوا على رأسه كيساً أسود، فإذا هو عند السراج نفسه. قال له السراج:

- لا نريد منك شيئاً. نريد أن تعرف أهمية المشوار إلى مكاتبنا.

كانت الشام أحلى. هذه الجملة قالها الشيخ عبده لزوجته التي لا تحب الاختلاط بأحد، ولا يمكنها أن تبوح بسر الشيخ زوجها. أخفى الشيخ عبده ما حصل معه عن الحارة، فعندما ألقى الشيخ حسن حبنكة خطبته عن الكاتبة (الملحدة) غادة السمان التي خرج المصلون إثرها إلى الشارع، أخذه ثلاثة رجال إلى كركون الشيخ حسن. وضعوا على رأسه كيسا أسود، وأدخلوه إلى غرفة واسعة في الكركون مليئة بالناس، ثم أخرجوه بعد أن عرفوا أنه ليس من أتباع الشيخ حسن.

كانت الشام أحلى. قالها الرئيس ناظم القدسي نفسه عندما أخذه رجال الانفصال وطلبوا منه الاستقالة، وضعوه أمانة في الشرطة العسكرية،

وهناك كان حارسه شرطياً، ولأنه كان يحدق من النافذة حذره الشرطي بأنه سيضع على رأسه كيساً أسود إن لم يكف عن التحديق. فطلب منه سيكارة. أعطاه الشرطي سيكارة، وبعد يوم واحد عاد رئيسا فأرسل للشرطي عشر علب سكائر وقيل له هذه هدية من الرئيس الذي هددته بالكيس الأسود أيها الشرطي!

«كانت الشام أحلى!»

عبارة كتبها أبو صلاح على دفتره، وكتب تحتها كلاماً كثيراً، ومن ذلك الكلام أن سورية قبل الوحدة كانت تعيش بثبات ونبات بعد أن هرب الشيشكلي واستقر الوضع. وكل ما نريده هو أن يستقر الوضع وتبقى الشام أحلى!

وضعت مزنة ماء بارداً على رأس فادي. قالت له:

- إهدأ فادي.

لم يهدأ فادي. حدّق جيداً في خربة قصر المؤيد. إنها قطط سوداء تخرج بين الحجارة. ارتجفت ديمة. اختلطت عليها الأشياء. تذكرت حكاية قديمة سمعتها عن جن كانوا في حارة المؤيد يشبهون القطط السوداء. في الحكاية أن قصراً كبيراً غزاه الجن. لم تكن ديمة قد ولدت. لم يكن شقيقها هشام الراضي قد ولد بعد. لم تكن فايزة إيتوني قد ماتت بعد. خرج الجن لصاحب القصر على شكل قطط سوداء. خرج صاحب القصر إلى الشارع. كان هناك ضباب في شتاء بارد. د. د. دْ

لم يكن فادي يخاف من القطط السوداء. تذكر فطيرة الجبنة التي أكلها القط الأسود ذات يوم... وسمع أمه تقول بسم الله الرحمن الرحيم. لماذا يخاف اليوم

من القطط السوداء وهي تخرج من خرابة القصر المهدوم. تسللت القطط من بين الحجارة واختفت في الشوارع والطرقات.

كان منظراً مخيفاً يتراءى من داخل حارة المؤيد. تغيّرت رائحة الحارة.

عندما انتهى خروج الناس من بيت أغريبوز سمع فادي صأصأة الجرافات وهي تغزو حارة المؤيد، فأمسك بيد ديمة وأمسكت ديمة بيده وراحا يتابعان خراب حارة المؤيد ويبكيان...

بكت مزنة، وهي ترى وجه فادي المسْوَد على سرير المستشفى. سمعت أنينه، وكأنه يبكي. سألت مزنة لماذا تبكي يا حبيبي فادي. سمعت فدوى سؤالها أعادته لماذا تبكي يا أخي فادي. وكذلك فعل حامد. تجمعوا حوله يسألونه لماذا يبكي. وفادي يسمع ويبكي ولا يردْ. كانت حارة المؤيد تبكي، تنهار الجدران على الأشجار وتبكي. تهوي الأشجار على البحرات وتبكي. وتتدفق مياه البحرات على أرض الديار وتبكي. تهتز أرض الديار تحت وقع حركة الجرافات التي تقترب وتبكي. تظاهرة محزنة من البكاء على مأتم معجون بين الماضي والحاضر.

فجأة توقفت حركة الجرافة التي تحفر في قصر المؤيد. نزل منها السائق، وأخرج كيسا من وسط ركام مخلوط بالتراب. نظر حوله ثم أخذه بحذر وأخفاه داخل الجرافة!

ارتفعت حرارة فادي أكثر من المتوقع. سمع فادي صوت الماء يتبخر على رأسه ش. ش. ش. ششششششت وكأن حريقا قد وقع...

تقدمت جرافة كبيرة من جدار بيت عبد ربه الخارجي. نقرته بذراعها الحديدية القوية، ششششششت فانهار. انكشفت بحرة البيت والياسمينة والدالية. صار البيت مفضوحاً. انهارت جدران أخرى من البيت. تعالى

صراخ فادي. تقدمت جرافة أخرى. نقرت بذراعها الحديدية الجدار الخارجي لبيت الإيتوني شششششت فانهار. انكشفت غرفة فايزة من الداخل. تراءى الشرشف الذي غطت فيه جسدها الذي انهار أمام النافذة. رأت ديمة خالتها عارية. عارية بجسد جميل ساحر. بكت. ماتت فايزة قبل أن تصبح الشام أحلى.. شششششت انهارت غرفة فايزة.

تعالى الغبار في حارة المؤيد. تعالى صراخ مزنة وحامد وفدوى. أحس فادي أن حريقا يجتاح المستشفى ويتمدد في كل مكان شششششت.خمدت أصوات الجميع. كان هناك صدى. فادي يلهث. حرارته ارتفعت. توقف لهاثه. جاءت أصوات. سمعها فادي وكأنها تأتي من حارة المؤيد. كان بينها صوت الأمير الجزائري:

كمادات لفادي. وصدى. كمادات. مات. مات. وطنين تْ.

فهرس المحتوى

الصفحة

عماد ندّاف

عرف الكاتب السوري عماد ندّاف **(**مواليد ١٩٥٦**)** بأعماله التلفزيونية والمهام التي كلف بها على هذا الصعيد، وأنجز برامج وثائقية وثقافية على مدار أربعين عاماً في الإذاعة والتلفزيون، كما أصدر كتابات مهمة على الصعيد المهني والأدبي، ومن بينها**:**

الكتابات الأدبية المنشورة:

- الكتابة على الماء – قبرص – **(**قصص**)**.
- وردة غان**:** قصة حب – دار الينابيع – **(**رواية**)**.
- ما الذي حصل يا إلهي؟**!** دار الطليعة الجديدة – **(**قصص**)**.
- خجل الكستناء **(**قصص قصيرة جداً**)**.
- جرائم شتوية **(**قصص قصيرة جداً**)**.
- مظاهرات غير مرخصة – وزارة الثقافة – **(**قصص قصيرة جداً**)**.
- اذكريني دائماً **(**رواية لم تكتمل**)**.

الروايات غير المنشورة:

- عكاكيز التاريخ **(**مخطوطة**)**.
- الجبل الأحدب **(**مخطوطة**)**.

كتب الدراسات المنشورة:

- الدراما التلفزيونية**:** من السيناريو إلى الإخراج بمشاركة أخيه محمد نداف.
- الكتابة الدرامية التلفزيونية – **(**وزارة الثقافة**)**.
- تطور النص التلفزيوني **(**السيناريو**)** – **(**وزارة الثقافة**)**.
- قضايا الأحزاب والقوى السياسية في سورية– **(**القاهرة**)**.
- أسامة بن لادن **(**واحد من مليار**)** – **(**بيروت**)**.

٢٠٢٢م



يتابع الأديب عماد نداف كتاباته عن مدينة دمشق وكأنه يؤسس لمشروع متكامل عن مدينة يحبها ويعشق خفاياها، فبعد حكاياته «المخفية في شقوق جدران دمشق» التي جمعها بعنوان «اذكريني دائماً» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب، ينشر اليوم «حكايات حارة المؤيد» من خلال عنوان سحري يجمعها هو «الجن والعاشقات».

تجري أحداث الرواية في حارة قديمة من حارات منطقة الجسر الأبيض، التي تقع في الطريق إلى قمة جبل قاسيون. وفي زمنين متقاربين وأسلوبين مختلفين، الأول ويحكي فيه عن أحداث عاشتها دمشق في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ويستخدم فيه لغة الهذيان في استرجاع الأحداث والشخصيات. والثاني سردي واقعي يعيد فيه صياغة الهذيان على نحو منطقي.

إن رواية «حكايات حارة المؤيد – الجن والعاشقات» يمكن بأسلوبها الجديد ولغتها السحرية اعتبارها شريطاً جديداً من أشرطة الأدب الشفاف الذي يحاكي وقائع هذه المدينة التاريخية العظيمة ومنعطفات تاريخها.

ISBN 978-9933-0-1463-0

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٢م

سعر النسخة ١٣٠٠٠ ل.س أو ما يعادلها